كتب غيرت الفكر الإنسانى

الجزء العاشر

أحمد محمد الشنوانى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٧

الألف كتاب فى سطور .....

صــــدر مشروع الألف كتاب الأول عام ١٩٥٥ بإشــــراف الإدارة العامــــة للثقافة، التابعة لوزارة التربية والتعليم. وقد اهتم بأمهات الكتب العالمية والكلاســيكيات، كما شمل العلوم البحتة، والعلوم التطبيقــية، والمعــارف العامــة، والفلسفة وعلم النفس، والديانات، والعلوم الاجتماعية، واللغات، والفــنون الجمــيلة، والأدب بفــروعه، والتاريخ والجغرافــيا والــتراجم. وتوقــف العمل به عام ١٩٦٩.

صدر مشروع الألف كتاب الثانى عام ١٩٨٦عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد اهتم بترجمة الكتــب الحديــثة محاولــةً منه للاتصال بالثورة العلمية والثقافة العالمية المعاصرة .

وقــد قُســمت إصدارات المشروع إلى ١٩ فرعًا هـــى: الموســوعات والمعـــاجم، والدراســـات الاســـتراتيجية وقضـــايا العصـــر، والعلـــوم والتكنولوجـــيا، والاقتصـــاد والعلـــوم الإدارية، ومصـــر عـــبر العصور، والكلاسيكيات، والفن التشـــكيلى والموســـيقى، والحضارات العالمية، والـــتاريخ، والجغرافيا والرحلات، والفلسفة وعلم الـــنفس، والعلوم الاجتماعية، والمسرح، والطب والصـــحة، والآداب واللغة، والإعلام، والسينما، وكتب غيرت الفكر الإنسانى، والأعمال المختارة.

(أنظر القائمة آخر الكتاب)

كتب غيرت الفكر الإنساني

● الكتاب: كتب غيرت الفكر الإنسانى
الجزء العاشر
● الكاتب: أحمد محمد الشنوانى
● الطبعة الأولى ٢٠٠٧
● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة.
ت:٥٧٧٥٢٢٨/٥٧٧٥٠٠٠
فاكس: ٥٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢)
ص.ب: ٢٣٥ـ الرقم البريدى: ١١٧٩٤رمسيس
WWW.egyptianbook.org
E-mail:info@egyptianbook.org

الشنوانى ، أحمد محمد .
كتب غيرت الفكر الإنسانى/ أحمد محمد الشنوانى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
مج ١٠ ؛ ٢٤ سم . ـ (الألف كتاب الثانى)
تدمك ٧ ٥٦٤ ٤١٩ ٩٧٧
١ ـ التاريخ .
(أ) العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٣٥/ ٢٠٠٧
I.S.B.N 977 - 419 - 564 -7
ديوى ٩٠٠

إهـــداء

إنما الرجل العظيم كتاب خالد وضعه القدر لكل الأجيال

ولكل الشعوب تقتدي به وتحذو حذوه.

وإذا كان أبي، سبب وجودي في الحياة، فإنه أيضًا

أستاذي الذي علمني كيف أشق طريقي في الحياة.

فإلى الذي أضاء لي شموع حياتي فهدتني الطريق

إلى روح هذا الرجل العظيم

أهدي هذه الموسوعة.

أحمد محمد الشنواني

الفهـرس

تقديم للأجزاء العشرة

بقلم: احمد زكى عبد الحليم
مدير عام التحرير بدار الهلال

العشرة الطيبة

الكتاب تاريخ الإنسان..

فالإنسان المخلوق الوحيد الذى يعرف أن له تاريخًا مكتوبًا، وأيضًا الذى يضيف صفحات إلى تاريخه، ليؤكد على أنه يتقدم ويتطور، وأن الفكر الإنسانى لا يتوقف أبدًا.

ولقد ظل الإنسان حينًا من الدهر وهو لا يختلف كثيرًا عن الكائنات الأخرى، إلى أن نضج، وأدرك أهمية أن يكون له تاريخ، وبدأ يسجل هذا التاريخ فوق الصخور وعلى جدران المعابد، وكأنه يريد أن يؤكد لمن يأتى بعده أنه أحد آباء الإنسانية، وبالتالى فإن من حقه أن يعيش آلاف السنين.

وهذه حقيقة، فهناك كتب ألَّفها الإنسان من حوالى سبعة آلاف سنة، ومن ذلك مثلاً كتاب «الموتى» الذى يعتبر أقدم كتاب فى الدنيا، والذى يقال إن كهنة هليوبوليس قد وضعوه منذ أكثر من ٤٥٥٠ سنة قبل الميلاد.

وهكذا يمكن أن نتحدث عن الملاحم البابلية، وشريعة حمورابى ... وغير ذلك من الكتب التى وضعت أسس الإنسانية التى تقوم على العقل والفكر، والتى تدعو إلى التوحيد، والتى تشيد بالبطولة. وفى كل الحالات فإن الكتابة قد اتجهت إلى تمجيد العقل والروح على حساب قوة البدن والنزعة نحو التدمير والعدوان.

ورغم أن تاريخ الكتاب يمتد إلى أكثر من سبعة آلاف سنة، فإن أجيالاً عديدة قد جاءت، ومضت دون أن تحيط علمًا بتاريخ الكتاب، فضلاً عن قدرتها على الاستفادة من هذه الكتب أو من بعض ما جاء فيها. بل قد نذهب إلى أبعد من ذلك، فنقول إن هناك من لا يدرى شيئًا عن الكتاب أو تاريخ الكتاب.

ولذلك فلقد كان من المهم أن نرفع العقل فوق الجسد من جديد، وأن نعيد للكتاب اعتباره وأهميته.

وكانت هذه بداية الفكرة لدى الصديق الكاتب الصحفى المعروف الأستاذ أحمد الشنوانى، الذى كان يأمل أن يقدم بعض العناوين المهمة التى تضمن أسس المعرفة لدى الأجيال الجديدة. وكنت أتصور أنه يمكن أن يقدم على هذا الطريق نحو عشرين عنوانًا أو أكثر قليلاً. ولكنه تجاوز هذا الأمل بكثير. فقد أتاحت له إقامته بين جدران عديدة وكثيفة من الكتب أن يعيد النظر فى الكتب الأساسية التى استطاعت أن تغير بالفعل تاريخ الفكر الإنسانى. وفى كل مرة كان يستطيع أن يبهرنا بجديد من هذه العناوين، وهى فى الوقت نفسه عناوين ضرورية للثقافة والمعرفة، حتى تصورت أنه قد وضع يده على نهر يغترف منه، وأن هذا النهر على عذوبته وثرائه نهر بلا قرار، فهو نهر له شكل المحيط، وله خصائص الأنهار، بدليل أنه ظل يغترف منه حتى وصل إلى عشرة أجزاء، قدم فيها ١٣٥ كتابًا من عيون الكتب فى تاريخ الإنسانية.

ولو أننا طلبنا من أى مثقف أن يذكر لنا بعض العناوين، فإننى أتصور أن العد سوف يتوقف عند رقم عشرين أو ثلاثين مثلاً. ولكنك إذا ذكرت له أسماء أخرى بعد ذلك، فإنه سوف يبدى انبهاره، فإن هذه العناوين تدخل أيضًا فى العناوين الإنسانية المهمة.

إذن، فإن الكتب التى قدمها أحمد الشنوانى فى هذه السلسلة خلاصة تاريخ الإنسان. ومن حق الكبار والأجيال الناشئة أن تتعرف إليها، وأن تنال قسطًا من المعرفة حولها. فإذا كان لها رغبة فى الازدياد، فإن مجال الاطلاع مفتوح. ومع ذلك، فإننى أزعم أن أحمد الشنوانى قد أحاط بكل الأفكار الأساسية التى جاءت فى هذه الكتب، وأنه قد قدم جرعة مكثفة من الثقافة والمعرفة فى كل مجال من مجالات المعرفة المتعددة.

ثم إن أحمد الشنوانى كان قارئًا جيدًا لتاريخ الإنسانية، وبالتالى فإنه قد تتبع الكتب المهمة فى فترات النضوج الحضارى. ومن المعروف أن الحضارات تمر بمراحل بداية، ثم

مراحل نضج، ثم مرحلة كهولة وضمور، وأحيانًا تصل إلى الجانب الآخر من السفح، فتختفى هذه الحضارات تمامًا، وإذا كنا مثلاً نرى أن الحضارة الفرعونية مازالت ذات جذور لم تصل إليها الإنسانية بعد، فإن حضارات أخرى مثل الحضارة البابلية، والحضارة اليونانية القديمة، والحضارة الرومانية، وغيرها من الحضارات قد برزت ثم اختفت تمامًا.

فى أوقات الازدهار الحضارى، كان الكتاب هو العنوان الأول والواضح الذى يدل على هذا الازدهار، وهكذا فإن أحمد الشنوانى قد تتبع أهم الكتب فى أروع عصور التاريخ، وقدم لنا من الشرق والغرب، ومن القديم والحديث ومن الشعر والنثر، ما يدل على هذه العصور من ناحية، وما يضيف إلى روافد الثقافة والمعرفة الإنسانية من ناحية أخرى.

لقد عشنا زمنًا مع كتاب (الموتى) الذى هو أقدم كتاب فى الدنيا، والذى أرخ للحياة المصرية القديمة سواء فى الدنيا أو بعد الممات، وقد كتب كهنة هليوبوليس هذا الكتاب منذ عام ٤٥٥٠ قبل الميلاد.

وهناك أسطورة قصة الخلق البابلية، والتى تعتبر أقدم الملاحم الدينية التى كتبها أهل بابل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد.

ومن مصر الفرعونية ودولة بابل إلى أرض الإغريق حيث ظهرت الإلياذة التى كتبها هوميروس عام ٩٠٠ قبل الميلاد.

ونعود من بلاد الإغريق لنتوقف عند الأسطورة الأشورية وهى أسطورة سميراميس، والتى ظهرت عام ٦٠٠ قبل الميلاد.

وفى التاريخ نفسه تقريبًا، كانت تولد دولة اللغة والشعر والفصاحة فوق الأرض العربية، وهكذا ظهرت المعلقات ـ وهى من عيون الشعر العربى ـ التى كانت تعلق فوق أستار الكعبة المشرفة.

وقبل أن تسقط الحضارة اليونانية القديمة، ظهرت كتب كثيرة ذات آثار بعيدة فى التاريخ والفكر الإنسانى، نذكر منها مسرحية (ميديا) التى غيرت مضمون التراجيديا تغييرًا جذريًا، وهى المسرحية التى كتبها يوربيديس عام ٤٣١ قبل الميلاد، ومسرحية (الضفادع) التى كتبها أرستوفانيس عام ٤٠٥ قبل الميلاد. و (المحاورات) لسقراط التى

كتبها عام ٤٠٠ قبل الميلاد. و (الجمهورية) لأفلاطون فى العام نفسه، و(أوديب ملكًا) لسوفوكليس فى الفترة نفسها. واستمر هذا المد الحضارى الفكرى حتى عام ١٧٠م، حيث ظهرت التأملات لأوريليوس.

منذ ذلك التاريخ، عاد الزمام إلى أيدى الأمة العربية الناهضة، والتى احتوت تحت أستار الدين الإسلامى بلاد فارس وغيرها، فظهرت كتب مهمة مثل (كليلة ودمنة) لابن المقفع، و(العين) أول معجم عربى للخليل بن أحمد، و(الموطأ) الذى يعتبر أساس المدرسة الفقهية للإمام مالك بن أنس، والرسالة للإمام الشافعى.

ونحن فى الحقيقة لا نستطيع أن نلهث وراء ١٣٥ عنوانًا رئيسيًا من عناوين الفكر الإنسانى ، ولكن يكفى أن نذكر أسماء كتب مضيئة ليتضح لنا أننا كنا فى حاجة شديدة إلى أن نستعيد ما فيها، وأن نقدم هذا الفكر لأجيال جديدة تبحث عن المعرفة الإنسانية.

فهناك مصنفات جابر بن حيان الكيمائية، و(الحاوى) الذى يعتبر أعظم مرجع طبى فى العالم حتى اليوم لأبى بكر الرازى، و(الزيج الصابئ) أول جدول فلكى للبتانى، و(إحصاء العلوم) للفارابى، و(مروج الذهب) للمسعودى، و(القانون) فى الطب للرئيس ابن سينا، و(المناظر) لابن الهيثم، و(القانون المسعودى فى الحياة والنجوم) للبيرونى، و(التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوى، وهو أساس النهضة الأوربية على مدى خمسة قرون، ومثله كتاب (الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد أهل الملة) لابن رشد، و(معجم البلدان) لياقوت الحموى، و(الفتوحات الملكية) لابن عربى، و(شرح تشريح القانون) لابن النفيس. وأخيرًا وليس آخرًا كتاب (تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار) لابن بطوطة.

وإذا كان هذا هو تاريخ العرب العلمى، أو بالأصح بعضًا منه، فهناك أيضًا تاريخ اللغة والشعر، مثل: (ملحمة عنترة بن شداد)، و(البخلاء) للجاحظ، و(الرسائل الفلسفية) للكندى، و(الأغانى) للأصفهانى، وكتاب (الزهرة) لابن داود الظاهرى، و(ديوان المتنبى)، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه، و(رسالة الغفران) لأبى العلاء المعرى، و(رباعيات الخيام)، و(ديوان المثنوى) لجلال الدين بن الرومى.

وقد ظل هذا التاريخ متوهجًا من منتصف القرن الرابع عشر الميلادى تقريبًا، ثم بدأت نهضة أوربا والتى استمرت حتى الآن، وأشهر كتب البداية كتاب الديكاميرون

لبوكاشيو. ومن بعده جاءت (الكوميديا الإلهية) لدانتى، و(الأمير) لميكيافيللى، و(دون كيشوت) لسرفانتس، ومسرحيات شكسبير، و(التأملات) لديكارت، و(الفردوس المفقود) لجون ميلتون، و(البخيل) لموليير، و(علم الأخلاق) لإسبينوزا، و(حكايات لافونتين)، و(رحلات جليفر) لسويفت، و(الرسائل) لفولتير، و(العقد الاجتماعى) لجان جاك روسو، و(فارست) لجوته، و(كوخ العم توم) لهارييت بيتشر ستو. و(مدام بوفارى) لفلوبير، و(الإخوة كرامازوف) لديستويفسكى و(دافيد كوبر فيلد) لتشارلز ديكنز، و(الحرب والسلام) رائعة تولستوى، و(رأس المال) لكارل ماركس.

أما كتب القرن العشرين، فكان أبرزها كتاب (رسالة التوحيد) للإمام محمد عبده، الذى يكشف فيه عن جوهر العقيدة الإسلامية، وكتاب (تفسير الأحلام) الذى يعتبر أول محاولة فى تاريخ علاج الأمراض النفسية، وقد كتبه (سيجموند فرويد)، ثم نظرية (النسبية) التى كانت أساس التقدم العلمى المذهل لألبرت أينشتاين، وكتاب (الإدارة العلمية) الذى أرسى قواعد علم إدارة الأعمال لفردريك تايلور.

أليس صحيحًا بعد ذلك كله أن نعترف بأن هذه الكتب وغيرها من الكتب التى رصدها الأستاذ أحمد الشنوانى فى موسوعته، قد استطاعت فعلاً أن تلعب دورًا فى تغيير الفكر الإنسانى؟

فإذا اعترفنا بذلك، فلابد أن نعترف فى الوقت نفسه بقدر الوقت والجهد والدأب والبحث والدراسة، حتى توقف أحمد الشنوانى عند هذه العناوين ليكون له جزاء الباحث القدير والمتمكن من رصد الفكر الإنسانى على مدى سبعة آلاف سنة.

وفى النهاية، فإننى لا أملك إلا أن أقول كلمة واحدة، وهى أننى أتصور أن هذه الموسوعة سوف تضاف ذات يوم إلى تلك الكتب الرائعة التى تستحق أن تعيش أبدًا.

المقدمة

لعل التاريخ أكثر المواد إثارة وجاذبية للقارئ العادى وللدارس المتخصص على السواء، فقراءته متعة للعقل والخيال معًا، فهو خلاصة بحوث ودراسات ورؤى وأفكار عكف عليها آلاف المؤرخين طوال التاريخ ليرووا لنا قصة الحياة:

كيف كان وجود الإنسان؟

وكيف أصبح؟

ويختلف أسلوب الباحثين فى تفسيرهم لمادة التاريخ:

فمنهم من يقدمونه من خلال الأحداث الهامة البارزة والمؤثرة فيه، والتى تمثل علامات المرور التى تحدد للتاريخ مساره وطريقه.

ومنهم من يقدمونه من خلال أبطاله وأعلامه الذين برزوا بما قدموا للإنسانية من كشف أو علم أو فكر، فهل يصنع أحداث التاريخ إلا الإنسان نفسه؟ ومن خلال فكره؟

ومن حيث الفكر، فهو الذى يقود العالم، إنه القوة الحقيقية التى تقرر مصائر الشعوب والأمم وتحدد لها أهدافها، فليس من شىء أغلى من الطاقة الفكرية، ولا أعظم من نفحات العقل، وهمسات القريحة وثبات الرأى، وإن أهم ما يصبو إليه الطغاة وأعداء الإنسانية هو إبادة أصحاب القرائح والعبقريات، لأنها تزيل من طريقهم قوى الفكر التى تخيفهم.

إن الأفكار تتمتع بقوة ذاتية هائلة لا حدود لها، فإنها لا تخنقها المقاومة ولا ترديها الخصومة، بل إنها لتستكين تحت الضغط زمنًا ثم لا تلبث أن تنفجر. إنها تفعل فعلها ببطء دائمًا - صديقة كانت أو عدوة - ولئن عارضها فريق، وحمل عليها آخر فإن هذا لا يحول دون تأثيرها فى أصدقائها وفى أعدائها، بل وفى أشد الناس هجومًا عليها. وهنا مصدر قوتها.

كما أن الأفكار - على مدى التاريخ - لا تعترف بالحدود والسدود، بل تتعداها لأنها بطبيعتها عالمية جامعة. فهى لا تحبس داخل الحدود الجغرافية والسياسية، ولا تختص بها أمة دون أخرى، وإنما هى تنتشر وتستمر فتفرض سلطانها على بنى الإنسان بقدر ما بها من طاقة وحيوية، ولا سيما فى هذا العصر الذى أصبحت حياة الناس فيه عالمية إلى أبعد الحدود بفضل العلم وتشابك المصالح بين جميع الأسرة البشرية، فلقد مضى عهد العزلة واشتدت الحاجة فى كل أمة إلى أن تدير البصر حولها لتعلم:

من أين تجيئها التيارات التى تؤثر فيها؟

وكيف تغزو الأفكار والآراء والعقائد؟

وكيف تنتشر؟

وما من صلاح أو تقدم حدث، وما من نهضة تحققت أو رسالة انتصرت، إلا وبدأت خاطرة راودت الأذهان، أو أملاً جاش فى الصدور، أو مثلاً أعلى توجهت إليه الهمم وتعلقت به النفوس، أى بدأت فكرة تغذى بها صاحبها أولاً، ثم أصبحت غذاء للآخرين، ومركزًا للإشعاع منه ينطلق التاريخ، وذلك ينطبق بالطبع على آثار صاحب الفكرة من كتب ومؤلفات، لأنها شعلة منه وجزء من كيانه، فيها جوهر وجوده، وأنت تحس حين تقرؤها بنفحة من نفحاته، فليت شعرى، إلام يصير العالم لو أطاح الزمان بمكتباته؟ يخيل إلىَّ أن الإنسانية لو حرمت من مكتباتها لحرمت من وسائل حياتها، ومبرر وجودها، فكل مكتبة إنما هى مجموعة من وسائل ومناهج وأسباب للحياة.

أمّا دخلت إلى عالم الكتب، ففكرت فى هذه العصارات من الحكمة المعتقة استقطرها أصحابها من خير ما فى قلوبهم وعقولهم، ورصدوها شرابًا سائغًا حسبة للقاصدين المرتوين؟ وبماذا تكرم الحياة إن لم تكرم بفكرة؟ وبماذا تنتقل الفكرة من جيل إلى جيل ومن أمة إلى أمة إن لم تنتقل بكتاب؟

إذن فالكتب هى التى أضاءت طريق الإنسان، منذ عرف نور العلم والمعرفة باعتبار أن هذا الإنسان يتميز بالعقل، وباعتبار أنه يستفيد من ثقافته بقدر ما يستفيد من خبرته.

والكتب العظيمة فى حياة الإنسان، كالأحداث العظيمة، لا تأتى بموعد مسبق ولا يرتبط ظهورها بزمان ولا مكان محددين، وإنما هى فلتات تجود بها الحياة كلما أراد الله وأضاء وجه الحياة عباقرة العقول والمواهب شرقًا وغربًا.

فنجد فى حياة الإنسانية عددًا من الكتب العظيمة والرائدة التى كان لها أعظم الأثر على مسيرة الحياة والإنسان والتاريخ والثقافة والفكر والعلم والمدنية.

والكتب الرائدة فى الفكر العالمى كتب كثيرة ومتنوعة، ففى أى فرع من فروع التأليف فى الفكر الإنسانى، نجد كتبًا عظيمة كان لها فضل الريادة فى ميدانها على مدى التاريخ الإنسانى الطويل.

ورغم أهمية هذه الكتب، إلا أنها من النادر أن تجد شخصًا قرأها جميعًا وذلك لصعوبة الحصول عليها مجتمعة، أو لندرة طباعتها أو....

لذلك.. فقد قدمت هذه الموسوعة بأجزائها العشرة...

وإننى أقدم إليك - عزيزى القارئ - الجزء العاشر من هذه الموسوعة (كتب غيرت الفكر الإنسانى) لتكتمل فيها عصارة مائة وخمسة وثلاثين كتابًا من أمهات الكتب العربية والغربية ومن أهم ما قدم عباقرة العلم والسياسة والقانون والفلسفة والأدب، والتى أثرت تأثيرًا عظيمًا فى الفكر الإنسانى على مر العصور، والتى تعد بحق من الأعمدة فى الحضارات الإنسانية، والتى كان لها أكبر الأثر فى تغيير فهم الإنسان لنفسه وللمجتمع الإنسانى من حوله.

وقد أردت بهذا العمل أن أقدم للقارئ العربى زادًا من ثقافات أخرى، وثمرًا من رياض غير رياضنا حتى يكون عملى إضافة إلى بضاعتنا الثقافية وإثراء لها، وما من كتاب قدمته فى هذه الأجزاء العشرة إلا وتحريت أن يكون من نفائس الذهن العربى والغربى مما لا أتوقع أن يكون فى متناول الكثيرين. وما أنا فى هذا إلا كزارع يبحث عن الطيب المستجاد من خيرات الأرض ليزرع بذوره فى أرضه لتغنى وتثرى.

فى هذه الموسوعة بأجزائها العشرة، مؤلفون محدثون ممن يملكون نواصى عالم الفكر اليوم، وآخرون قدامى ممن كتبوا كتبًا لا يتقادم بها الزمان ولا تموت ولا تخمل، فهى حديثة أبدًا.

وفى الصفحات التالية أقدم للقارئ العربى الجزء العاشر من هذه الموسوعة، وبه طائفة من الكتب من عيون ما قرأت فى العربية وغير العربية، لفت نظرى فيها، ما فيها من عمق وتجربة وخبرة فى شتى نواحى المعرفة، وقد تحريت فيما اخترت أن يكون هذا الكتاب حافلاً بزاد أصيل نافع، لذلك رأيت أن أضعها بين يدى القارئ لعله يجد فيها ما وجدت.

وما أردت إلا الخير، والله أسأل أن ينفع به ويجعله خالصًا لوجهه الكريم.

والله المستعان أن يحقق به الفوائد وهو حسبى وكفى.

والحمد لله حمد الشاكرين.

أحمد الشنوانى

أسطورة قصة الخلق

أسطورة بابلية

أقدم الملاحم الدينية

(٣٠٠٠ ق.م)

الأساطير فى الحقيقة هى مجموعة من الأكاذيب، ولكنها أكاذيب كانت لقرون طويلة حقائق يؤمن بها الناس. كان لها فى عقلية الأقدمين ما للعقائد والحقائق من قيمة، وبهذه الصفة قد ألهمت الناس، ودعمت تنظيمات الكثير منها محترم للغاية، وألهمت الفنانين والشعراء والأدباء أفكارًا خلاقة، بل وروائع مدهشة.

فمن ناحية المعتقدات، فالإنسانية لا تحتكم فيها إلى العقل، وإنما هى تستهدى الرغبة أو الحاجة إلى معرفة علة الكائنات والأشياء، وليس فى مقدور المذاهب الفلسفية أن تقنع الإنسانية، فتحت أنظارها من العجائب ما لا قبل لها بتحرى أسبابه وعلله. فتلجأ أول الأمر إلى العلم، ولكن إذا لم يتأت للعلم أن يفيدها بشىء وكانت فى حاجة إلى تفسير كاف أو مقنع، لجأت إلى القلب والخيال.

يقال إن كل ما فى طفولة الشعوب من عقائد وأشياء يؤمن بها الناس، حسن، ولكن هل تستطيع الإنسانية فى فترة نضوج الشعوب، عندما تهيأ لها أن العلم قد كشف القناع عن قدر كبير من أسرار الطبيعة، هل تستطيع أن تتباهى بأنها تتطور فى نور ساطع؟ ألا يوجد فى العالم حتى الآن عدد لا آخر له من الأركان المظلمة؟ وحتى إذا سلمنا بأن كل أسرار الطبيعة المرئية المحسوسة قد تكشف، ألا يبقى مع ذلك عالم ما وراء الطبيعة، عالمًا غير منظور ولا ملموس، لا سلطان للعلم عليه، ولم تستطع الفلسفة بجهودها أن تزيل النقاب عن حقيقته أو تتعمقه حتى الآن؟

أما العالم القديم الذى كانت علومه بدائية وقاصرة كل القصور، فقد أقام إلهًا فى كل موضع خفى على مداركه، وهذا ما يفسر بعض الشىء العدد الكبير من الآلهة. ولكن هناك أشياء أخرى. فكل ما كان يثير الإعجاب أو الدهش أو الخوف أو الفزع فى نفوس الأولين اتخذ فى أنظارهم سمة إلهية. كانت الآلهة لدى الإنسان البدائى تمثل كل ما يتخطى نطاق العقل البشرى. ولم يكن الإله هو الكائن المطلق، الكامل، القادر على كل

شىء الكريم الطيب فى عظمته وجلاله وحَسْب، وإنما - أيضًا - الكائن غير العادى الهائل، المعجز فى قوته وشروره وخبث نواياه.

ولم تكن الكائنات الحية وحدها هى التى تتقلد هذه السمة الإلهية فى أنظار أهالى العصور الأولى، فالأشياء نفسها كانت آلهة. قصارى القول، إن الآلهة ليست هى التى تنفذ داخل الأشياء ولكن الأشياء نفسها كانت فى حقيقتها آلهة. وتنقسم الروح الإلهية التى تنتشر فى كل أنحاء العالم إلى عدد لا نهاية له من الأرواح التى هى - أيضًا - آلهة تتوزع فى كل الجهات بين مختلف المخلوقات. بل أكثر فضائل الإنسان وعواطفه تجردًا تتميز هى الأخرى بسمة فائقة للطبيعة، وبأنها تحمل الخاتم الإلهى، وتتقلد بصورة خاصة شارات وصفات الآلهة.

وتتيح دراسة الأساطير التعرف بمدارك عالم بدائى فى ضوء خافت، أو ظلال خفيفة غامضة عبر سنين طويلة. وإذا لم نر فى هذه الأساطير سوى ضروب من الشطحات الذهنية الفجة والمعتقدات الخرافية، فإنا نكون قد حكمنا عليها، بلا شك حسب الظاهر، ولكنا من جهة أخرى إذا لم نعتبرها أكثر من رموز شفافة، وحاولنا أن نفسرها بملاحظة العالم الطبيعى المادى، فإنا نكون قد تجاوزنا مبرر حدود الحقيقة الواقعة. وللخيال والهوى نصيب كبير فى هذا السرد الطويل للمعتقدات الأسطورية التى اعتنقتها الشعوب القديمة، وقد اهتم كل قرن وكل جيل بزيادة عدد آلهته وأبطاله وأعاجيبه ومعجزاته.

ونحن لا نجهل أن الأساطير مهملة بعض الشىء فى مضمار الأدب، بيد أنه كان لها عصرها من النهضة والحظوة، وقد طبعت لغتنا بطابعها الخاص، ولم تزل أبدًا كنزًا من الأفكار الخلابة والصور الرائعة. وإذا نظرنا اليوم إلى معارض التصوير والنحت، وجدنا أن الآلهة القديمة لم يزل لها فى دنيا الفنانين الكثير من الأشياع أو الأنصار الجدد. ولسوف تجتهد ريشة الرسام، وإزميل الحفار، زمنًا طويلاً فى تصوير أفعال الآلهة، والأبطال، وأوضاعها وملامحها وسلوكها، مستوحية ربات الفنون وربات الرشاقة. وليس من سبيل للتاريخ فى أن يتغلب على الأقصوصة الخرافية فى مضمار الفن: فالحقيقة الواقعة، مهما كانت رائعة وسامية وملهمة، فهى مع ذلك محدودة بنطاقها، فى حين أنه لا حدود أو أقيسة فى معطيات الخيال والإحساس، وهكذا فمهما زادت حصيلة الواقع التاريخى، فإن هذا الواقع لن يكون له أبدًا فى نظر الفنان والشاعر ما للقصة الخيالية من رحابة وخصوبة وسحر.

تعريف بالملحمة

كانت الآلهة هى الشرطة الخفية للدولة البابلية التى عاشت منذ خمسة آلاف سنة على شواطئ دجلة والفرات.. والتى سارت حضارتها جنبًا إلى جنب مع حضارة الفراعنة. غير أن آلهة بابل كانوا أكثر عددًا من آلهة مصر.. حتى لقد بلغ عددها فى إحصاء رسمى ٦٥٠٠٠ إله، إذ كان لكل قرية إله يحميها. ولم يكن الآلهة يعيشون بعيدًا عن الأهلين.. فقد كان معظمهم يعيشون على الأرض فى الهياكل، يأكلون الطعام بشهية قوية، ويزورون الصالحات من النساء فى أثناء الليل فيستولدونهن أطفالاً، ولم يكن أهل بابل العاملون المجدون يتوقعون أن يولدوا أبدًا.

غير أن الناس مع كل ذلك كانوا يؤمنون بإله أكبر.. هو أعظم الآلهة جعلوا اسمه ذات يوم «نو» ثم انتصر الإله «مردوك» على كل الآلهة.. وصار هو كبيرهم.. وعلى يديه خلقت البشرية.. وجرى الطوفان..!

لم يكن هناك سوى «أبسو» الفضاء المظلم.. و«تيامات» المياه التى لا تحد، لا سماء ولا أرض، لا آلهة ولا بشر، لاشىء من ذلك أبدًا سوى الفضاء المحيط، والمياه الممتدة إلى ما لا نهاية.. بكل ما فيها من اضطراب وفوضى. تضرب الأطناب، وتخرج - من بعد - كل شىء حى ..!

ولم تكن المياه قد تشكلت بعد فى محيطات وبحار، أو بحيرات وأنهار. بل كانت كلها شيئًا واحدًا، واسعًا إلى غير حدود، عميقًا إلى اللانهاية. أما المستقبل، فما كان يبدو منه شىء قط.. لا شىء سوى ظلمة أخرى حالكة.. أشد سوادًا من أعماق الليل نفسه..!

وتعاقبت الأزمان، حتى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء، ومن اختلاطهما خرجت أشياء أخذت تنمو وتتخذ لها أشكالاً عديدة غريبة، ثم ظلت ترتفع حتى استقرت فى أعلى وكان منها كل آلهة النور..

وأطلقت «تيامات إلى المخلوقات الجديدة، وملأها الفزع.. فما كانوا قط من طينتها، ولا تشكلوا أبدًا بأشكالها. فهى لم تكن تعرف فى حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب. أما الذين يعيشون فى أعلى.. فلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار، وكان هذا كله عكس ما تريد.. بل كان هذا كله أول أسباب الحقد والغضب والثورة على آلهة النور..

وقررت «تيامات» أن تتخلص من المخلوقات الجديدة.. وأن تشن عليهم حربًا لا هوادة فيها.

وظلت «تيامات» تعمل بلا انقطاع.. فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المفترسة، وانطلقت الثعابين الهائلة ذات السم.. وعلى سطح الماء برزت رءوس التنانين، بشعة تثير الرعب، وخرجت كلاب مفترسة لا مثيل لوحشيتها، وعقارب مخيفة سوداء كالمردة، ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كسيول شريرة مجنونة... تتحرك تحت إمرة الوحش «كنجو» العملاق، الذى وعدته (تيامات) بالزواج وإعطائه ملك كل شىء، إذا تغلب على آلهة النور، وسحقهم بذراعه القوية الجبارة..

وفوجئ الآلهة بعدوان «تيامات»، وكان أول من عرف نواياها هو الإله «آى» الذى ساق الخبر إلى الإلهة «أنشار»، وامتلأ قلبه حنقًا وسخطًا، يختلط بالخوف والرعدة مما قد يحل بمجتمع الآلهة، وانطلق «أنشار» إلى الإله «أونو» فكلفه بالذهاب إلى «تيامات» يسألها عن سر تحديها للآلهة..!

وانطلق أونو إلى مملكة «تيامات»..

غير أنه ما كاد يقترب، حتى نهض له «كنجو».. الوحش المارد المستلقى إلى جوار تيامات، وهاجمه فى شدة وعنف وجنون، وتوقف أونو، ثم حرك قدميه إلى الخلف ثم أدار ظهره، ثم ولى الإدبار هاربًا يجرى من مواجهة الحيوان الصاخب المهول..!

وتوالت مواكب الآلهة واحدًا فى إثر آخر، لمقابلة (تيامات).. ولكن أحدًا منهم لم يستطع الوصول إليها أو مناقشتها، ولا عرف أحد منهم كيف يبحث معها سر ذلك الغضب العنيف.

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر، وكان بينهم الإله «مردوك» الذى لم يكن قد جرب حظه مع تيامات من قبل، ومن خلال الفشل الذى منى به الجميع، أطلوا إلى «مردوك» وطلبوا منه أن ينازل الآلهة المتوحشة، وبغير ما خوف، انحنى «مردوك» وقد قبل النزال بشرط أن يقر له الجميع متى انتصر بأنه هو الأقوى.. ولا أحد أقوى منه.

ولم يكن أمام آلهة النور بد من القبول.. ومنح (مردوك) السلطة السماوية الكاملة ليكون له حكم الكون كله..!

أراد «مردوك» ـ قبل أن يمضى لمصارعة «تيامات» ـ أن يجرب ما لديه من فنون القوة. وأتى الإله برداء طويل ألقاه أمام كل الآلهة.. وتلا بضع تراتيل لم يكد ينهيها

حتى اختفى الثوب وتلاشى.. وأخذ الآلهة العجب وطلبوا منه أن يعيد الرداء كما كان. وعاد مردوك يتلو تراتيله فإذا الرداء يعود، ويمتد فى المكان نفسه الذى كان قد تلاشى فيه.

واقتنع «مردوك» بأن أحدًا من الآلهة لم يعد له مثل نفوذه وسلطانه. فقرر البدء فى رحلة الانتقام.

وانتفض مردوك وهو ينهض ليبدأ الصراع الجبار. فبدا رائعًا وهو يتحرك ومن أمامه تبرق البروق، ومن فوقه ترعد الرعود، والقوس الضخم فوق ظهره، والرمح الثقيل فى يده، والشبكة الهائلة التى قرر أن يصطاد بها الوحش كنجو الرهيب يجرجرها خلفه. لقد كان الإله المنتقم قد أعد عدته للكفاح، ولم يعد هناك سوى أن يلقى بروح الشر فى جسد تيامات..!

واستمر الإله مردوك يقود مركبة القدر ليصل إلى حيث تجرى المعركة. وعندما وجد أنه قد اقترب من المكان نطق كلمة واحدة، فإذا ريح مروعة تجرى أمامه، وإذا الريح تتحول فتصير عواصف، وزوابع وأعاصير، تتجمع كلها لتكون سلاحًا فى يد مردوك، سلاحًا أقوى من أى سلاح يمكن أن يحمله إله...

وأطلت الحيوانات الهائلة فإذا كل شىء قد انقلب، وإذا نور يشع من خوذته يخطف الأبصار، فهرعت تختفى فى أعماق الظلمة، وأفواهها من الخوف ترسل الزبد..!

واستمر مردوك، مصحوبًا بكل دعوات آلهة السماء، فى طريقه المرسوم.

وبلغ مملكة تيامات. وأطل فإذا وحش هائل فى شكل تنين مخيف، يحاول النهوض من استلقائه، ومن عينيه ينطلق بريق مخيف، ومن منخاريه يندلع لظى اللهب. وفتح التنين فمه فإذا به كجهنم.. النار تغلى فيه، والأصوات المرعبة ترعد وتدوى، ولا تسكت أبدًا.

وتوقف مردوك فى مكانه، وزعق يخاطب تيامات من بعيد.. ويطلب منها أن تجنح إلى السلم، وتبعد عن رأسها فكرة العدوان.

وقهقهت تيامات وهى تهتز. ثم سلطت فى سرعة على عدوها أقوى ما عرفته من تعاويذ السحر وأشدها أثرًا..

ولكن مردوك كان قد أعد العدة لإبعاد السحر عنه.. وفى لحظة، رفع شبكته الهائلة وألقى بها فى قوة إلى حيث وقفت تيامات.. واندفعت الإلهة الهائلة إلى الخلف، ولكن الشبكة أمسكتها، وجذبها الإله إليه ثم أطلق على فمها ريحًا صرصرًا عاتية.

ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكى تيامات.. واخترقت الحلقوم لتدخل فى بطنها الذى ظل ينتفخ وينتفخ.. وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ، رفع مردوك رمحه الضخم وطعن البطن المنتفخ فانفجر فى صوت صاخب كالرعد. وسقطت تيامات ميتة ..!

عندما انتهى مردوك من قتل تيامات، وقف فوق جسدها، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به فى الفضاء الأسود. ثم تحول إلى التنين الهائل فقضى عليه.. أما وحوشها الأخرى، وتوابعها السود، فقد أخذوا يصرخون وهم يحاولون الفرار، ولكنه لم يمهلهم بل أخذ يلقى عليهم شبكة تصطادهم واحدًا فى إثر آخر. ووقعوا كلهم فى الأسر.

وانحنى مردوك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضاء والقدر التى أعطتها له تيامات المذبوحة، تلك الحبوب التى تمنح النفوذ والسلطان. لكل من يحملها ـ على المصائر والأقدار.

وحملت رياح الجنوب دماء تيامات إلى أماكن سرية مجهولة، حين كان مردوك قد انحنى من جديد على جثتها، وشقها جزأين مستطيلين: رفع أحدهما السماوات .. وخفض الآخر ليكون الأرض..!

وعندما انتهى مردوك من رفع السماء، نثر على صفحتها الكواكب لتضىء ولتجرى فى طريق مرسوم.

وعندما أضاء مردوك السماء.. جعلها مكانًا لإقامة الآلهة «أونو وبعل وآى»، أما الآلهة الأخرى فقد قسم عليهم الكواكب، ليكون كل كوكب بيتًا لإله. ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب. كما جعل لإله القمر حكم الليل وإضاءته. ومنحه كل شهر يومًا يستريح فيه، أما الشبكة الهائلة التى صحبته فى معركته مع تيامات، فقد جعل لها كوكبًا ومعها القوس، وأما الرياح التى ساعدته فى القضاء عليها، فقد جعل منها كوكبًا جديدًا.

وإذا ما انتهى مردوك من إقرار كل إله فوق كوكبه، وضع نفسه هو الآخر فى كوكب كان أكبر من كل الكواكب الأخرى وأضخم.. وجعله المصدر الرئيسى للنور فى صفحة السماء..

غير أن مردوك لم ينس الأرض عندما كان يرفع صفحة السماء.. فقد كانت الأرض التى وضعها فى حاجة هى الأخرى إلى معجزة.

وأطل مردوك وهو يفكر. لقد كانت الآلهة فى حاجة إلى من يصلى لها ويعبدها.. وإذن .. فلتكن المعجزة هى خلق الإنسان.

وانحنى مردوك على الأرض، وشرع يعجن التراب بدمائه، ويصنع من الطين ناسًا تقوم على خدمة الآلهة، والصلاة لهم وعبادتهم.

وهكذا خلقت البشرية..!

عمرت الأرض بالمخلوقات الجديدة وطفق البشر يتزاوجون ويتناسلون، ويقيمون الصلاة للآلهة التى خلقتهم وسوت لهم الأرض وقدمت لهم النور من السماء..

ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلاً على منوال واحد.. فكلما ازداد عدد القوم تنافروا وتنازعوا، وإذا الصلوات تقل والعبادة تنهار، والشر يدخل كل يوم من حيث خرج الخير.. وأصبح الخلق غير الخلق.. والناس غير الناس. وظهرت على الأرض سلسلتان من البشر تسيران فى خطين متوازيين إحداهما لا تزال متصلة بالآلهة.. أما الأخرى فقد قطعت كل صلاتها بهم، ولم يعد أمام أصحابها من هدف سوى الوصول إلى اللذة من أى طريق.

وامتلأت الأرض بالشر..

وأطل الآلهة من عليائهم وملأهم الحزن..

إن الإنسان لم يعد هو الإنسان الذى خلقه مردوك.. وجعله صورة منه كريمة بريئة طاهرة.. وغضبت الآلهة على مخلوقات الأرض.. وكان أكثر الكل غضبًا الإله مردوك، الذى قرر أن يرسل طوفانًا عارمًا ليهلك البشر ويمحو به آثار أعمالهم العامرة بكل ما هو سيئ وخبيث!

غير أن آى.. إله الحكمة، أخذته الشفقة على البشر، واعتزم أن ينجى منهم على الأقل رجلاً وامرأة.. يحفظان سر الخلق.

وكان «شمس نيشتين» وزوجته هما اللذين وقع عليهما اختيار الإله..

وفى ذلك اليوم.. وبينما كان شمس نائمًا، جاء صوت الإله فى الحلم يقول:

- انهض يابن «أوبارا توتو».. يامن أطعت الآلهة، وحفظت لهم العهد الذى وضعوه فيك.. انهض فاهدم بيتك، واصنع من الخشب فُلكًا ضع فيه كل ما تحتاجه لحياتك..

وخذ معك حبة حية من كل شىء.. نحميها كما نحميك من الطوفان الذى سيحل على الأرض التى امتلأت بالشر والفساد والطغيان..!

وصدع «شمس نيشتين» بأوامر الإله.

ومع مطلع النهار نهض من نومه ليهدم بيته ويبنى من الخشب فُلكًا ضخمًا.

واستخدم «شمس» عددًا من العمال، أخذوا يعاونونه ويشقون له الألواح، حتى إذا ما انتهت أيام سبعة، كان الفلك قد نهض قائمًا على الأرض كأحسن ما يكون الفلك، وقد ضم بين جنباته كميات كبيرة من الخمر والزيت، وأكوامًا من حبوب حية من كل ما ظهر على الأرض، وزوجين من كل حيوان أو طير جرت فى عروقه الحياة.

وأطل «شمس» إلى فلكه وامتلأ رضاء.. لقد كان طوله يصل إلى ١٢٠ ذراعًا وارتفاعه ١٢٠ أخرى، وكان مقسمًا إلى ستة طوابق كل طابق مقسم إلى تسع غرف.. أما سطحه الخارجى فمدهون بالقطران، وسطحه الداخلى بالقار.

وعرف «شمس» من إلهه أن عليه الدخول فى فلكه وإغلاقه، متى ظهرت الإشارة المتفق عليها.. وهى مطر غزير يسقط من السماء..

ومرت أيام.. وسقط المطر مدرارًا..

لقد أتت الساعة...!

وانطلق «شمس نيشتين» إلى الفلك ومعه زوجته وأبناؤه.. ومن خلفه أغلقت الأبواب..

ومرت بالأفق سحابة سوداء غطت كل الأرض.. يسوقها الإله «رامان» مطلق الرعود، وتمسك بسكانها الإله «أوجال».. ومن خلفها الإلهان «نايو» و «مردوك» يفتحان للمطر كل طاقات السماء..!

وأطبقت العاصفة والظلام على الأرض. وراح الناس يتساقطون غرقى وصرعى.. حتى الذين ركضوا يطلبون النجاة فى الأقباء والغرف ذات السقوف، ما استطاعوا أن يجدوا تحتها منفذًا من الطوفان.. ولا الذين لجئوا إلى قمم الجبال، فقد طغت المياه وارتفعت حتى اختفت كل الجبال التى تحت السماء..!

واستمر الطوفان ستة أيام.. كان فيها الكفاية لتطهير الأرض من كل من فى أنفه نسمة حياة.. من إنس وطير وبهائم ووحش.. ولم يعد هناك سوى «شمس».. وكل من حل معه فى الفلك الأمين..

وجاء اليوم السابع.. فهدأت الأمطار، وانسدت ينابيع السماء.. وبدأت المياه تتجاب عن الأرض.. وأطل «شمس نيشتين» من طاقة فى الفلك ثم صرخ عاليًا.. لقد كان الناس جميعًا غرقى فى الطين، حيث كانت تمتد الحقول، وظهرت هناك مستنقعات وبرك.. لم يكن هناك شىء حى.. وكل العالم لم يعد يظهر منه سوى بحر هائل عملاق.

وظل «شمس» يبكى، والفلك يسير على سطح الماء فى اتجاه التيار، ينخفض ويرتفع والمياه تتناقص من حوله شيئًا فشيئًا.. حتى إذا ما مضى اثنا عشر يومًا ظهرت الأرض من بُعد..

وكانت الأرض التى ظهرت، هى قمة جبل تازير..

وأرسل «شمس» غرابًا يستطلع حال الأرض، ولكن الغراب رغم أنه لم يجد مكانًا يحط عليه، إلا أنه انشغل فى نهش الجثث الكثيرة المستلقية، ولم يفكر فى العودة إلى الفلك..

وانقضت أيام سبعة أخرى..

وأرسل «شمس» عصفورًا.. ولكن العصفور ظل يطير من مكان إلى مكان فلا يبصر شجرًا أو أرضًا جافة، ولم يجد مستقرًا لساقيه فاضطر آخر اليوم للعودة إلى الفلك..

وانقضت أيام سبعة ثالثة..

وأرسل «شمس» يمامة.. ظلت تطير وتطير باحثة عن مقر تحط عليه فلا تبصر أرضًا جافة.. ما تكاد تفكر فى العودة حتى تبصر أشجارًا خضراء، فتحط عليها ثم تحمل فى منقارها ورقة من غصن الزيتون تعود بها إلى الفلك..!

وابتهج «شمس».. وعرف أنه الفرج..

وفتح أبواب الفلك، فخرج ومعه حاجاته وعائلته، وكل الأزواج الحية من حيوان وطيور.

وفى اللحظة التى لمست أقدامهم فيها الأرض، انكفأ «شمس» على وجهه وخر ساجدًا ثم بنى مذبحًا وقدم عليه قرابين الشكر.. من أعواد القصب والبخور..

وانطلق دخان البخور العطر فارتفع حيث يجلس الآلهة..

وشمت الآلهة الرائحة الزكية فتعجبت.. ثم راحت تتجمع كالذباب حول القربان.

وبين الجميع .. كانت هناك «أشتار» ـ ربة الحب والربيع ـ التى رفعت قلادتها الإلهية تحيى بها صاحب القربان. ثم قالت:

ـ باسم جواهرى الإلهية التى تحيط بعنقى، لن أنسى هذا اليوم أبدًا ـ سأضعه دائمًا فى ذاكرتى، وسأذكر به كل الآلهة الذين يحيطون الآن بالقربان، حتى «مردوك» الذى لا يريد أن يقترب من قربان الإنسان.. ورفض من قبل أن يجمع الآلهة ليستشيرهم، وأرسل الطوفان يقضى به على عبيدى المخلصين ويسلمهم للهلاك والدمار..

والحق أن «مردوك» لم يكن بعيدًا عن القربان. فقد كان يقترب منه هو الآخر، ويعجب لهذا المخلوق الفانى كيف نجا من الطوفان.. ويقسم أن لابد من قتل «شمس»..

ووقف الإله «آى».. الذى كان قد أوحى إلى «شمس» ببناء الفلك فأنقذه.. وقف يدافع عن المخلوق الفانى الذى أخلص للآلهة ولم يحقد عليها، بل كان أول ما فعله حين وضع قدميه على الأرض أن قدم لها القرابين. وانتقد «آى» «مردوك» الذى لم يستشر الآلهة عندما اتخذ قراره المدمر لمخلوقات الأرض.

واستسلم «مردوك» آخر الأمر. واقترب من القربان.. ثم أخذ بيد «شمس» وزوجته وباركها.. وسوى لهما مستقرًا جديدًا عند مداخل أنهار الأرض..

وعادت الآلهة إلى السماوات.. ولكنها لم تنس قبل عودتها أن تكافئ «شمس» الذى قدم لها القربان.. وحفظ لها الجنس البشرى..

ومنح «شمس» سر الخلود.. ورفع إلى مرتبة الآلهة.. وأصبح عليه أن يقيم فى مستقره عند مدخل الأرض حتى الأبد.. لا يغادره إلا فى رحلة يومية طويلة يرافق فيها موكب «مردوك»، ليشرف على أبنائه البشر الذين ينطلقون فى الأرض ليعيدوا إليها المجد والحياة.. ثم يعود آخر اليوم إلى مستقره، ليستأنف مع الصبح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق إلى الغرب..

وانطلقت البشرية تحيا من جديد..

نص الملحمة

اللوحة الأولى:

فى الأعالى حين لم يكن للسماء اسم

ولم يكن للأرض الثابتة الوطيدة من تحتها اسم

ولم يكن هناك سوى ذارئها الأزلى «أبسو»

و «موممو » - «تيامات» تلك التى حملت بهما معًا.

وامتزجت أمواههما كجسد واحد.

لم يكن هناك كوخ من الحصير، ولم تبدأ أرض مستنقع.

حين لم يكن هناك إله جاء إلى الوجود

لم يكن قد أطلق اسم ولم تكن أقدارهم قد حددت.

حينذاك شكل الآلهة فيها (أى فى أمواه «أبسو» العذبة «وتيامات» الملحة)

انبثق «لخمو» و «لاخامو»

وأطلق عليهما الاسمان

وظلا دهورًا ينموان...... سنًا وقامة

وتشكل «أنشار» و «كبشار» وفاقا الآخرين

مدا فى الأيام وأضافا إلى الأعوام

كان «أنو» ابنًا لهما وغدا منافسًا لآبائه

أجل... إن «أنو» بكر «أنشار» كان ندًا له

وخلق «أنو» كصورته «نوديمود»[1]

وكان «نوديمود» هذا سيدًا لآبائه

كان واسع الحكمة والفهم وشديد البطش والقوة

أقوى بكثير من جده «أنشار»

لم يكن له ند بين الآلهة إخوته [٢]

وارتبط الإخوة الإلهيون ببعضهم البعض

وأزعجوا «تيامات» فى غدوهم ورواحهم

أجل... إنهم أرهقوا بطن «تيامات»

بتهريجهم فى مسكن السماء

ولم يستطع «أبسو» أن يخفف من صحبتهم.

ولم تحر «تيامات» نطقًا أمام تصرفاتهم

كانت أفعالهم ممجوجة

وكانت وسائلهم غير مستساغة... لم يعد فى الطاقة احتمالهم

وعندئذ صرخ «أبسو» ذارئ الآلهة الكبار

إلى وزيره «موممو» قائلاً:

أى «موممو» وزيرى، يا من تسعد روحى (كبدى)،

أقبل ولنتجه إلى «تيامات»

فذهبا وجلسا أمام «تيامات»

متبادلين الرأى فيما يتصل بالآلهة.. من مواليدهم

وفتح «أبسو» فاه

وقال لـ: «تيامات البهية»:

(حقًا، إن طرقهم ممجوجة...

إننى لا أجد متنفسًا فى النهار أو راحة بالليل

إننى سأمضى وسأدمر وسائلهم.

حتى يعود الهدوء... لنجد راحة ...)

وحالما سمعت «تيامات» ذلك

احتدمت غيظًا وصرخت فى زوجها

وصاحت محزونة واجتاحها الغضب

وهو ينشب الحزن فى أمعائها:

(ماذا؟ أيجب أن ندمر ما بنيناه؟

حقًا، إن طرقهم متعبة للغاية ولكن لتعالج الأمر فى رفق)

وعندئذ أجاب «مومو» مقدمًا النصح إلى «أبسو»

ـ وكانت نصيحة «مومو» سيئة النية وغير حميدة:

(أى أبى،... دمر الوسائل الثورية وعندئذ

ستجد الراحة نهارًا وليلاً)

فلما سمع «أبسو» هدأ وأشع وجهه

من أجل الشر الذى نواه ضد الآلهة... أبنائه

وأما بالنسبة لـ «مومو» فإنه عانقه من رقبته

حين جلس هذا على ركبته ليقبله

وأما ما تآمرا عليه فيما بينهما

فقد أعيد قوله للآلهة.. أول مواليدهم

فلما سمع الآلهة هذا ... هبوا

ثم ظلوا فى صمت دون أن يحيروا نطقًا

كان «أيا» البالغ الحكمة أشدهم تعقلاً واتزانًا ومواهب

وأدرك خطتهما «خطة أبسو ومومو»

ودبر خطة مضادة.

فصاغ رقيته ضدها، وكانت رقية تفوق مكرهم وتبزها قداسة

وتلاها ثم أقرها فى الأعماق

وهو يصبُّ النعاس فيه... لقد غرق فى النوم

ولما صار «أبسو» منكبًا لاستغراقة فى النوم

وغدا «موممو».. الناصح.. أعجز من أن يتحرك

فك عصابته وانتزع شعاره

ورفع هالته ولبسها جميعًا

ثم ذبح «أبسو» بعد أن قيده

وأما «موممو» فقيده ووضعه فى مكان مغلق

وهكذا بعد أن أحل مسكنه فوق «أبسو»

قبض على «موممو» ممسكًا بخزامة أنفه

وبعد أن انتصر على أعدائه ووطئهم

وأمن بعد النصر على أعدائه

جلس «أيا» فى قاعته المقدسة فى سكينة تامة

وسماها «أبسو»...

وفى المكان نفسه أسس كوخ عبادته

هناك.. عاش «أيا» مع زوجته «دامكينا» فى بهاء

فى قاعة الأقدار... فى مسكن المصائر

هناك شكل إله... هو أكثر الآلهة قدرة وحكمة.

خلق «مردوك» فى قلب «أبسو»[٢] المقدس

.... إن ذارئه هو أبوه «أيا»

ومن حملت به، هى أمه «دامكينا»

ورضع من ثدى الإلهات

وملأته حاضنته التى تولت رعايته بالشجاعة التى لا تعرف الخوف

كان وجهه جذابًا، كانت عيناه حين يرفعهما تتلألآن.

كانت فى مظهره السيادة وكانت له القيادة منذ القدم

وحين رآه «ايا» أبوه الذى ذرأه

ملأه السرور والفرح وانتشى قلبه بالسعادة

فجعله كاملاً... ومنحه رأس إله مزدوجًا

كان أكثر تبجيلاً منهم جميعًا متعاليًا فوقهم جميعًا

كاملاً فى أعضائه أكثر مما يمكن أن يتصور

مزودًا بالفهم..... يصعب إدراكه

كانت له أربع عيون وأربع آذان

وحين كان يحرك شفتيه كانت النار تخرج من بينهما

وكانت أدوات سمعه الأربعة ضخمة

وعيونه بالعدد نفسه كانت تلحظ كل شىء

كان أعلى الآلهة، تفوق قامته قامتهم

كانت أعضاؤه ضخمة وكان بالغ الطول

«ابنى الصغير... ابنى الصغير

ابنى ... الشمس... شمس السماوات»

وكان يرتدى هالة عشرة آلهة... بالغ القوة

وسكبت مهابتهم عليه إشعاعات

وبعث «أنو» بالرياح الأربع

لتوقف البجمة(٤) الذى يقود الأعداء

(....) لإزعاج «تيامات»

وانزعجت «تيامات» ولم تهدأ ليلاً ونهارًا

وأسهم الآلهة رياء فى العاصفة

وكانت جوانحهم تنطوى على شر

وقال هؤلاء الإخوة لـ «تيامات»:

«حين قتلوا زوجك أبسو،

لم تعاونيه بل إنك لم تحركى ساكنًا

رغم أنه صاغ المنشار الذى يبعث على الرعب (٥)

إن جوانحك رقيقة..... ومن ثم فلن نحس راحة

ليظل زوجك «أبسو» ماثلاً فى ذهنك

و«موممو»... الذى غلب على أمره. لقد خلقت وحيدة

(...) أنت تتحركين فى سرعة

(...) بغير توقف.. أنت لا تكنين لنا حبًا

(...) عيوننا يحجبها الغمام

(...) بغير توقف، لنستريح

(...) إلى المعركة ... لتنتقمى منهم.

(...) ولتحويلهم إلى ريح».

وطربت «تيامات» حين سمعت هذه الكلمات

(...) التى قدمتموها لنصنع أشباحًا مخيفة

(...) والآلهة فى الوسط

(...) معارك ضد الآلهة (...)

فقاموا وساروا إلى جانب «تيامات»

واجتاحهم الغضب وظلوا يتآمرون ليلاً ونهارًا

وتجهزوا للقتال وهم يزمجرون غضبًا

وعقدوا مجلسًا ليتجهزوا للحرب

وأما الأم «هوبور» تلك التى تصوغ كل شىء

فصنعت أسلحة لا نظير لها، وحملت ثعابين متوحشة

حادة الأنياب كثيرة المخالب

وملأت جسومها بالسم الذى يسرى مسرى الدم

وكست تنانين مزمجرة بالرعب

وكللتها بهالات وجعلتها كالآلهة

حتى يهلك فى حقارة من يشهدها

وربتها بحيث لا يستطيع أحد ردها أو كبحها

وأطلقت الأفعى السامة والتنين

والـ «سفنكس»

والأسد الكبير والكلب المسعور والرجل العقرب

ومردة السباع القوية والتنين الطائر والقنطروس

يحملون أسلحة لا تنفد ويدخلون المعارك بغير خوف

وكانت أوامرها حازمة آمرة بالمقاومة التى لا تردد فيها

كانوا أحد عشر من هذا النوع أولئك الذين جاءت بهم

ومن بين الآلهة.. أبكارها الذين شكلوا مجمعها

رفعت «كنجو» وجعلته رئيسًا عليهم

أعلاهم مرتبة... قائدًا للجميع

وعهدت له برفع السلاح عند اللقاء والتقدم فى المعركة وقيادتها.

وعهدت إليه حين أجلسته فى المجمع قائلة:

«لقد ألقيت لك الرقية مسعدة إياك فى مجمع الآلهة

لقد منحتك السلطة المطلقة لمشورة الآلهة جميعًا

حقًا أنت السيد.. زوجى الوحيد أنت!

ما تردده سيكون له السلطان على كل الـ «أنوناكى»

..... ثم سلمته لوحات القدر وربطتها على صدره قائلة:

«وأما بالنسبة لك. فإن قيادتك لن تغير

وكلمتك لا تزول»

وحالما رفع (كنجو) وأخذ وظيفة (أنو)

حددا (أى تيامات وكنجو) للآلهة القدر التالى:

كلمتكم ستجعل النار تخبو

سنذل من (سلاح القوة) إنها فعالة فى اكتساحها.

اللوحة الثانية:

ولما أعلنت «تيامات» فحوى ما صاغته يداها

تجهزت للحرب ضد الآلهة .... ذريتها

لتنتقم لـ (أبسو) . وحاكت (تيامات) الشر

ونما إلى (أيا) أنها تتمنطق للحرب

فحالما سمع (أيا) ذلك

استغرق فى صمت عميق وجلس ساكنًا

وبعد إمعان فكر انفثأ غضبه

ثم انطلق إلى جده (أنشار)

ولما وصل إلى جده (أنشار)

كرر له ما أمرت به (تيامات)

«أبى إن تيامات التى ولدتنا تكرهنا،

إنها استدعت المجمع وهى تشتعل غضبًا

إن الآلهة جميعًا أسرعوا إليها

حتى أولئك الذين أنجبتموهم انضموا إليها

إنهم يجتمعون ويسيرون إلى جانب (تيامات)

إنهم فى غضبهم يتآمرون بغير توقف ليل نهار

إنهم يستعدون للعراك مزمجرين غاضبين

إنهم كونوا مجلسًا ليستعدوا للحرب

إن الأم (هوبور) تصوغ الأشياء جميعًا

زودتهم بأسلحة لا كفاء لها... إنها ولدت أفاعى متوحشة

حادة الأنياب كثيرة المخالب

وملأت جسومها بسم يسرى مسرى الدم

وكست تنانين مزمجرة بالرعب

وكللتها بهالات وجعلتها كالآلهة

حتى يهلك فى حقارة من يشهدها

وربتها بحيث لا يستطيع أحد ردها أو كبحها

وأطلقت الأفاعى السامة والتنين والسفنكس

والأسد الكبير والكلب المسعور والرجل العقرب

ومردة السباع القوية والتنين الطائر والقنطروس

يحملون أسلحة لا تنفد ويدخلون المعارك بغير خوف

وكانت أوامرها حازمة آمرة إياهم بالمقاومة التى لا تردد فيها

كانوا أحد عشر أولئك الذين جاءت بهم من هذا النوع

ومن بين الآلهة... أبكارها الذين شكلوا مجمعها

رفعت (كنجو) وجعلته رئيسًا عليهم

أعلاهم مرتبة.. قائدًا للجميع

وعهدت إليه برفع السلاح عند اللقاء والتقدم فى المعركة وقيادتها

وقالت له حين أجلسته فى المجمع:

«لقد ألقيت بالرقبة مسعدة إياك فى مجمع الآلهة

لقد منحتك السلطة المطلقة لمشورة الآلهة جميعًا

حقًا أنت السيد... زوجى الوحيد أنت

ما تردد سيكون له السلطان على كل الـ (أنوناكى)».

ثم سلمته لوحات القدر وربطتها على صدره قائلة:

«وأما بالنسبة لك فإن قيادتك لن تغير وكلمتك لا تزول».

وحالما رفع (كنجو) وأخذ وظيفة (أنو)

حددا للآلهة القدر الآتى:

«كلمتكم ستجعل النار تخبو

وستذل من (سلاح القوة) إنها فعالة فى اكتساحها»

وحين سمع (أنشار) أن تيامات بالغة الضيق

ضرب على حقويه وعض شفتيه

وأظلم قلبه واضطرب فكره

وغطى فمه ليكتم صرخته

(...) العراك

«السلاح الذى صنعته، قم، احمله

إنك ذبحت (موممو) و (أبسو)

والآن... اذبح (كنجو) الذى يسير أمامها

(...) الحكمة»

أجاب مستشار الآلهة (نوديمود ...) [٦]

وقال لابنه (أنو):

(...) «هذا، أقوى الأبطال

ذو القوة التى لا تنكر الذى يستطيع مقاومة الغارة

اذهب لنصرة (تيامات)

حتى تهدأ وحتى يطمئن قلبها

فاذكر لها كلمتنا حتى تهدأ».

فلما سمع أمر أبيه (أنشار)

انطلق متخذًا طريقة إليها

فلما اقترب (أنو) ليشهد خطة (تيامات)

لم يستطع أن يجابهها فكرَّ راجعًا

وعاد فى حقارة إلى أبيه (أنشار)

وكأنما هو (تيامات)، وجه إليه الحديث هكذا:

«إن يدى لا تكفينى لإخضاعك»

ولم يحر (أنشار) نطقًا وأطرق

ثم عبس وهز رأسه نحو (أيا)

وتجمع كل الـ (أنوناكى) فى ذلك المكان

وأغلقت شفاههم تمامًا وجلسوا فى سكون

وفكروا فى أنفسهم قائلين: «ليس من إله يستطيع أن يذهب إلى الحرب

ويواجه (تيامات) وينجو بحياته»

وقام الرب (أنشار) أبو الآلهة فى عظمة

وبعد أن تفكر فى قلبه قال لـ (الأنوناكى):

«إن من كانت قوته فعالة سيكون المنتقم لنا ...

ذلك البارع فى القتال .. (مردوك) البطل».

واستدعى (أيا) (مردوك) من مكان عزلته

وبعد إسداء النصح والمشورة أخبره بما فى قلبه:

«أى (مردوك) ! تدبر نصحى ! أصغ إلى أبيك

لأنك أنت الذى يريح قلبى حين تلقى (أنشار) اقترب كأنك على أهبة معركة

قف حين تتكلم فحين يراك كذلك سيرتاح باله»

وفرح السيد بكلام أبيه

واقترب وواجه (أنشار)

ولما رآه (أنشار) امتلأ قلبه فرحًا

فقبل شفتيه فانجابت كآبته

«(أنشار)! لاتبك! افتح شفتيك واسعتين

إننى سأذهب وألبى رغبة قلبك!

من هو الذكر الذى أشهر الحرب ضدك؟

إنها ليست سوى (تيامات) ... أنثى !! امرأة!!

تلك التى تقاومك بأسلحتها.

أيها الأب الخالق افرح وتهلل

إنك ستطأ عن قريب عنق (تيامات)»

«أى بنى! يا من يعرف الحكمة كلها،

هدئ (تيامات) برقاك المقدسة

تقدم على عربة العاصفة بكل سرعة!

فإنهم لن يطردوك من حضرتها .. ردهم!»

وفرح السيد وتهلل لكلمات أبيه

وسعد قلبه وقال لأبيه:

«يا خالق الآلهة وقدر الآلهة الكبار،

إذا كان لى ـ كمنتقم لك ـ

أن أغلب (تيامات) وأنقذ أرواحكم

فلتجمع المجمع وتعلن قدرى ساميًا

حين تجلس معهم فرحًا فى (أوبشوكينا)

ليكن لكلمتى ـ بدلاً منك ـ حق تحديد المصائر

ألا لا ينال التغير ما أسمح بوجوده

ولا يبدل أو يحور أو يغير ما تنطق به شفتاى!».

اللوحة الثالثة:

وفتح (أنشار) شفتيه،

ووجه كلمة إلى وزيره .. إلى (جاجا) قائلاً:

«أى (جاجا)! وزيرى ! يامن يدخل الفرح إلى روحى،

إنى سأرسلك إلى (لاخمو) و (لاخامو)

لديك الفطنة، وبراعة فنية فى المنتقى من الأحاديث

إن آباءك الآلهة خلقوك أمامى

دع الآلهة جميعًا يأتون إلىّ

ليتجاذبوا أطراف الحديث معًا ليجلسوا إلى وليمة

وليأكلوا خبز الأعياد وليشربوا الخمر

ومن أجل (مردوك) المنتقم لهم ... ليصدروا قراراتهم

خذ طريقك أى (جاجا) وقف أمامهم

وما أقوله لك ستكرره لهم:

«أنشار ابنكم أرسلنى إليكم

مكلفًا إياى أن أكون صوتًا لما يعتلج فى قلبه

قائلاً: (تيامات) التى حملت بنا .. تكرهنا

إنها استدعت المجمع، وهو يستشيط غضبًا

لقد أسرع إليها الآلهة جميعًا

حتى أولئك الذين أنجبتموهم انضموا إليها

إنهم يتجمعون ويسيرون إلى جانب (تيامات)

إنهم يتآمرون غاضبين بغير انقطاع ليل نهار

إنهم استعدوا للعراك مزمجرين غاضبين

إنهم كوّنوا مجلسًا ليستعدوا للحرب

إن الأم (خوبور) التى تصوغ الأشياء جميعًا

زودتهم بأسلحة لا كفاء لها ... وإنها ولدت أفاعى متوحشة

حادة الأنياب كثيرة المخالب

وملأت جسومها بسم يسرى مسرى الدم

وكست تنانين مزمجرة بالرعب

وكللتها بهالات وجعلتها كالآلهة

حتى يهلك بحقارة من يشهدها

وربتها بحيث لا يستطيع أحد ردها أو كبحها

وأطلقت الأفعى السامة والتنين والسفنكس

والأسد الكبير والكلب المسعور والرجل العقرب

ومردة السباع القوية والتنين الطائر والقنطروس

يحملون أسلحة لا تنفد ويدخلون المعارك بغير خوف

وكانت أوامرها حازمة آمرة إياهم بالمقاومة التى لا تردد فيها

وكانوا أحد عشر أولئك الذين جاءت بهم من هذا النوع

ومن بين الآلهة... أبكارها الذين شكلوا مجمعها

رفعت (كنجو) وجعلته رئيسًا عليهم

أعلاهم مرتبة... قائدًا للمجمع

وعهدت إليه برفع السلاح عند اللقاء والتقدم فى المعركة وقيادتها

وقالت له حين أجلسته فى المجمع:

«لقد ألقيت لك بالرقية مسعدة إياك فى مجمع الآلهة

لقد منحتك السلطة المطلقة لمشورة الآلهة جميعًا

حقًا إنك السيد ... وزوجى الوحيد أنت

إن ما تردده سيكون له السلطان على كل الـ (أنوناكى)

ثم أسلمته لوحات القدر وربطتها على صدره قائلة:

«وأما بالنسبة لك فإن قيادتك لن تغير وكلمتك لا تزول»

وحالما رفع (كنجو) وأخذ وظيفة (أنو)

حددا للآلهة القدر الآتى:

«كلمتكم ستجعل النار تخبو

وستذل من (سلاح القوة) إنها فعالة فى اكتساحها»

لقد أرسلت (أنو) ولكنه لم يستطع أن يواجهها

خاف (نوديمود) وكر راجعًا

وتقدم (مردوك) أكثر الآلهة تعقلاً، ابنكم

دفعه قلبه إلى الخروج لمواجهة (تيامات)

إنه فتح فاه قائلاً:

«إذا كان لى حقًا ـ كمنتقم لكم ـ

أن أغلب (تيامات) وأنقذ أرواحكم

فلتجمع المجمع وتعلن قدرى ساميًا

حين تجلس معهم فرحًا فى (أوبشوكينا)

ليكن لكلمتى ـ بدلاً منك ـ حق تحديد المصائر

ألا لا ينال التغيير ما أسمح بوجوده

ولا يبدل أو يحور أو يغير ما تنطق به شفتاى»

أسرعوا إذن إلىّ وأصدروا له فورًا مراسيمكم

حتى ينطلق ليواجه عدوكم القوى»

وارتحل (جاجا) متقدمًا فى طريقة

وقدم الولاء أمام (لاخمو) و (لاخامو)، الآلهة آبائه

مقبلاً الأرض عند إقدامها

وانحنى انحناءه كبيرة، أخذ مكانه

ليوجه الحديث لهما:

«إن ابنكما (أنشار) هو الذى أرسلنى هنا إليكم

مكلفًا إياى أن أكون صوتًا لما يعتلج فى قلبه

قائلاً: « (تيامات) التى حملت بنا ... تكرهنا

إنها استدعت المجمع وهى تستشيط غضبًا

لقد سارع إليها الآلهة جميعًا

حتى أولئك الذين أنجبتموهم انضموا إليها

إنهم يجتمعون ويسيرون إلى جانب (تيامات)

إنهم استعدوا للعراك مزمجرين غاضبين

إنهم كونوا مجلسًا ليستعدوا للحرب

إن الأم (هوبور) التى تصوغ الأشياء جميعًا

زودتهم بأسلحة لا كفاء لها... إنها ولدت أفاعى متوحشة

حادة الأنياب كثيرة المخالب

وملأت جسومها بسم يسرى مسرى الدم

وكست تنانين مزمجرة بالرعب

وكللتها بهالات وجعلتها كالآلهة

حتى يهلك بحقارة من يشهدها

وربتها بحيث لا يستطيع أحد ردها أو كبحها

وأطلقت الأفعى السامة والتنين والسفنكس

والأسد الكبير والكلب المسعور والرجل العقرب

ومردة السباع القوية والتنين الطائر والقنطروس

يحملون أسلحة لا تنفد ويدخلون المعارك بغير خوف

وكانت أوامرها حازمة آمرة إياهم بالمقاومة التى لا تردد فيها

كانوا أحد عشر أولئك الذين جاءت بهم من هذا النوع

ومن بين الآلهة ... أبكارها الذين شكلوا مجمعها

رفعت (كنجو) وجعلته رئيسًا عليهم

أعلاهم مرتبة قائدًا للمجمع

وعهدت إليه رفع السلاح عند اللقاء والتقدم فى المعركة وقيادتها

وقالت له حين أجلسته فى المجمع:

«لقد ألقيت لك بالرقية مسعدة إياك فى مجمع الآلهة

لقد منحتك السلطة المطلقة لمشورة الآلهة جميعًا

حقًا إنك السيد... زوجى الوحيد أنت

إن ما تردده سيكون له السلطان على كل الـ (أنوناكى)»

ثم أسلمته لوحات القدر وربطتها على صدره قائلة:

«وأما بالنسبة لك، فإن قيادتك لن تغير وكلمتك لا تزول»

وحالما رفع (كنجو) وأخذ وظيفة (أنو)

حددا للآلهة القدر الآتى:

«كلمتكم ستجعل النار تخبو

وستذل من (سلاح القوة) إنها فعالة فى اكتساحها»

لقد أرسلت (أونو) ولكنه لم يستطع أن يواجهها

خاف (نوديمود) وكر راجعًا

وتقدم (مردوك) أكثر الآلهة تعقلاً، ابنكم

دفعه قلبه إلى الخروج لمواجهة (تيامات)

إنه فتح فاه إلى قائلاً:

«إذا كان لى حقًا ـ كمنتقم لكم ـ

أن أغلب (تيامات) وأنقذ أرواحكم

فلتجمع المجمع وتعلن قدرى ساميًا

حين تجلس معهم فرحًا فى (أوبشوكينا)

ليكن لكلمتى بدلاً منك حق تحديد المصائر

ألا لا ينال التغيير ما أسمح بوجوده.

ولا يبدل أو يحور أو يغير ما تنطق به شفتاى»

أسرعوا إذن إلىّ وأصدروا له فورًا مراسيمكم

حتى ينطلق ليواجه عدوكم القوى».

فلما سمع (لاخمو) و (لاخامو) ذلك صرخا عاليًا

وكل الـ (أيجيجى) [٧] انتحبوا فى بؤس قائلين:

«كم هو عجيب أنهم انتهوا إلى هذا القرار!

إننا لا نستطيع أن نسبر غور فعال (تيامات)»

واستعدوا لبدء رحلتهم

كل كبار الآلهة الذين يقررون المصائر

ودخلوا أمام (أنشار) وملئوا الـ (أوبشوكينا)

وقبلوا بعضهم فى المجمع

وتجاذبوا أطراف الحديث حين جلسوا إلى الوليمة

وأكلوا خبز العيد وشربوا النبيذ

وبللوا أنابيب الشراب بمخدر حلو

ولما تناولوا الشراب القوى انفتحت جسومهم

وفترت همتهم كثيرًا بينما ارتفعت أرواحهم

ثم أصدروا المراسيم لـ (مردوك) الذى سينتقم لهم.

اللوحة الرابعة:

أقاموا له عرشًا يليق بأمير

وجلس يترأس وهو يواجه آباءه

«أنت الأكثر تمجيدًا بين كبار الآلهة

إن ما تقرره لا يعارض ... إن أمرك أمر (أنو)».

أى (مردوك)، أنت الأكثر تمجيدًا بين كبار الآلهة

إن ما تقرره لا يُعارض .. إن أمرك أمر (أنو)

«منذ اليوم لا يكون ما تنطق به عرضة للتغيير

الرفع والخفض فى يديك

نطقك يغدو حقيقة وأمرك لا يحتمل شكًا

ليس من إله يعتدى على اختصاصاتك

لما كان التزين مطلوبًا لمقاعد الآلهة

فلتكن هياكلهم دائمًا حيث أنت

أى (مردوك)، أنت حقًا المنتقم لنا

لقد منحناك الملك على العالم بأجمعه

حين نجلس فى المجتمع فكلمتك هى العليا

أسلحتك لن تخيب، إنها ستحطم أعداءك

أيها السيد، احفظ حياة من يؤمن بك

وانزع حياة الإله الذى يضمر السوء»

ولما وضعوا فى وسطهم قطعة من القماش

وجهوا الحديث إلى (مردوك) بكرهم قائلين:

«حقًا إن قرارك هو الأول بين الآلهة

مُرْ بالغرق أو الخلق يكن ما تأمر به

افتح فمك تتلاش قطعة القماش

تكلم ثانية فتعود القطعة كما كانت».

واختفت قطعة القماش حين قال كلمته

ثم تكلم ثانية فعادت سليمة

ولما رأى الآلهة آباؤه ثمرة كلمته

قدموا الخضوع له فى فرح قائلين: «مردوك ملك»!

وأعطوه الصولج والعرش والـ (بالو)

وأسلحة لا تبارى لتطرد العدو.

«اذهب وخذ حياة (تيامات)

ألا فلتحمل الرياح دمها إلى أماكن غير مكشوفة».

ولما حدد قدر (بعل) على هذه الصورة

جعله الآلهة آباؤه يشق طريق النجاح والهدف

فصنع قوسًا وجعل منه سلاحًا له

وأردف به سهمًا وثبت حبل القوس

ورفع الصولج وقبض عليه بيمناه

وعلق القوس والجعبة فى جانبه

وأطلق البرق أمامه

وملأ جسمه بلهب ملتمع

ثم صنع شبكة ليصيد فيها (تيامات)

وتحكم فى الرياح الأربع بحيث لا يفلت شىء من بأسها

ريح الجنوب، وريح الشمال، وريح الشرق، وريح الغرب

وأمسك بالشبكة قريبة من جانبه، الشبكة التى منحه إياها

أبوه (أنو)

ثم استقدم (ايمهوللو) (ريح الشر) الريح

المدوية والعاصفة

الريح الرباعية والسباعية القُوَى والإعصار والريح التى لا تُبارى

ثم وجه الرياح التى استقدمها ... سبعٌ فى عدتها

لتثير باطن (تيامات) فثاروا من خلفه

ثم رفع الإله عاصفة الفيضان، سلاحه القوى،

وامتطى عجلة الزوبعة المخيفة التى لا تقاوم

وشد عليها أربعة:

القاتل، والذى لا يلين، والساحق، والسريع،

كانت أنيابهم حادة وفيها السم

وأطلقوا التدمير، ومهروا فى التخريب

(....) ضربوا، كانوا لا يعرفون الخوف فى المعركة

إنهم لا يفتحون إلى اليسار أو إلى اليمين (....)

تدثر بدرع الرعب بدلاً من معطف

ولباس رأسه الذى تدور حوله هالة لا تعرف الخوف

انطلق الإله واتخذ طريقه

وإلى (تيامات) الثائرة وجه وجهه

وشفتاه منطبقتان على (...) من عجينة حمراء اللون

وأمسك بيمناه نباتًا يذود عنه السم

ثم ضربوا من حوله، ضرب الآلهة من حوله

الآلهة آباؤه، ضربوا من حوله، الآلهة ضربوا من حوله

واقترب الرب ليفحص فى داخل (تيامات)

وزوجها (كنجو)، عن الخطة ليعرفها

وبينما هو ينظر اضطرب مسراه

ووهنت عزيمته وارتبكت فعاله

ولما رأى الآلهة، معاونوه، الذين يسيرون إلى جانب

البطل الشجاع، طمست رؤاهم

أطلقت (تيامات) صرخة دون أن تدير عنقها

وتحد وحشى يرتسم على شفتيها

«أنت أخطر جدًا ـ كسيد للآلهة ـ من أن تقاوم،

هل تجمعوا فى مكانهم أم فى مكانك؟»

وعندئذ، بعد أن رفع الرب زوبعة الفيضان، سلاحه القوى

نحو (تيامات) الغضوب وجه كلماته التالية:

«لقد حفزت قلبك ليثير الصدام

وأنت ... أنت التى حملت بهم

تكرهين (......)

لقد عظمن من شأن (كنجو) حتى أصبح زوجًا لك

وأبدلت بحكم (أنو) حكمًا له ليس من حقه

إنك تسعين وراء الشر ضد (أنشار) ملك الآلهة

وأما ضد الآلهة آبائى، فقد أكدت سر نيتك

ورغم حشد قواك تتقلدين أسلحتك

إلا أننى أطلب إليك أن تقومى حتى نتقابل، أنت وأنا

فى معركة مفردة».

ولما سمعت (تيامات) ذلك

أصبحت وكأنها مستها روح شريرة وغابت حواسها

ثم صرخت (تيامات) فى غضب شديد

حتى اهتزت ساقاها على عقبيها اهتزازًا شديدًا

وتلت رقية وظلت تنفث سحرها

وآلهة المعارك يشحذون أسلحتهم

وتلا ذلك دخول (تيامات) و (مردوك) أعقل الآلهة

فى معركة

وحمى الوطيس واشتد العراك

ونشر الرب شبكته لتحتويها

وأطلق فى وجهها (ريح الشر) التى تتبعه

ولما فتحت (تيامات) فاها لتلتهمه

ساق ريح الشر حتى لا تغلق شفتاها

ولما ملأت الريح الضارية بطنها

تمدد جسمها وازداد اتساع فمها

ففوق سهمًا مزق أحشاءها

وشق طريقه إلى داخلها فقلق قلبها

وهكذا بعد أن أخضعها اجتث منها الحياة

ورمى جثتها ليقف فوقها

وبعد أن ذبح (تيامات)، القائدة

تبددت عصابتها وتفرق شمل أعوانها

والآلهة، معاونوها الذين كانوا يسيرون إلى جانبها

أداروا ظهورهم يرتعدون خوفًا

حتى يستنقذوا أرواحهم

ولكن لم يستطيعوا فرارًا لأنه أحيط بهم

جعل منهم أسرى ودمر أسلحتهم

ولما ألقى بهم فى الشبكة وجدوا أنفسهم كصيد

ولما أحسوا بالتضييق عليهم بدءوا يولولون

وتمادى فى غضبه فأمر بأن يسجنوا

وأما المخلوقات الأحد عشر التى كانت وجهتهم لإثارة الفزع

عصبة الجن التى كانت تسير أمامها

فدفع بها إلى القيود، وأيديها (...)

وطئهم تحت قدميه كلما فكروا فى المقاومة

وأما (كنجو) الذى جعلت منه رئيسًا عليهم

فقيده وأسلمه إلى (أوجاى) (٨)

وسحب منه (لوحات القدر) التى لم تكن من حقه

وختمها وربطها على صدره

وحين تم له النصر على أعدائه وإخضاعهم

أعلن نصر (أنشار) على العدو

و(..) العدو المغرور

وحقق أمنية (نوديمود)

شدد (مردوك) قبضته على الآلهة المغلوبين

واستدار إلى (تيامات) التى كان قد قيدها

ووطئ الرب ساقى (تيامات)

وهشم جمجمتها بدبوسه

ولما فصل شرايين دمها

حملتها ريح الشمال إلى نواح غير مكشوفة

ولما رأى ذلك آباؤه ملأتهم الفرحة والتهليل

وقدموا هدايا تشير إلى ولائهم له

وتوقف الرب ليشهد جسدها الميت

حتى يقطع الوحش ويقوم بأعمال فنية

فشقها كما تشق الصدفة إلى قسمين

وثبت نصفًا وجعله سقفًا ... سماء

وشد عمودًا وأحل حراسًا

وأمرهم ألا يسمحوا لمياهها أن تهرب

ثم عبر السماء وفتش نواحيها

وقاس أنحاء (أبسو) مسكن (نوديمود)

كما يقيس الرب مساحة (أبسو)

والمسكن الكبير، شبيهه، ثبته كـ (إيشارا)

المسكن الكبير، (الإيشار) الذى جعله كقبة زرقاء (جلدًا)

وجعل (أنو) و (الليل) و (أيا) يأخذون أماكنهم

اللوحة الخامسة:

وبنى مساكن لكبار الآلهة

مثبتًا مشابهاتهم النجمية كأجرام سماوية

وحدد السنة بتعيين المناطق

وعين ثلاثة أجرام كل اثنى عشر شهرًا

وبعد تحديد أيام السنة بواسطة الصور السماوية

جعل مكانًا لـ (نبيرو) (٩) ليعين روابطهم السماوية

حتى لا يعتدى أحدهم أو يقصر

وبالقرب منه جعل مكانًا لـ (أنليل) و (أيا)

ولما كان قد فتح بوابات على الجانبين

قوى الأقفال إلى اليسار وإلى اليمين

وفى أحشائها أقر السمت

وجعل القمر يضىء وعهد إليه بالليل

وعينه مخلوقًا لليل ليكون علامة للأيام:

«كل شهر، بغير توقف، أضع صورًا بالتاج

فى بداية الشهر تمامًا حين ترتفع فوق الأرض

ستكون لك قرون مضيئة تشير إلى ستة أيام

وفى اليوم السابع كن نصف تاج.

وكبدر تكون فى نصف الشهر

وحين تأخذك الشمس فى قاعدة السماء

أنقص تاجك واجعل ضوءك يتضاءل

وفى فترة الاختفاء اقترب من مجرى الشمس

وفى التاسع والعشرين ستقف مرة أخرى مقابل الشمس».

(ويلاحظ أن بقية هذه اللوحة مفقودة)

اللوحة السادسة:

حين يستمع (مردوك) إلى كلمات الآلهة

يحفزه قلبه إلى صياغة أعمال فنية

وحين يفتح فمه يدعو (أيا)

لينفذ الخطة التى نبتت فى قلبه

«سأكتل الدم وأخلق العظام

سأصنع متوحشًا وسيكون اسمه (رجلاً)

حقًا سأخلق رجلاً متوحشًا

سيكلف بخدمة الآلهة

حتى يستريحوا

سأغير خطط الآلهة بتفنن

ورغم أن الاحترام سيظل قائمًا لهم جميعًا، فإنهم سيقسمون قسمين»

وأجابه (أيا) موجهًا كلمة إليه

ليروى له نبأ خطة لإراحة الآلهة:

«ليسلم واحد منهم

سيهلك وحده فقط حتى يصاغ البشر

ليجتمع الآلهة الكبار هنا فى مجمع

وليسلم المجرم حتى يحتملوا»

واستدعى (مردوك) كبار الآلهة للمجمع

وفى إشرافه اللبق عليهم أصدر تعليماته

واهتم الآلهة بما قال

وجه الملك الـ (أنوناكى)

«وإذا كان ما سبق قوله صحيحًا،

فقولوا الحق مقسمين:

من هو ذلك الذى أثار الفتنة؟»

وحرض (تيامات) واشترك فى المعركة؟

ألا فليسلم إلىَّ من سعى إلى الفتنة !!

سأجعله يلقى جزاء جريمته حتى تعيشوا فى سلام!»

وأجابه الـ (أيجيجى) كبار الآلهة

أجابوا (لرجال دميرانكيا) [١٠]

مستشار الآلهة ... ربهم:

إنه (كنجو) الذى أثار الفتنة

وحرض (تيامات) على الثورة واشترك فى المعركة

فقيدوه وأمسكوا به أمام (أيا)

ووضعوا عليه جريمته وفصدوا دماءه

وصاغوا منها البشر

وفرض [١١] الخدمة وأطلق سراح الآلهة

وبعد أن خلق (أيا) العاقل البشر

ووضع فوق كاهلهم (فرض عليهم) خدمة الآلهة

كان العمل مما لا يتصوره العقل

وكما صممه (مردوك) فى مهارة خلقه (نوديمود)

قسم (مردوك) ملك الآلهة

كل (الأنوناكى)[١٢] فى أعلى وفى أسفل

وأسلمهم إلى (أنو) لمراعاة تعليماته

وأحل ثلاثمائة فى السماوات ليحرسوها

وكذا فعل بالأرض

أحل فى السماء والأرض معًا ستمائة

وبعد إصدار أوامره

أعطى الـ (أنوناكى) فى السماء والأرض أنصبتهم

وفتح (الأنوناكى) أفواههم

وقالوا لـ (مردوك) سيدهم:

«والآن.. أيها السيد، يا من كنت سببًا فى خلاصنا،

كيف يكون التعبير عن خضوعنا لك؟

لنبن لك هيكلاً يدعى

(قاعة للراحة الليلية) لتستريح فيها

«لنبن هيكلاً ... مغارة لمسكنه

فى اليوم الذى تصل فيه[١٣] لتستريح به»

ولما سمع (مردوك) ذلك

التمعت وجنتاه ... كالصباح

«مثل هذا الذى ببابل الرفيعة الذى طلبتم بناءه

لتصنع قوالب طوبه... ستسمونه (الهيكل)»

وسعى الـ (أنوناكى) وراء (المواد)

ظلوا يعجنون الطوب مدة عام كامل

ولما جاءت السنة التالية

رفعوا عاليًا رأس الـ (أبساجيلا) مساويًا لـ (أبسو)[١٤]

بنوا برجًا طبقيًا عاليًا كـ (أبسو)

وجعلوا به مسكنًا لـ (مردوك) و (أنليل) و (أيا)

وفى حضورهم زينة فى فخامة

وكانت قرونه تطل على قاعدة (أبشارا)

وبعد أن انتهوا من بناء الـ (أبساجيلا)

شيد الـ (أنوناكى) أنفسهم هياكلهم

(....) تجمعوا جميعًا

(....) بنوه كمسكنه

وأجلس الآلهة آباءه، على مائدته:

«هذه هى بابل.. مكان موطنك (أو مكان حكم)

تهللوا فى مجاوراتها، واشغلوا نواحيها)

وأخذ كبار الآلهة أماكنهم

ووضعوا شراب الأعياد والولائم وجلسوا إلى الطعام

وبعد أن استمتعوا

قاموا بطقوسهم فى (أبساجيلا) المفخمة

وأُرسيت الأسس والقواعد وكل طيراتهم

وتقاسم الآلهة بالتساوى أنصبة السماء والأرض

أخذ الخمسون إلهًا الكبار أماكنهم

وأحل سبعة آلهة القدر، الثلاثمائة فى السماء

ورفع (أنليل) قوسه، وسلاحه ووضعه أمامه

ورأى الآلهة، آباؤه، الشبكة التى صنعها

ولما شهدوا القوس وشكله الرائع

امتدح آباؤه صنعته التى صنعها

وعند رفعها تحدث (أنو) فى مجمع الآلهة

حين قبل القوس (هذه.....)

وأطلق على القوس الأسماء التالية:

الأول (ثم تضيع سطور فيها إشارات غامضة لثلاثة

أسماء ويلى ذلك «حقًا، ابن (...) ممجد جدًا

ملكه يفوق (،،،،)»

ألا فليرع ذوى الرءوس السوداء[١٥]

حتى نهاية الأيام بغير نسيان، وهم سوف يعلنون (...)

ألا فليزود موائد قرابين آبائه العظيمة

ألا فليزودهم ويرعوا هياكلهم

ألا فليدع العطور تشم (...) رقاهم

على الأرض مثل ما تم صنعه فى السماء

ألا فليأمر ذوى الشعور السوداء باحترامه

ألا فليذكر الرعايا دائمًا إلههم

وطبقًا لكلمته يهتمون بالآلهة

ألا فلتحمل القرابين إلى آلهتهم وإلهتهم

وبغير نسيان فليعنوا برعاية آلهتهم

ليستصلحوا أراضيهم ويبنوا هياكلهم

ليخدم ذوو الشعور السوداء آلهتهم

وأما نحن فمهما أطلقنا عليه من أسماء فهو إلهنا

ألا فلنعلن أسماءه الخمسين

١- (مردوك) كـ (أمو) أبيه سماه منذ مولده الذى

يزود أماكن الرعى والشراب ويكثر الزرائب.

ذلك الذى بفضل عاصفة الفيضان - سلاحه - هزم المستخفين ومن نجَّى الآلهة

آباءه من المحنة

حقًا هو ابن الشمس الأكثر إشعاعًا بين الآلهة

ألا فليسيروا فى ضوئه اللامع إلى الأبد

ووضع على كاهل الناس الذين خلقهم ومنحهم الحياة

واجب خدمة الآلهة حتى يستريحوا

الخلق، والإهلاك، والخلاص، والنعمة

ستكون وفق أمره... سوف يحترمونه ويتوكلون عليه

٢. حقًا إن (ماروكا) هو الإله خالق كل شيء

الذى يسعد قلب الـ (أنوناكى) ويهدئ أرواحهم

٣. حقًا إن (مارونوكو) هو ملجأ الأرض، حماية لقومه، له يرفع الناس المديح

٤. (باراشاكوشو) وقف وأمسك بأعنتها[١٦] واسع هو قلبه ودافئة هى رحمته

٥. (لوجال ديميرانكيا) هو اسمه الذى أعلناه فى مجمعنا

أوامره عظمناها فوق الآلهة آبائه

حقًا هو سيد آلهة السماء والأرض

الملك الذى يرهب نظامه الآلهة فى أعلى وفى أسفل

٦. (نارى لوجال ديميرانكيا) وهو اسم من أطلقنا عليه مقدم الآلهة

ذلك الذى يؤسس لنا فى السماء والأرض ملاذًا فى الضيق

ومن يدبر أماكن راحة لـ (أجيجى) والـ (أنوناكى)

وعند ذكر اسمه يرتعد الآلهة ويرتجفون متراجعين

٧. (أسارولودو) هو الاسم الذى أعلنه له أبوه (أنو)

حقًا إنه ضوء الآلهة القائد القوى

ذلك الذى كالمعبودات الحامية للآلهة والأرض ـ فى معركة واحدة عنيفة أنقذ

مساكننا فى المحنة

(أسارولودو) ـ مرة ثانية ـ الذى أطلقوا عليه اسم

٨ ـ (نامتيلاكو) الإله الذى يحفظ الحياة الذى أعاد الآلهة الضائعين

كأنما هم من خلقه، المولى الذى أحيا الآلهة الموتى بسحره النقى

الذى يقضى على عصيان الأعداء... ليمتدح إقدامه

(أسارولودو) ـ مرة ثالثة ـ الذى أطلقوا عليه اسم

٩. (نامرو) الإله المضىء الذى يضىء طرقنا

ثلاثة من أسمائه أعلنها كل من (أنشار) و (لاخمو) و (لاخامو)

للآلهة أبنائهم وقالوا لهم:

« لقد أعلن كل منا ثلاثة من أسمائه رددوا أسماءه مثلنا»

واستمع الآلهة فى فرح لأمرهم

وتبادلوا المشورة كما فعلوا فى (أوبشوكينا)

«سنمجد اسم الابن البطل (المنتقم لنا)

(الذى ساندنا)

وجلسوا فى مجمعهم ليصوغوا الأقدار

وكلهم يرددون أسماءه فى الهيكل

اللوحة السابعة:

١٠. (أسارو) مانح الزراعة الذى أرسى بذر الأرض

خالق الحبوب والأعشاب الذى يسبب خروج النبات

١١. (أساروأليم) الممجد فى مكان المشورة البارع فى نصحه

ذلك الذى يأمله الآلهة حين يتملكهم الخوف

١٢. (أساروأليم نونا) الخير ضوء أبيه

ذارئه الذى يوجه مراسيم (أنو) و (أنليل) و (أيا)

إنه هو الذى يطعمهم ويحدد لهم أنصبتهم

الذى يكثر حرابهم كثيرًا

١٣. (توتو) هو الذى يباشر تربيتهم

ألا فليطهر هياكلهم حتى يستشعروا الراحة

ألا فليبتكر رقية حتى يستريح الآلهة

إن غضبوا ليرد غضبتهم

حقًا، إنه الرئيس فى مجمع الآلهة

ليس من بين الآلهة نظير له

(توت) هو (١٤) (زيوكينا) حياة مضيف الآلهة

الذى أرسى للآلهة السماوات المقدسة

الذى يمسك بزمام طرقهم ويحدد مسراهم

سوف لا ينساه (المغطون بالسحاب)(١٧)، ألا فليتذكروا فعاله

و (توتو) ثالثًا أطلقوا عليه اسم (١٥) (زيكو) الذى يرسى

دعائم القداسة

إله الأنسام الرقيقة، المولى الذى يستمع ويرضى

منتج الغنى والثروة ومباشر الإكثار

الذى بدل حاجياتنا جميعًا إلى وفرة

ذلك الذى استنشقنا أنفاسه الرقيقة فى المحنة المريرة

ليتكلموا! وليستعدوا وليترنموا فى مديحه!

و (توتو) رابعًا ألا فليعظمه الناس كـ (١٦) (أجاكو)

سيد السحر المقدس الذى يحيى الموتى

الذى يرحم الآلهة المنهزمين

الذى رفع النير عن الآلهة أعدائه

والذى - لكى يعتقهم - خلق البشر

الرحيم الذى يستطيع أن يمنح الحياة

ألا فلتخلد كلماته ولا تنسى

فى فم ذوى الشعور السوداء الذين خلقتهم يداه

و(توت) خامسًا هو (١٧) (توكو) الذى ستردد رقيته

المقدسة أفواههم

ذلك الذى اقتلع الأشرار بفضل رقاه المقدسة

١٨ - (شازو Shazu) الذى يعرف قلب الآلهة

الذى يفحص الأعماق

ذلك الذى لا يستطيع الشرير أن يهرب منه

الذى يجمع مجمع الآلهة ويسعد قلوبهم

الذى يخضع من لا يخضع... حاميهم الواسع الشهرة

الذى يدير العدالة ويقتلع الحديث الملتوى

الذى يفترق عنده الخطأ عن الصواب

(شازو) .... الذى يمجدونه ثانية (١٩) ك (زيسى)

الذى يسكت المتمرد

الذى يطرد الرعب من جسد الآلهة آبائه

(شازو) هو ثالثًا (٢٠) (سوهريم) الذى يقتلع بالسلاح

الأعداء

الذى يحيط تدابيرهم ويبددهم للريح

الذى يدحر الأشرار الذين يرتعدون أمامه

ليتهلل الآلهة لـ (.....)

(شازو) هو رابعًا (٢١) (سوهجوريم)

الذى يؤمن السمع

خالق الآلهة ... آبائه

الذى يقتلع الأعداء ويقضى على ذريتهم

الذى يحيط أعمالهم ولا يدع واحدًا منهم

ألا فليردد اسمه وينطق به فى الأرض

(شازو) خامسًا هو من سيمدحونه (٢٢) كـ (زهريم)

سيد الأحياء

الذى يقضى على الأعداء ويجزى عن الخير والشر

الذى أعاد الآلهة الشاردين إلى هياكلهم

ليخلد اسمه هذا

وأكثر من ذلك، إلى (شازو) سادسًا سيقدمون التمجيد كـ (٢٣)

(زاهجوريم)

ذلك الذى قضى على الأعداء كأنما فى معركة

٢٤ـ (أنبيلولو) إنه السيد الذى يجعلهم مزدهرين

القوى الذين أطلق عليهم أسماء والذى أقر تقدمة الشواء

الذى ينظم دائمًا للأرض المراعى وأماكن الرى

الذى فتح الآبار وسبب مجىء الماء فى وفرة

(٢٤) (أنبيلولو) ثانية سوف يمجد كـ (٢٥) (أبيادلون)

السيد الذى يرش الحقول

زارع السماء والأرض الذى يثبت صنوف البذور

الذى يوزع الأرض والمراعى

وينظم السد والحفرة ويحدد خط المحراث

(٢٦) (أنبيلولو) ثالثًا سوف يمتدح كـ (أنبيلولو جوجال)، زارع مزارع الآلهة

سيد الإكثار والازدهار ووفرة المحصول

مسبب ثراء وغنى المساكن

جالب الذرة وجاعل الشعير يظهر

(٢٧) (تنيلولو) هو (هيجال) ذلك الذى يكوم فى

وفرة لاستهلاك الناس

الذى يسبب الأمطار الغزيرة على الأرض الواسعة ويسبب الزراعة

٢٨. (سير سير) الذى يكوم الجبل فوقها: (تيامات)

الذى أزاح جثة (تيامات) بسلاحه

الذى يباشر الأرض، راعيها الأمين

الذى ..... وسائل الزراعة، ذلك الذى حربته تعنى شق المحراث

الذى غطى، كقبة، (تيامات) الواسعة الانتشار فى مددها

الذى عبرها كقنطرة فى ذلك المكان للمعركة الواحدة

(سير سير) ثانية أطلقوا عليه اسم (٢٩) (ملخ) وهكذا ..

.... (تيامات) قاربه وهو الراكب

٣٠. (جيل) الذى يخزن أكوام الحبوب أكوامًا هائلة

الذى ينبت الشعير والذرة ويأتى بحبوب الأرض

٣١. (جيلما) الذى يخلد مسكن الآلهة العالى

خالق البقاء

الطوق الذى يمسك بالـ .. معًا، الذى يقدم الأشياء الجميلة

٣٢. (أجيلما) المجد الذى ينزع تاج ......

الذى يخلق السحاب فوق الماء ويخلد السماء خالدة دوامًا

٣٣. (زولوم) الذى يرسم الحقول

ويمنح أنصبة وتقدمات ويرعى.....

٣٤. (موممو) خالق السماء والأرض الذى يدبر...

الإله الذى يقدس السماء والأرض هو ثانيًا (زولومار)

الذى لا يضارعه أحد فى القوة بين الآلهة

٣٥ ـ «جشنوموناب» خالق البشر جميعًا الذى

جعل العالم أقاليم

محطم آلهة (تيامات) الذى صنع الرجال من عناصرهم

٣٦. (لوجال أبدوبور) الملك الذى أحبط

عمل (تيامات) واقتلع أسلحتها

الذى أساسه ثابت فى المقدم والمؤخر

٣٧. (باجال جوينا) المقدم بين الآلهة جميعًا ذو

القوة الفائقة

المبرز بين الآلهة إخوته، سيدهم جميعًا

٣٨. (لوجال دورماه) الملك، زعيم الآلهة،

(سيد دورما) (١٨)

المبرز فى مسكن الآلهة الممدوح جدًا من الآلهة

٣٩. (أرانوننا) مستشار «أيا» خالق الآلهة

أبوهم

الذى لا يستطيع إله مهما يكن أن يعادل خطاه الملكية

٤٠. (دومو دوكو) الذى يتجدد مسكنه الطاهر فى دوكو(١٩)

(دومو دوكو) الذى يدونه لا ينتهى (لوجال كودوجو) إلى قرار

٤١. (لوجالانا) الملك الفائق القوة بين الآلهة

السيد، قوة (أنو) الذى أصبح سيدًا عند دعوة (أنشار)

٤٢. (لوجالوجا) الذى حملهم جميعًا فى وسط

الصراع

الذى يحيط بكل الحكمة الواسع الإدراك

٤٣. (أركنجو) الذى حمل (كنجو) فى زحمة العراك

الذى يحمل القيادة للجميع ويرسى أسس الحكم

٤٤. (كينما) الذى يقود الآلهة، معطى النصح

الذى يرتعد الآلهة خوفًا - كما فى العاصفة - عند ذكر اسمه

٤٥. (أسيزكور) سيجلس عاليًا فى بيت الصلاة

ألا ليأت الآلهة بهداياهم له

حتى يتلقوا منه أوامر تعيينهم

ليس هناك واحد يستطيع بدونه أن يخلق أعمالاً فنية

أربعة من ذوى الرءوس السوداء فى مقاييسه (؟)

بدونه لا يعرف واحد من الآلهة الإجابة عما يتصل بأيامهم

٤٦. (جيبل) الذى يحتفظ بالسن الحاد للسلاح

الذى قام بأعمال فنية فى الصراع ضد (تيامات)

ذو الحكمة الواسعة المزود ببعد النظر

الواسع العقل بحيث إن الآلهة جميعًا لا يستطيعون سبر أغواره

٤٧. (أددو) ليكن اسمًا له .. ألا ليحتل السماء جميعًا!

ألا ليكن زئيره المنعم ثقيلاً فوق الأرض

ألا ليقلل كـ (موممو) السحاب!

٤٨. (أشاور) الذى - كاسمه - قاد آلهة القدر

...... لكل الآلهة فى رعايته

٤٩. (نبيرو) سيمسك بمعابر السماء والأرض

إن من فشلوا فى العبور فى أعلى وأسفل.....

سوف يسألونه دائمًا

(نبيرو) هو النجمة اللامعة فى السماوات

حقًا، إنه يتحكم فى دوراتهم وهم يتطلعون إليه

قائلين (ذلك الذى فى وسط البحر يعبر فى قلق)

ليكن اسمه (العابر) الذى يقود وسطها

ألا ليستمسكوا بمجرى نجم السماء

ألا ليرع الآلهة كالنعاج

ألا ليغلب (تيامات)[٢٠] ألا لتكن حياتها عسيرة وقصيرة

فى مستقبل البشر حين تتقدم الأيام

ألا فلتتناقص بغير توقف حتى تختفى

لأنه خلق الفراغ وصاغ الأرض الوطيدة

الأب (أنليل) دعا اسمه (٥٠) سيد الأراضى

حين أعلن الـ (أجيجى) كل الأسماء

سمع (أيا) ففرحت روحه

وهكذا «ذلك الذى مجد آباؤه أسماءه

إنه حقًا مثلى، اسمه سيكون (أيا)

كل طقوسى المشتركة سيديرها ويشرف عليها

كل تعليماتى سينفذها»

وباللقب (٥٠) أعلنه الآلهة الكبار

ذلك الذى أسماؤه خمسون، وجعلوه سيدًا وجعلوا طريقه متعاليًا

خـاتـمـة:

لتعيها الحافظة وليفسرها القائد

ليتفحصها العاقل والعارف معًا

ليقلها الأب وينقلها لابنه

لتتفتح آذان الراعى وصاحب القطيع

ليتهلل بـ (مردوك) أنليل الآلهة

حتى تخصب أرضه وحتى ينجح

أمره وطيد وطلبته لا تتحول

إنه حين ينظر لا يدير عنقه

إنه حين يغضب لا يقف إله أمام غضبته

عقله كبير ورحمته واسعة

المذنب والمعتدى ينزعجون أمامه

التعاليم التى نطق بها القائد فى حضرته (ثم تلت ذلك سطور لا يمكن قراءتها).

الوصايا

أعظم وأقدم أدب تهذيبى وصل إلينا

بتاح حوتب

(٢٧٠٠ ق.م)

إن المرحلة الأولى لجهود الفكر الإنسانى والفلسفى بزغت من بهاء الشرق - وإن عظماء الشـرق فى مصـر والهند والصـين وفـارس هم الذين فـجـروا - بعـقـولهم - الينابيع التى هبط منها الوحى على فلاسفة اليونان والرومان، ومن جاءوا بعدهم - وإنه من المستحيل فهم حكمة الغرب من غير الوقوف أولاً على كل الجوانب الفكرية لحكمة الشرق.

فمن فلسفة الشرق بدأت الإنسانية تهتدى إلى أول معالم الطريق الحقيقى لفهم الوجود البشرى، وحكمة الحياة وكشف أسرار الكون، بداية من ضباب الفجر - حيث أثبت عظماء الشرق بالحق اليقين أن تيار الحكمة انساب عبر الأجيال من غير توقف مبتدئًا بحضارة وادى النيل - وقد صرح أفلاطون أعظم فلاسفة اليونان بذلك عندما اعترف بفضل المصريين عليه باعتبارهم رواده وأساتذته فى الفكر والفلسفة.

لقد جاءت فلسفة الشرق فى الأخلاق فى إطار موضوعى متكامل لكل الجوانب الإنسانية والقيم منذ الأزل - ولقنت العالم بعد ذلك أسمى أنواع المعرفة فى الحكمة، وكل المبادئ الأخلاقية - بداية بفلاسفة اليونان الأوائل الذين أسسوا عليها جوانب الفكر العربى عبر القرون المختلفة.

الأدب التهذيبى عند قدماء المصريين

الأدب التهذيبى قسم من الأقسام البارزة فى الأدب المصرى القديم، ويطول القول لو أننا توخينا التوسع فيه، فنكتفى بأن نمر به مرورًا.

كان المصريون يحبون العلم، ويحضون أبناءهم عليه، ويرونه أشرف مطلب للإنسان فى الحياة، وأقرب وسائله إلى النجاح فيها.

وكانت لهم مدارس تعلم القراءة والكتابة والحساب والهندسة والطب والفلك والنحت والتصوير والموسيقا وغير ذلك من العلوم والفنون، وكانت مدارسهم هذه منتشرة فى كل

إقليم، وكانت فى الغالب ملحقة بالمعابد، ومن مدارسهم الكبيرة التى اشتهر ذكرها والتى يمكن أن تُسمى فى التعبير العصرى جامعات، مدرسة هليوبوليس (أون)، مدرسة سايس (صا الحجر)، مدرسة هرموبوليس (خمينو أو أشمونين)، مدرسة طيبة، مدرسة أبيدوس (العرابة المدفونة)، ومدارس أخرى مختلفة.

ولما غزا الفرس مصر ودمروا فيها ما دمروا، رأى الملك «دارا» أن يعدل عن سياسة القسوة إلى سياسة المصالحة، فكان أول شىء فعله فى هذا السبيل أن أمر بإعادة المدارس التى دمرت إلى ما كانت عليه، وكلف بإعادتها مصريًا كان معه فى عيلام [١] فكتب هذا المصرى - وكان يسمى (أوزا - حور - ريس - ثى) على حجر تذكارى له يقول:

«أمرنى الملك دارا، حينما كان فى عيلام، أن أمضى إلى مصر، وأعيد مدارس الكتاب والكهنة التى دُمرت إلى ما كانت عليه».

ثم ذكر أنه صدع بهذا الأمر، ففتح المدارس، ورد إليها طلابها من أبناء الأسر الكريمة، وأجرى عليها ما يكفيها من النفقات.

وما جعل دارا إعادة المدارس إلى ما كانت عليه، أول أعماله لمصالحة المصريين، إلا لعلمه بالمنزلة السامية التى كانت لها عندهم، وهو لم يفعل ذلك بمحض رأيه بل برأى مشير مصرى كان بجانبه، وكان يعرف كيف يمكن تضميد جراح قومه.

ومع أن المصريين كانوا أهل زراعة، فقد رفعوا من شأن العلم حتى كان بعضهم يسمو به إلى أعلى من المهن كلها، نضرب مثلاً لذلك ما كتبه الحكيم خيتى[٢] فى وصاياه لابنه [٣]، إذ قال ما ملخصه:

هذه نصائح أسداها خيتى بن دوارف لابنه بيبى عندما رحل به إلى العاصمة ليلحقه بالمدرسة مع أبناء القضاة والحكام.

قال له:

«بودى أن أجعلك تحب العلم والكتب أكثر مما تحب أمك، وأن أظهر لك محاسنها لأنها أسمى المقاصد.

لقد رأيت صانع المعادن فى عمله، فرأيته أمام فرنه وقد صارت أصابعه غليظة كالتمساح، وتصاعدت منه الروائح الكريهة كما تتصاعد من فضلات السمك.

ورأيت النحات بالإزميل، فوجدته يشق أكثر ممن يشق الأرض بالفأس، حقله الخشب وفأسه الإزميل، وفى الليل يجب أن يعمل - أيضًا - على ضوء مصباحه ولو كانت يداه متعبتين.

وقاطع الأحجار فى الحجر الصلد، فلا يكاد يفرغ من بعض عمله حتى تكون ذراعاه قد كلَّتا، وحتى تكون قوته قد انحلت.

والحلاق يعمل النهار كله وجزءًا من الليل، وهو يمضى من شارع إلى شارع ليبحث عمن يريد الحلاقة، وهو ينهك فى ذلك نفسه ليملأ بطنه، مثله كمثل النحلة تأكل وهى تعمل.

والنوتى الذى ينقل البضائع إلى الوجه البحرى ليربح أجرة نقلها من النصب أكثر مما تطيقه ذراعاه، وهو معرض للبعوض يقتله.

والزارع لا ينتهى قط مما عليه أن يؤديه، وعناؤه لا يوصف، وهو يقتات كما يقتات المرء بين الأسود، وكثيرًا ما يمرض! وعندما يعود إلى داره فى المساء يشعر كأن جسمه يتمزق من التعب.

والنساج فى منسجه أسوأ حالاً من امرأة، وهو فى قعوده القرفصاء تحاذى ركبتاه معدته ولا يستنشق هواء نقيًا، وعليه أن يعطى البوابين خبزًا لكى يرى النور.

وحامل البريد إلى البلاد الأجنبية يترك وصيته لأولاده قبل رحيله، توقعًا لما قد يصادفه من اغتيال الأسود واغتيال الآسيويين.

وصانع الأحذية تعس يتسول... ... وهو يأكل الجلد.

والغسال يغسل الملابس المتسخة على حافة النهر فيكون جارًا للتماسيح.

وصياد السمك حظه أسوأ من حظ أصحاب المهن الأخرى جميعًا. انظر. ألست تراه يعمل على ظهر النهر حيث يختلط بالتماسيح؟

والبستانى ذو أعباء ثقيلة، فى الصباح يسقى الكراث، وفى المساء يسقى الكرم. وصياد الطير كلما رأى طيورًا تخترق الجو قال فى نفسه «ليت معى شبكة» والله يأبى أن يجيب طلبه.

اعلم أنه لا توجد مهنة بغير رئيس إلا الكتابة، فإن صاحبها هو الرئيس.

ومتى عرف الكاتب الكتب عرف الحق فى قولهم إنها مفيدة له... ... وهذا الذى أقدمه لك الآن من النصح ونحن فى طريقنا إلى العاصمة، إنما أقدمه لأنى أحبك.

إن يومًا واحدًا تمضيه فى المدرسة يفيدك، والمجهود الذى تبذله فى خلاله يدوم كما تدوم الجبال».

وفى عهد الدولة الحديثة خاف بعض الآباء والحكماء أن يقل إقبال الأبناء على الكتابة والعلم، بسبب الجندية، التى راجت سوقها إذ ذاك، باتساع الفتوحات المصرية، وبما كان الملوك يغدقونه من الخيرات ووسامات التشريف على الجنود وقوادهم، فكتبوا لهم عن متاعب الجندية ويقولون إن العلم أفضل منها.

وهناك نصائح أخرى طريفة كتبها بعض المعلمين من المصريين القدماء ليهذبوا بها تلاميذهم، فنشير هنا إلى بعض منها، وهذه النصائح لم تكتب لتكون تهذيبًا مدرسيًا عامًا، بل كتبت لحالات بعينها ولتلاميذ بعينهم، فهى لهذا السبب نفسه تحتفظ بكل قوتها وحيويتها، وتكشف لنا عن العلاقة بين التلميذ ومدرسته من ناحية وبينه وبين معلمه من ناحية أخرى.

كتب معلم إلى تلميذ يقول:

«أنصح لك ألا تكون الرجل الغبى المجرد من التهذيب، إنك تتلقى العلم بالليل، والتهذيب بالنهار، ولكنك لا تصغى لأى تعليم، وتأبى إلا أن تجرى على هواك.

إن الحيوان «كايرى» يؤتى به من إثيوبيا ويؤمر فيطيع، والأسد يدرب فيقبل التدريب، والخيل تساس فتخضع، أما أنت فلا يوجد لك شبيه فى البلد كله، فاعرف ذلك وتنبه له».

ويدل قول المعلم «إنك تتلقى العلم بالليل والتهذيب بالنهار» على أن تلميذه كان يشتغل النهار وجزءًا من الليل.

وفى أسلوب الكتاب عنف ظاهر كان مما يستخدم فى التهذيب.

وكتب معلم ثان:

«أيها الكاتب، لا تركن إلى البطالة وإلا عوقبت عقابًا شديدًا.

لا تجعل ميلك إلى الشهوات لئلا تجرى بنفسك إلى الضياع.

اكتب بيدك، واقرأ بلسانك واستشر الذين يعرفون أكثر منك.

لا تضيع يومًا واحدًا فى البطالة وإلا ضربت، فإن أذنى الصبى فى ظهره فإذا ضرب أصغى».

وهذه كلمات حية كأنما كاتبها «فقيه» كُتاب كان فى بعض القرى المصرية منذ عشرين عامًا فقط، بل لا يبعد أن يوجد الآن من (فقهاء) الكتاتيب من لا يزال يرى أن تكون هذه وسائله فى تربية الصبيان فى كُتابه.

وقوله «اكتب بيدك، واقرأ بلسانك» قول مرب خبير، وقوله «إن أذنى الصبى فى ظهره» تعبير قوى الحيوية.

على أن هذين المعلمين لم يبلغا من العنف ما بلغه معلم ثالث كتب إلى تلميذه: «لقد صرت أكره الاستمرار فى تعليمك، ماذا يفيد أن أضربك مائة عصا؟ لا شىء، فأنت مثل الحمار الجموح الذى يتلقى الضربات، أو مثل الزنجى المصاب بالتمنعة يؤتى به مع الجزية.... ولكن سأجعل منك رجلاً، فاعرف ذلك وتيقنه».

ومعلم رابع ينصح:

«قيل لى إنك تترك الكتابة وتستسلم للهو، فيتلقفك بعد شارع، حيثما تكون الجعة، ألا فاعلم أن الجعة تبعد الناس عنك، وأن مثلك فيما تفعله كمثل دفة مركب يريد صاحبها تحريكها فلا تتحرك يمينًا أو شمالاً، أو كمثل معبد بلا معبود، أو كمثل بيت لا خبز فيه.

وقد قيل لى إنك وجدت تتسلق حائطًا، ففر الناس منك مسرعين، لأنك تؤذيهم وتحدث فيهم جروحًا، فليتك تعلم أن الخمر منكر وتأخذ على نفسك أن لا تقارف المسكرات».

ونأخذ بعد ذلك فى عرض أدب الحكماء.

وأقدم حكم وصلت إلينا من هذا الأدب هى التى تعرف باسم «مواعظ كاجمنه»[٤]، وهى مواعظ يؤخذ منها أن كاتبها كان وزيرًا للملك حونى[٥] وأنه كتبها ليهذب بها أبناءه - ومنهم (كاجمنه) الذى سميت المواعظ باسمه - عسى أن يصير واحدٌ منهم أهلاً لأن يخلفه فى منصبه، ثم لما فرغ من الكتابة دعاهم وقال لهم:

«هذا كتابى إليكم فاعملوا بما فيه كأنكم تسمعونه منى»

فانبطحوا على الأرض أمامه، ثم جعلوا يتخذون من المواعظ مرشدًا لهم فى سلوكهم، وبعد قليل مات الملك حونى وخلفه الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة، فعين (كاجمنه) حاكمًا لإحدى المدن ثم وزيرًا.

ثم قال:

«إذا جلست لتأكل مع ناس كثيرين فتعفف عما تشتهيه من الطعام».

«فى السُّكر والشراهة فضيحة، مع أن كوبة ماء تطفئ الظمأ ومضغة قاوون تكفى النفس، وقد يفى القليل من الكثير».

«إذا جلست مع شره فاحذر أن تأكل مثله».

«الجاهل لا يؤثر فيه الكلام ويكون عبوسًا عند كل عطاء، ولو عن قلب سليم، فهو غم لأمه ولأهله».

سنعرض خلال هذا الفصل من الكتاب بعضًا من الخيوط والآراء الفلسفية لأحد عظماء الحكمة والأخلاق الشرقيين، لنؤكد ما أتوا به من مبادئ وقيم فى فلسفة الأخلاق كانت كالشمس تمامًا بزغ نورها فى الشرق ثم انتشرت تجاه الغرب، وأن فى أرض الشرق وتحت سمائه اكتملت دائرة الأخلاق والحكمة.

بتاح حوتب أول فيلسوف سجله تاريخ الإنسانية

فيلسوف مصرى ظهر عام ٢٧٠٠ قبل الميلاد، وكان حاكم مدينة ممفيس ورئيس وزراء ملك مصر القديمة، وعندما اقتربت حياته من نهايتها اعتزل منصبه وكرس نفسه لتعليم النشء، حيث كان يعمل على ضرورة تعلم الفضيلة كأساس للحياة الصالحة.

كان بتاح حوتب يحث على فضيلة النفس التى كانت أحد أحجار الزاوية فى فلسفتى أفلاطون وأرسطو، وكان بتاح حوتب يؤمن بإله واحد اعتبره أبا الإنسانية جمعاء، وكان هذا الإله الذى آمن به يعرف فى مصر القديمة باسم أوزوريس ـ الذى كان يمثل الصراع بين الخير والشر، وبأنه قد يتغلب الشر لوقت ما، ولكن من المؤكد أن ينتصر ويسود الخير فى النهاية. وصرح بأبدية هذا الإله، وبأنه الوحيد الذى يهدى الناس إلى الطريق القويم وجنة الخلد.

ومن تعاليم فلسفته الدينية التى كان يغرسها فى نفوس الناس أن روح الإنسان كاللهب تتجه إلى أعلى، وبأن كل إنسان سوف يموت ليحيا مرة أخرى. وبذلك سجل بتاح حوتب إيمان الإنسان بالبعث. وهذا الإيمان هو الذى حفز المصريين القدماء على الاحتفاظ بأجساد موتاهم باستخدام التحنيط حتى تعود الروح مرة أخرى وتجد الجسد مستعدًا لاستقبالها.

ويعتبر بتاح حوتب من أوائل الفلاسفة المصريين الذين أعطوا أكبر المثل فى الحكمة والفضيلة. كما يعد أول فيلسوف أخلاقى فى العالم يبرز معنى وحدة الأسرة الإنسانية وبأن هناك إلهًا واحدًا لجميع البشرية. وقد أثرت مخطوطاته فى الحكمة وتعاليم الأخلاق فى الفيلسوف اليونانى أفلاطون الذى ظهر بعده بما يقرب بنحو ٢٣٠٠ سنة. كما أثرت الصورة التى رسمها للرجل المتحلى بالأخلاق فى أرسطو عندما رسم صورة الرجل الكامل الصالح المتزن الشخصية.

وبذلك يعتبر بتاح حوتب أول فيلسوف أخلاقى سجله تاريخ الإنسانية نادى بالتوحيد والأخلاق الفاضلة إلى جميع البشر من منطق فلسفة عالمية تصلح لكل المجتمعات ولكل العصور، وبأن الناس جميعًا من طبيعة واحدة يمثلون أسرة متحدة فى كل أمور الحياة وأن الخير أساس حياتهم والشر أمر عارض، قد يظهر فى فترة ولكن لابد له أن يزول ويمَّحى بقوة فعل الخير.

وصايا بتاح حوتب

أُلفت هذه الوصايا فى عصر الأسرة الخامسة (٢٤٥٠ ـ ٢٣٠٠ قبل الميلاد).

وتعالج هذه الوصايا العلاقات الإنسانية بين البشر، كما تلقى الضوء على المقومات الأساسية للفضيلة. والفضائل الرئيسية هى:

١- حب السلام.

٢- ضبط النفس.

٣- الاعتدال وعدم التطرف.

٤- الرقة.

٥- الكرم.

٦ ـ العدل.

٧ ـ الأمانة.

٨ ـ حسن التقدير.

يجب على كل فرد أن يؤمن بهذه الفضائل ويطبقها عمليًا، والرجل المثالى ـ كما يراه بتاح حوتب ـ هو رجل السلام، وهى تعاليم عمدة المدينة (بتاح حوتب) وزير ملك الوجهين القبلى والبحرى (أسيسى) الحى على مر الزمان وإلى الأبد.

تمهيد

يقول عمدة المدينة، الوزير (بتاح حوتب):

«أيها العاهل، أيا سيدى، لقد حلت الآن السن المتقدمة، وانقضت الشيخوخة (علىَّ) والتدهور دون توقف يتجدد بعد أن فرض نفسه فرضًا، والمرء يغفو طوال اليوم والعينان مريضتان والأذنان صماوان، والقوة ذهبت لأن القلب منهك، والفم صامت لا يتكلم أبدًا، والقلب لم يعد يفكر، بل إنه لم يعد يتذكر الأمس، والعظام باتت مصدرًا للألم بسبب طول مدة الحياة، وما كان مصدر سعادة بات الآن تعاسة، لقد دلت جميع الأحاسيس، أن ما تسببه الشيخوخة للإنسان، هو أمر سيئ، من جميع النواحى، الأنف لم يعد يتنفس، والوقوف والجلوس مؤلمان على السواء، اسمح إذن بأن يصدر الأمر بأن يشكل خادمك لنفسه عصا الشيخوخة، حتى أستطيع أن أقول كلمات الذين أنصتوا فى الماضى ونصائح الأجداد الذين أطاعوا الآلهة، عندئذ سيفعل القوم من أجلك الشىء ذاته، وتطرد الشرور بعيدًا عن شعب مصر وتعمل الضفتان من أجلك».

تكلم إذن جلالة هذا الإله (الملك) قائلاً: «علمه كلمات الزمن الماضى، فلتجعل منه نموذجًا لصبية العظماء فلينفذ إليه الانشغال بالإصغاء مثله مثل العدالة التى فى كل قلب، وذلك عندما يخاطبه الناس، ليس هناك طفل صار حكيمًا منذ صباه».

كلمات مأثورة

بداية الحديث المؤلف من كلمات جميلة وطيبة، الذى فاه به النبيل، الأمير، الأب الإلهى، المحبوب من الإله ابن الملك الذى هو من صلبه، عمدة المدينة الوزير (بتاح حوتب) (فاه به) بينما كان يُعلم المعرفة لمن لا يعرف، ويعلم قواعد الكلام الصحيح، سوف ينطوى ذلك على أعظم النفع لمن يصغى إليها، ولكنه سيكون وبالاً على من يخرج عليها.

يقول لابنه:

عن التواضع:

الحكمة الأولى

ليت قلبك لا يكون متعجرفًا بسبب ما تعرفه، لا تملأ قلبك بفكرة أنك عالم. شاور الجاهل بنفس الأسلوب الذى تشاور به الإنسان صاحب المعارف، فالمرء لا يصل أبدًا إلى حدود فن من الفنون ولا يوجد حرفى بلغ حد التفوق، الكلمة السديدة قد تكون مختفية أكثر من زمردة ويمكن للمرء أن يعثر عليها بين الخادمات المنحنيات على الرحى.

عن المحادثة:

الحكمة الثانية

إذا التقيت بمحاور فى (أفضل) لحظاته وكان سامى القلب ماهرًا أكثر منك، عندئذ أخفض ساعديك، احن ظهرك ولا تحدبه، ولكن عليك ألا تمكنه من أن يستند عليك، وسوف تحط من قدره إذا (قال) كلمة سوء، ولا يفوتك أن تفنده فى الوقت المناسب، بحيث يقال عنه «ياله من جاهل!!» إلى أن يقضى قلبك على أساليبه.

الحكمة الثالثة

إذا التقيت بمحاور فى (أفضل) لحظاته، وكان مساويًا لك وصاحب منصب، عندئذ تصرف بحيث تظهر مهارتك كأرقى من مهارته،لا تلتزم الصمت (ولا سيما) عندما يقول قولاً سفيهًا، وسوف يؤيدك المستمعون وتصبح لك سمعة كرجل صاحب معرفة طيبة وسط العظماء.

الحكمة الرابعة

إذا التقيت بمحاور فى (أفضل) لحظاته وكان رجلاً متواضعًا، ولم يكن بالتأكيد مساويًا لك، فلا يثورنَّ قلبك ضده لأنه ضعيف، ولا تطرح عليه أسئلة، للترويح عن نفسك، كما لا تهدى القلب الذى يعارضك على هذا النحو (اطرحه ـ على ـ الأرض) حتى يعاقب نفسه بنفسه، إنه لمن المؤسف أن يهان رجل لأنه محدود الفكر ـ إذ إن كل امرئ يتصرف حسب ما فى قلبه ـ ولكنك ستضربه عن طريق استهجان العظماء.

العدالة والحقيقة:

الحكمة الخامسة

إذا كنت رئيسًا يصدر أوامره إلى جمع غفير من الناس فاغتنم كل فرصة لعمل الخير، بحيث يكون سلوكك لا غبار عليه.

مهمة هى (الحقيقة ـ العدالة) فثروتها تدوم، ومنذ زمن خالقها، فإنها لم تتعرض أبدًا للعواطف ويعاقب كل من يخرج على نواميسها، إنها صراط يمتد أمام الجاهل، أما الخسة فلم يسمح لها أبدًا بالرسو فى أى من الموانى، قد تستطيع الدناءة أن تحقق الثروات ولكن قوة (الحقيقة ـ العدالة) هى من دوامها، ويستطيع المرء أن يقول (عنها): إنها الثروة التى يمتلكها أبى.

عن الوداعة:

الحكمة السادسة

لا تبث الرعب بين الناس وإلا فسيعاقبك الإله بالمثل، إذا فكر إنسان أن يعيش بهذا الأسلوب، فإن فمه سيحرم من الخبز.... لا تسمح للخوف من الناس أن يظهر، فمشيئة الإله هى التى ينبغى أن تظهر وستعمل على أن يعيش الناس فى سلام، عندئذ سيحضرون ويعطونك من تلقاء أنفسهم.

عن آداب المائدة:

الحكمة السابعة

إذا كنت واحدًا من المدعوين الجالسين إلى مائدة شخصية أرفع شأنًا منك، فتناول ما يعطيك عندما يقدم لك ذلك، لا تنظر إلى ما أمامه، بل إلى ما هو أمامك، لا ترشقه بنظرات كثيرة لأنه (المساس به) على هذا النحو هو أمر يمقته الـ(كا) (٦). لا تتحدث إليه، إلى أن يوجه إليك الكلام، لأنه يصعب على المرء أن يعرف ما قد لا يعجب، أبق وجهك منخفضًا، إلى أن تُسأل ولا تتحدث إلا بعد أن يطرح عليك السؤال، اضحك عندما يضحك، فذلك سيثلج قلبه جدًا. يجب أن يكون ما تفعله مرضيًا له فلا يعرف المرء أبدًا ما فى القلب.

إذا جلس شخص عظيم إلى المائدة فإن سلوكه يتحدد حسب توجيهات (كا)، فيعطى لمن يستطيع أن يصل إليه، ولكن (كا) هو الذى يبسط ذراعيه (ليعطى)، إن أكل الخبز يعتمد على المقاصد الإلهية، وجاهل من يشكو ذلك.

كيف تكون رسولاً أمينًا:

الحكمة الثامنة

إذا كنت رجلاً موضع ثقة أوفده عظيم من العظماء إلى عظيم آخر، فكن شاهدًا أمينًا على شخصية من أوفدك، وسلم الرسالة، كما أُمليت، عليك ولا تنس تجنب تحريف الكلمات (التى اؤتمنت عليها) حتى لا تزرع الشقاق بين عظيمين، فالتزم بالحقيقة، ولا تتجاوزها، فالهدوء لا يعود أبدًا (كذلك) ولا تتحدث إلى أى كان سواء كان الرجل كبيرًا أو صغيرًا (عن الرسالة) لأن الـ (كا) يمقت ذلك.

عن الكرم:

الحكمة التاسعة

إذا حرثت فليكن حقلك مزدهرًا، ليعطيك الإله بوفرة، ولا تتباه كثيرًا بذلك، ولا تطالب من لا يملك بشىء، حاذر لكلامك لدى جيرانك، فعظيم الاحترام الذى يحظى به الرجل الصامت، الإنسان القوى هو إنسان ثرى لأنه يتحكم فى القضاة(٧) مثل التمساح كما لا تطلب شيئًا ممن ليس له أولاد، لا تُصْدر نقدًا أو تُعْرب عن المباهاة بهذا الصدد، عدد كبير من الآباء - أيضًا - معوزون وربما كانت الأم التى أنجبت أقل رضًا من (امرأة) أخرى، إن الإله هو الذى يحيى الإنسان الوحيد فى حين يتضرع رب الأسرة من أجل خلف واحد.

الاحترام الواجب فى حق حديث النعمة:

الحكمة العاشرة

إذا كنت فقيرًا وفى معية رجل مرموق، فاعمل على أن يكون سلوكك كله كاملاً لدى هذا الإله (؟) تجاهل وضعه البسيط فيما مضى، لا تكن متعجرفًا معه بسبب ما تعرفه عنه من قبل بل تحل فى حقه بشىء من الاحترام بسبب ما حدث له، فالثروة لا تهبط من تلقاء نفسها، إن ما يرغبه (هؤلاء البشر) هو قانونهم، والذى يغزو يثير الخوف ولكن الإله الذى خلقه ماهر، وهو الذى يقترب منه أثناء نومه.

فى السعادة:

الحكمة الحادية عشرة

اتبع رغبتك على امتداد حياتك، لا تفعل أكثر مما هو محدد لك، ولكن لا تختصر زمن (التقيد بالقلب) إن إبادة لحظة هو أمر يمقته الـ (كا)، لا تصرف نشاطك إلى

الأعباء اليومية، بدافع الاهتمام المبالغ فيه بشئون دارك، وعندما تأتى الثروة اتبع رغبتك، لأن الثراء لا يكتمل إذا لم يكن المرء سعيدًا.

السلوك فى حق الأبناء:

الحكمة الثانية عشرة

إذا كنت رجلاً ذا شأن وإذا أنجبت أبناء بفضل الإله، وإذا كان هذا الأخير دمثًا، وإذا كان قريبًا من طبيعتك، وينصت إلى تعاليمك، وكانت نصائحه موفقة فى دارك، وإذا كان يُعنى بممتلكاتك كما ينبغى، عندئذ أنشد له الخير لأنه ابنك المولود من بذرة (كا) ولا تفرق بين قلبك وقلبه.

ولكن بذرة الرجل يمكن - أيضًا - أن تخلق عدوًا، وإذا ضل هذا الأخير وخرج على نصائحك، وإذا لم يتبع تعليماتك، وإذا كانت مقاصده سيئة داخل بيتك، وإذا تمرد على ما تقول، بينما يتفوه فمه بكلمات شريرة، فأعرض عنه، ولا يئول شىء إلى ملكيته اطرده لأنه بالتأكيد ليس ابنك، ولم يأت إلى الدنيا من أجلك واجعل منه خادمًا بسبب كل كلامه، وضعه فى زمرة الذين يستحقون التوبيخ فلقد كتب الإله عليه الشقاء منذ أن كان فى بطن «أمه». أولئك الذين يقومون لا يستطيعون السير عكس الطريق، (وبالمثل) فالذين لا يملكون قاربًا لا يستطيعون العبور.

احترام البروتوكول:

الحكمة الثالثة عشرة

إذا تواجدت فى قاعة انتظار، فلتقف أو تجلس طبقًا للتعليمات التى أمليت عليك فى اليوم الأول ولا تتجاوزها، فقد ينصرف القوم عنك، والوجه البشوش يكون فى انتظار من يدخل بعد الإعلان عن قدومه، وكبير سيكون (مقعد [٨]) من ينادى عليه، قاعة الانتظار تخضع لقاعدة، وكل تصرف له قيمته المحددة، ولكن الإله الذى خلق التفوق وهو الذى يهب الترقية لصاحب الطبيعة الطيبة والمستقيمة ولا يربح شيئًا من شق طريقه عنوة.

عن الإخلاص:

الحكمة الرابعة عشرة

إذا كنت فى صحبة (غيرك) من الناس، فلتصنع لنفسك زبائن بفضل إخلاصك فالرجل المخلص، يكون ذا سمعة طيبة عندما لا يستجيب لما تمليه عليه بطنه، أما

بالنسبة للرجل الغنى، فماذا يجب أن يكون عليه سلوكه لكى يصبح هو نفسه رئيسًا؟ على الناس أن يهابوه ليس إلا وفقًا لمركزه (وهكذا) ستكون سمعتك طيبة حتى دون أن تتكلم وسيتغذى جسدك جيدًا، ووجهك سيلتفت إلى من يحيطون بك، وسيمتدحك الناس حتى دون أن يعرفوك، ولكن الذى يضل قلبه بالاستجابة لبطنه، سيحتقره الناس بدلاً من أن يحبوه. وسيكون قلبه أقرع وجسده ضعيفًا.

الرجل صاحب القلب الجياش، هبة من الإله ولكن من يستجيب لبطنه ينتمى لعدو.

عن الرسول:

الحكمة الخامسة عشرة

انقل توجيهاتك بأمانة، عندما تعرض شئونك فى مجلس سيدك، أما فيما يتعلق بالإنسان المشوش فيما يقول، فمن السهل أن يختلط الأمر على الرسول الذى ينقل (أقواله)، ولكن، تُرى من ذا الذى يعرف ذلك؟ أما السيد الذى ستضطرب أعماله، فإنه إذا أراد أن يعاقبه (الرسول) على ذلك فلن يستطيع هذا الأخير سوى أن يصمت بعد أن يكون قد تكلم.

أن يكون المرء رئيسًا:

الحكمة السادسة عشرة

إذا كنت رئيسًا فعلى قراراتك أن تسير فى طريقها فى حرية بناء على أوامرك، كما عليك أن تحقق أشياء سامية، فكر فى الأيام التى ستلى ذلك، حتى لا يأخذ أى فعل (يستوجب الندم) مكانه وسط المدائح، عندما يحضر التسامح، تفاجئنا الكراهية ويعود المرء إلى التمرد.

الحكمة السابعة عشرة

إذا كنت رئيسًا فأنصت فى هدوء إلى كلمات الشاكى، ولا تصرفه، طالما لم (ينظف) جسده من كل ما كان يفكر فى أن يقوله، يميل الإنسان البائس إلى غسل قلبه أكثر من أن يرى أن ما جاء من أجله يتحقق، كم هو مفرح لكل شاك أن (يلمس) الإعراب عن العون والاهتمام!

أما الشخص الذى قد يصد من جاء يرفع إليه التماسًا، فسوف يقال عنه: (لماذا طرده إذن؟) من المؤكد أن كل ما كان يريد أن يطالب به يتحقق ولكن الاستماع باهتمام إلى هذا (البائس) هو بمثابة (تربيت) على قلبه.

عن خطر النساء:

الحكمة الثامنة عشرة:

إذا كنت ترجو الصداقة أن تدوم فى منزل تتردد عليه، كسيد أو أخ أو صديق، وفى أى مكان تذهب إليه فتجنب الاقتراب من النساء، فأينما وجدن لا يكن الجو طيبًا، ليس فطنًا من ينكسر بسببهن، ولكن هكذا ينصرف آلاف الناس عما يجلب الخير لهم ويمكن أن يفقد الإنسان رشده من أجل جسد لامع ليصير المرء أشبه بحجر (حرست[٩]) إنها للحظة قصيرة كلمح البصر، أشبه بحلم ويحل الموت فى النهاية لأننا عرفناهن، إنها كلمة بائسة: «أطلق ضربة على العدو» ويخرج المرء للقيام بها، ولكن القلب (العقل) يرفضها، لا تفعل ذلك، إنه أمر يمقته الأولاد هكذا. كن خاليًا. من الحزن كل يوم.

أما الرجل الذى يخطئ بسبب ما يكنه من شهوة لهن، فلن يُتوج أى مقصد من مقاصده بالنجاح.

الحكمة التاسعة عشرة

إذا أردت أن يكون سلوكك كاملاً، فأعرض عن الشر أيًا كان، وابتعد (بشكل خاص) عن أفعال الطمع، لأنه مرض موجع لا شفاءَ منه، يبعد عنك جميع المترددين عليك، إنه يذل الآباء والأمهات والإخوة والأخوات على السواء، ويجعل وداعة الصداقة حادة ويبعد الصديق عن سيده ويفرق بين الزوج وزوجته، إنه (حُزْمة) مشكلة من كل ما هو سيئ، إنه كيس يحوى كل ما يستحق اللوم.

ولكنه سيعيش طويلاً ذلك الرجل الذى تكون الحقيقة. العدالة هى خط سلوكه والذى يسير حسب خطواتها.

وبفضل ذلك سيتمكن من كتابه وصية، بينما الرجل الجشع لن يكون له قبر.

الحكمة العشرون

لا تكن جشعًا عند القسمة، لا تكن شرهًا إلا فيما يخص نصيبك، لا تكن نهمًا حيال من يحيطون بك، إن شكوى الرجل الوديع أكثر أهمية من شكوى الرجل القوى، من يخون محيطه، هو رجل له القليل وهو محروم من مساندة الكلمة، إن هذا القليل الذى حُرم منه يحول (أحيانًا) رجلاً وديعًا ولطيفًا بطبعه إلى عدو.

من أجل الفوز بزوجة صالحة

الحكمة الحادية والعشرون

إذا كنت رجلاً رفيع المقام، فأسس بيتًا وأعز زوجتك فى منزلك كما ينبغى، املأ بطنها واكس ظهرها، والأدهنة - أيضًا - علاج حقيقى لأعضائها، ومن ثَم اجعلها سعيدة مادمت حيًا. إنها حقل خصب لمن يملكه، لا تحكم عليها، بل أبقها بعيدًا عن القيادة لأنها قد تثير العواطف، (ربِّت) قلبها بما يتأتى لك من سعادة، ومن ثم سوف تبقى فى بيتك إذا صددتها،. عندئذ تنهمر الدموع والمهيل هو ما تقدمه فى إطار ظروفها(١٠)، ومــا تطالب به هو أن يعد المرء لها قناة.

عن الأصدقاء:

الحكمة الثانية والعشرون

أرض أصدقاءك بفضل ما يتأتى لك من أمور سعيدة، إن الإله يثنى على ما يتأتى للمرء. إذا قصرت فى إرضاء أصدقائك (على هذا النحو) سيقال - عنك -: هذا إنسان أنانى.

ما من إنسان يستطيع أن يعرف ما يمكن أن يحدث ولو كان يعتقد أنه يستطيع معرفة الغد. والرجل النزيه الذى يرضى رجل (حقيقى) لأن من يفكر فى الغد لا يعرف ما سيأتى به هذا الغد. إذا صادفتك فرص مواتية فالأصدقاء هم الذين يقولون: (مرحبًا) وإن لم يتمكن المرء من إعادة الهدوء إلى منزله فيمكن اللجوء إلى الأصدقاء عند وقوع القلاقل.

عن النميمة:

الحكمة الثالثة والعشرون

لا تردد النميمة، بل لا تستمع إليها، لأن مصدرها رجل ذو طبيعة مندفعة، ردد مسألة رأيتها وليس تلك التى سمعتها، وهذه عليك أن تحتقرها، ولا تتحدث عنها أبدًا، عندئذ سيعرف مدى سموك. (بالمثل)، إذا حرض شخص على سرقة، فلسوف يظهر الناس الكراهية لمن سرق. والنميمة أشبه بفعل ينتمى للحلم يتعين معاقبتها، أما أنت فتحاشاها كلية.

عن الكلام :

الحكمة الرابعة والعشرون

إذا كنت رجلا متميزًا يأخذ له مكانا فى مجلس سيده، (استجمع قلبك) طلبًا للسمو. كن صامتًا فذلك أكثر نفعًا من الإضراب. لا تتحدث إلا عندما تدرك أنك تستطيع أن تقدم حلاً. إن (الفنان) هو الذى يتحدث فى المجلس، لأن الحديث أصعب من أى عمل آخر، ومن يفهمه يكتسب السلطة.

أن يكون المرء رئيسًا :

الحكمة الخامسة والعشرون

إذا كنت رجلاً قديرًا ،فاعمل على أن يخشاك الناس بسبب علمك وكلامك الهادئ، لا تأمر إلا لكى تقود. أن يكون (المرء) عنيفًا، يعنى الانسياق للشر، لا تكن متعاليًا، حتى لا تنحط، ولا تكن صموتًا، أو ترد بكلام حاد، أشح بوجهك وتمالك نفسك، ولكن تجنب الإساءة فلهيب مزاج - شديد - الاندفاع يمكن أن - يعصف - بالإنسان الطيب الذى سيساء هكذا إليه وتداس دروبه.

الإنسان ذو القلب المغموم طوال اليوم، لا يعرف سعادة، ولكن الإنسان ذا القلب غير المكترث لن يستطيع تأسيس بيت، من يرم السهام فلديه مخزون كبير، مثل من يدير السكان للرسو، بينما يمسك آخر بحبل المرساة، (ومثل) الذى يطيع قلبه (عقله) عندما يصدر الأوامر:

عن احترام العظماء:

الحكمة السادسة والعشرون

لا تقاوم سلطة عظيم، ولا تناوئ من كان حمله ثقيلاً، لأنه سيرتكب خطأ فى حق من يعاديه ولكنه سيحسن إلى من يحبه، من هو مع الإله له مدد من القوة وما يرغبه سيتحقق من أجله، هدئ إذن وجهك بعد العاصفة وسيحل السلام إلى جانب شخصك (واترك) العدوانية، قوة الإنسان هى التى تنمى الحب.

الحكمة السابعة والعشرون

علِّم الرجل العظيم ما يمكن أن يعود عليه بالنفع، وهيئه بذلك لأن يلقى ترحيبًا سعيدًا بين الناس واعمل على أن تؤدى حكمتك إلى نجاحك، لأن معاشك هو فى أن

تظل إلى جوار شخصه (وبالمثل) سيصبح جسد صاحب الحظوة راضيًا و(بالمثل) سيجد ظهرك الكسوة نتيجة لذلك، وستظلك لكى تمنح الحياة لبنيك، ستبقى إلى جوار رئيسك الذى تحبه، والذى يحيا من وراء ذلك، (وفى المقابل) سيكون (لك) عونًا حميدًا، ومن ثَم فإن السكينة والحب لك سيدومان فى أجساد أولئك الذين تحبهم، إنه لرجل ذلك الذى يحب الإنصات.

عن العدالة:

الحكمة الثامنة والعشرون

إذا كنت ابنًا لأحد القضاة، ورسولاً ينال إعجاب الجماهير، فحافظ على حياد العدالة ولا تكن منحازًا إلى طرف، تجنب أن يقول - شخص ما - بصدد قرارك: «أيها القضاة، إنه قد أدلى بحديث فيه محاباة»، عندئذ قد ينقلب عملك ضدك.

الحكمة التاسعة والعشرون

إذا كنت تسامحت فى قضية سابقة فملت لصالح رجل بسبب استقامته،فدعه وشأنه وانسه مادام قد بقى صامتًا بخصوصك فى اليوم الأول.

الحكمة الثلاثون

إذا أصبحت عظيمًا بعد أن كنت رقيق الحال، وإذا كنت قد حصلت على ممتلكات فى مدينة تعرفها، بعد أن عرفت الفاقة فيما مضى، فلا تندب حالك بسبب ما كنت عليه فى الماضى، كما لا تضع ثقة - كبيرة - فى ثروتك، فهذه الثروة التى واتتك منحة من الإله، ومن ثم فإنك لن توضع فى خلف رجل آخر مساوٍ لك ممن حدث له الشىء نفسه.

عن احترام السلم الوظيفى:

الحكمة الحادية والثلاثون

احن ظهرك فى حضرة من هو أعلى منك، رئيسك فى القصر الملكى، ومن هنا، سيدوم منزلك بثرواتك وسوف تكسب أجرك بشرف، فالذراع لن تبقى مشلولة، إنه أمر سيئ أن يقاوم المرء، فالمرء رئيسًا، يحيا طالما حافظ على مرونته.

لا تتسول على منزل الجيران، لا تضع يدك على أملاك قريب فهذه ليست بالأمور الطيبة لمن يرتكبها حتى لا يُشكى منك إلى أن ترتد الشكوى إلى مسامعك، إن

الاعتراض هو ميل سيئ جانب القلب ومن يمارسه سيصبح عدوًا، إذ إنه من المستهجن خلق القلاقل فى الجوار.

ضد الشذوذ الجنسى:

الحكمة الثانية والثلاثون

لا تزاوج حدثًا مخنثًا، لأنك تعلم أنك تعارض هذا الماء الذى على قلبه، ولن يستطيع أن يهدأ بسبب هذا الذى لا يزال فى جسده، لا تسمح له أن يقضى الليل فى ممارسة ما هو محرم، ومن ثَمَّ سيهدئ روعه بعد أن يكون قد أرضى شهوته بشكل وهمى.

عن الحصافة:

الحكمة الثالثة والثلاثون

إذا أردت اختبار طباع صديق فلا تطرح أسئلة، ولكن تقرب منه وابق وحدك فى صحبته بطريقة لا تجعله يعانى من ذلك وتحدث معه بعد فترة من الزمن، واختبر قلبه فى معرض تبادل(١١)، وإذا أقدم على فعلة أثارت استياءك فالزم الصمت أو ابق على ودك، ولكن لا تولِّ وجهك عنه، وكن حذرًا، إذا كشف لك مشكلة، وترد عليه بعمل عنيف، لا تنفصل عنه، لا تصرفه، وتجنب اتهامه، فلم يحن بعد زمنه ولكن أحدًا لا يفلت من قدرة.

عن الكرم:

الحكمة الرابعة والثلاثون

كن كريمًا ووديعًا طوال أيام حياتك، إن ما يخرج من الأهراء لا يعود إليه، والناس نهمون بشأن نصيبهم فى الخبز، من كان خاوى البطن - سرعان - ما يوجه الاتهامات وتتحول المعارضة إلى كراهية، لا تعمل على أن يكون فى بطانتك إنسان مماثل، إن الدماثة هى ما يتذكره الناس من المرء على مر السنين بعد أن يترك منصبه الرسمى.

عن الطبيعة الطيبة:

الحكمة الخامسة والثلاثون

اعرف الأقربين جيدًا بذلك تبقى ثروتك، ولا تكن سيئ الطبع مع أصدقائك، فهذا شاطئ مغمور بالمياه وأهم من الثروات، لأن ما يمتلكه أحدهم قد يمتلكه - فيما بعد - آخر، ولكن طبع ابن رجل كريم الأصل يجلب له الخير، إننا نتذكر الطبع الحميد.

عن ردع الشر:

الحكمة السادسة والثلاثون

عاقب عقابًا شديدًا وقوّم تقويمًا قاطعًا، وسيكون ردع الجريمة مثالاً على قوة الطبع ولكن مادام الأمر لا يتعلق بفعلة سيئة، فدع الشكوى تأتى من الخصم.

عن المرح النسائى:

الحكمة السابعة والثلاثون

إذا تزوجت امرأة وكانت مرحة ويعرفها جميع أهل مدينتها، وإذا كانت كل لحظة لها جاذبيتها بالنسبة لها، فلا تصدها وأطعمها جيدًا، لأن فرح القلب يسمح بتذوق...

خاتمة

عن الأب والابن:

إذا أنصتَّ إلى أقوالى، فسوف ترتفع مكانتك وتسمو وستدوم حقيقة هذه الأقوال، فهى ثروتها ولن تفارق ذكراها أفواه البشر لأن حكمها جميلة طيبة، وسوف تتواتر كل هذه الأقوال، ولن تَفْنَى أبدًا فى هذه البلاد. وستصبح من أرقى التعبيرات عن (الفكر) وعنها سيتحدث العظماء.

ذلك يعنى إذن تعليم الإنسان كيف يتحدث إلى الخَلف، فمن سينصت إليها فى بداية الأمر فسيصير فيما بعد شخصًا ينصت الناس إليه، ومن المستحسن التوجه بالكلام إلى الخَلف، و لأنهم سينصتون.

لو جاء مثال موفق ممن هو رئيس فسيظل مصدرًا خيرًا إلى الأبد، وستبقى حكمته بالكامل طوال الأبدية.

الإنسان صاحب المعرفة يغذى (با) عن طريق ما هو دائم ومن ثم تسير جميع الأمور على الأرض على ما يرام من أجله، فهو مشهور بفضل خبرته، (وبالمثل) ينبغى أن يكون العظيم مشهورًا بأفعاله الصالحة، وسوف يوزن قلبه ولسانه فى الوقت نفسه ومن ثم يتعين أن تكون شفتاه سيدتين عندما يتحدث، وينبغى على عينيه أن تشاهدا، كما ينبغى على أذنيه كلتيهما أن تنصتا إلى ما يمكن أن يفيد ابنه. الذى عليه أن يتقيد بالحقيقة والعدالة، وأن يكون بعيدًا عن الأكاذيب.

الإنصات مفيد لابن مطيع ينفذ واقع الإنصات إلى المستمع، ومن ثم يصبح المستمع إنسانًا مطيعًا، حسن أن ينصت المرء وحسن - بالمثل - أن يتحدث، يمتلك المستمع شيئًا مفيدًا: من المفيد فى واقع الأمر للمستمع أن ينصت، الإنصات أجمل ما فى الوجود وبسبب ذلك يمكن أن تولد مودة هنية.

كما أنه يطيب للابن أن يتلقى أقوال أبيه فسوف يصل - أيضًا - إلى الشيخوخة ومعه هذا الحمل.

من ينصت ويطيع فهو محبوب من الإله، والإنسان الذى يبغضه الإله هو إنسان غير مطيع، القلب هو الذى يصنع من صاحبه إنسانًا ينصت أو إنسانًا لا ينصت، فالقلب للإنسان هو الحياة - والصحة - والقوة. والمستمع هو ذلك الذى ينصت إلى كل ما يقال، والذى يحب الاستماع يحقق فيما بعد كل ما يقال.

كم هو جميل أن ينصت ابن إلى أبيه، وكم هو سعيد من يقال له ذلك «الابن لطيف لأنه يتحلى بالطاعة» ومن يقال عنه ذلك، سيزدهر بدنيًا، وستظل ذكراه على فم الأحياء، سواء أولئك الذين يقيمون الآن على الأرض أو أولئك الذين سيأتون فيما بعد.

إذا تلقى ابن رجل عزيز المنبت أقوالاً بصدر رحب فلن يتدهور عمل من أعماله، علم ابن الطاعة، حتى يتفوق وسط العظماء «فيقود فمه حسب ما قيل له وحتى ينظر إليه كرجل منضبط، هذا الابن ابن متفوق ومسيرته ستكون مرموقة، فى حين سيكون الفشل من نصيب من لا ينصت».

الإنسان صاحب المعرفة يستيقظ مبكرًا لدعم وضعه، فى حين أن الإنسان الفاقد الرشد ليس فى وسعه سوى الامتثال.

الأحمق الذى لا ينصت، لن يستطيع أن يفعل شيئًا لأن المعرفة والجهل فى نظره متساويان، وما هو مفيد مماثل لما هو ضار، إنه يأتى كل ما يدينه الناس من أفعال، حتى إنه يتعرض للوم يوميًا بسبب ذلك، إنه يعيش على ما يميت الناس فى المعتاد، فغذاؤه هو الكلام الآثم وطبعه يعرفه العظماء الذين يقولون: حياته تدمر كل يوم، ويمر الناس مر الكرام على أخطائه، بسبب كثرة المآسى التى تنهال عليه يوميًا.

الابن المطيع هو خادم (حورس) فكل شىء بالنسبة له يسير على ما يرام، بعد أن يكون قد أنصت.

عندما يبلغ (بدوره) سن الشيخوخة ويصبح (إيماخو) سوف يتحدث بالمثل إلى أولاده، مجددًا تعاليم أبيه، وكل شخص يعلم حسب ما تعلم ويتحدث إلى خلفه مثلما سيتحدث هؤلاء، ذات يوم فيما بعد إلى خلفهم.

اضرب المثل: لا تسمح بأن يسىء إليك أحد، دعم الحقيقة والعدالة، حتى يستطيع أبناؤك أن يحيوا.

ذلك الذى يسير وقد أعيته الملمات سيقول الناس إذا رأوه: هذا يتفق وطبعه، ومن يسمعونه سيقولون الشىء نفسه.

ضع كل الناس فى الاعتبار، وأرضِ عددًا كبيرًا من الرجال، فالثروة لا يمكن الحصول عليها بدونهم، ولا تنتقص من أى قول ولا تزد عليه، ولا تضع شيئًا مكان غيره. تجنب أن تحل الحبال التى فيك، تحاش (كثرة) الكلام، تعلم التعرف على الأشياء، أَنصت إذا رغبت أن تدوم على فم الناس، تكلم بعد أن تكون قد تمكنت من فن الكلام وتحدث عن الشئون ذات الأهمية الكبرى وحَسْب، ومن ثَم سيحتل كل قصد من مقاصدك مكانه السليم.

تحكم فى قلبك، راقب فمك ومن ثم سيكون مقامك وسط العظماء، كن دقيقًا كل الدقة لدى سيدك، اعمل بحيث يقال لك: إنه ابن هذا الرجل، ومن يستمعون إليه سيقولون: «هنيئًا له من جاء من أجله إلى الدنيا!!».

كن صبورًا مادمت تتحدث، وتفوه بأقوال نابهة، عندئذ سيقول العظماء الذين سيستمعون إليها: «كم هو جميل وطيب ما يخرجه من فمه!».

اعمل - أيضًا - بحيث يقول سيدك بشأنك: «كم هو كامل هذا الذى عمله أبوه، بعد أن خرج من صلبه، لقد قال له كل ما كان قد اكتسبه بالكامل - ولكن ما فعله أعظم بكثير مما قيل له».

تنبه، الابن الصالح هبة من الإله وعليه أن يعطى أكثر بكثير مما يطالبه به سيده، عليه إقامة العدل وهكذا يفعل قلبه حسب خطواته.

وهكذا تلقانى، نضر الجسد، فى حين أن الملك راضٍ عن كل هذه الأحداث، ليتها تطول سنوات حياتك المديدة «إن ما فعلته على الأرض ليس بالأمر الهين: لقد بلغت من

العمر ١١٠ سنوات منحنى الملك إياها، إن الحظوة التى تمتعت بها تفوق حظوة الأجداد لأننى أقمت العدالة من أجل الملك من خلال منصب (إيماخو).

★ ★ ★

تلك هى المقتطفات التى رأينا اقتطافها من مواعظ بتاح حوتب. وهى تقع فى ٤٣ لوحة كل واحدة منها تشتمل على عظة أو عظات، والقرطاس الذى وجدت فيه يعرف عند العلماء باسم (قرطاس بريس Papyra Prisse). ويذهب بعضهم إلى أنها وضعت فى عهد الأسرة الحادية عشرة أو الأسرة الثانية عشرة ثم نسبت إلى (بتاح حوتب)، لأن المصريين كانوا يحبون نسبة ما يصنعونه إلى القدماء، ورغبة فيما يضفيه عليه القدم من القوة.

والدليل الذى يستند إليه هؤلاء العلماء هو قولهم إن لغته وكتابته هما أشبه بعهد الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة منهما بعهد الأسرة الخامسة، ولكن لما كان هذا الفارق فى اللغة وفى كتابته ضعيفًا لم يأخذ العلماء الآخرون برأيهم، ولم يستبعدوا أن تكون المواعظ من وضع (بتاح حوتب). وقد أثبت برستد فى كتابه «فجر الضمير»، ص ١٢٩ أنها ترجع إلى عهد الدولة القديمة.

والوزير (بتاح حوتب) شخص أثبت الحفر وجوده، ودل على قبره فى سقارة، حيث قبور الأسرة الخامسة، فهو شخص تاريخى، ومواعظه هذه ترجع إلى نحو سنة ٢٧٠٠ ق.م أى إلى ٤٧٠٠ سنة مضت، أما مواعظ (كاجمنه) فيرجع وضعها إلى ٤٩٢٠ سنة مضت.

وقد يقرأ ابن اليوم هذه المواعظ فيراها عادية لا تستوقفه، ولكنه إذا استحضر فى ذهنه أنها لم توضع فى هذا العصر، ولا منذ قرن أو قرنين، بل وضعت منذ ما يقرب من خمسة آلاف سنة، حق له أن يرى فيها ما يستوقفه، وعرف لماذا قلنا - من قبل - إن المدنية المصرية التى عاشت أربعين قرنًا أو يزيد، إنما عاشت هذه القرون الطويلة لأنها قامت على أساس علمى وخلقى صحيح.

ففى ذلك العهد البعيد، عهد الأسرة الثالثة والأسرة الخامسة، كان المصريون يعرفون أدب النفس وأدب المجتمع، ويطلبون الكمال فيهما معًا، وكانوا يحضون على مكارم الأخلاق، من صدق، وأمانة، وعفة، ووفاء، وقناعة، ونزاهة، واستقامة، ورعاية

للمظلوم، وعطف على الصغير، واحترام للكبير، وحب للزوجة، وضبط لزمام النفس، وابتعاد عن الشراهة، واستماع لوصايا الحكماء، لأنهم كانوا يرون فى هذه الفضائل وأمثالها خير دعامة يقوم عليها المجتمع.

وهذا العهد البعيد هو بعينه العهد الذى كان المصريون يشيدون فيه أهرام سقارة وأهرام الجيزة، ويبلغون فيه الذروة فى فنون النحت والنقش والتصوير، فعملهم فى البناء والفنون كان يقوم إذن بجانب عمل آخر لهم وهو بناء الأخلاق، وكما بنوا الأهرام ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من الفنون على غير مثال اقتبسوه من سواهم، بنوا بناء الأخلاق على غير مثال اقتبسوه من سواهم، فكانوا فى ذلك كله مبتكرين.

قصيدة الأعمال والأيام

من أفضل الأشعار التعليمية الإغريقية

هسيودوس

(٧٥٠ ق.م)

دلل الكاتب (شادويك) وزوجته فى مؤلفهما الباهر الذى عنوانه: (نمو الأدب) أن الأدب القديم فى أمم عديدة لا يهتم بالأقصوصة والخرافة وحَسْب، بل يمتد كذلك إلى موضوعات أخرى. فالإلياذة والأوديسة هما المثالان البارزان للشعر الحماسى فى الأدب العالمى، ولكن أوائل الشعراء المتجولين اليونانيين كانوا ينشدون من حين إلى آخر فى موضوعات أخرى، غرضها التعليم أو ضرب الأمثال (الأقوال الحكيمة والألغاز) أو الكهانة (العرافة والإخبار بالغيب).

ولا غرابة فى ذلك، وإلا فما معنى وجود الشعراء المتجولين، ولم نجدهم فى جميع بقاع الأرض؟

والسبب بسيط وهو أن الناس تشوفوا دائمًا أن يكونوا على شىء من المعرفة، من نوع أو من آخر. ولم تكن أخبار الأفراد أو العائلات أو القبائل مما يملأ العين لدى أذكيائهم طويلاً، بل فى أن يشع أفقهم. ولم يستطيعوا إلا أن يسألوا أنفسهم أسئلة مثيرة كثيرة:

«لماذا يفعلون ما يفعلون؟».

«من أين أتوا وإلى أين هم صائرون؟».

«لماذا يحيون؟».

«لماذا يكون هذا العالم على ما هو عليه من الأحوال؟».

وهذه الأسئلة وأمثالها تولد الأساطير والكونيات، وهى كذلك تخلق العلوم. وتاريخ العلوم إن هو فى الأكثر إلا تاريخ الأجوبة المتلاحقة التى جاءت بها القرائح للرد على هذه الأسئلة.

واكتفى الناس فى تطلعهم إلى معرفة الوقائع التاريخية بالأساطير التى بعثت فيهم وعيًا بتراثهم وقوميتهم وعلمهم بمقومات الإنسانية وشرفهم. وهذا حسن لولا أنه ترك

أسئلة مهمة كثيرة دون إجابة، لا الأسئلة العويصة التى أشرنا إليها فيما سبق وحَسْب، بل أسئلة أكثر سهولة وبساطة وأكثر ارتباطًا بالحياة العملية والحاجة. مثل ذلك أن حاجة الزراع إلى المعلومات الخاصة بالزراعة متعددة النواحى، وهذا القول نفسه منطبق على التجار والصناع. ثم إن الناس جميعًا فى حاجة إلى هداية خلقية واجتماعية مثلما يأتى إليهم عن طريق الأمثال السائرة، فكل مثل سائر قطعة من حكمة شعبية بالغة المستوى معروفة الأصل ثابتة الصلاحية للذيوع والانتشار، مثال ذلك قولنا: «من زرع شرًا حصد شرًا أكبر» فهذا قول سهل الحفظ والوعى، ولاسيما إذا جاء فى عبارة موزونة أو صيغة مسجوعة قافيتها، أو متماثلة حروفها الأولى، وأيضًا، سهل الترديد فإذا ساقه قائل على سبيل الحكمة فى دائرة أسرته أو فى السوق العامة، حظى بقسط شخصى من الثناء على حكمة قبيلته كلها «فهو يستحق هذا الثناء لأنه يساعد على حفظ تلك الحكمة وعلى تعليمها».

وارتبط أحسن الأشعار التعليمية اليونانية باسم هسيودوس الذى عاش بعد هوميروس بزمن قليل، ولعل هذا هو سبب وضوح شخصيته أكثر من شخصية سلفه.

وهسيودوس أول شاعر يونانى استعمل ضمير المتكلم، وأفصح عن عزمه تبليغ رسالة شخصية: وهى «أن يُخبر عن الأشياء الحقيقية»، وهسيودوس مثل سلفه هوميروس أصله من الساحل الأسيوى، مع احتمال أن هوميروس من أبناء أيونيا، على حين أن والد هسيودوس سكن مدينة كومى وهى ميناء فى أيوليس إلى الشمال من أيونيا، ثم حمل الفقر والده على أن يرحل عن كومى، وأن يبحث عن حظه فى بلد آخر، فعبر البحر الإيجى واستقر فى مدينة أسكرا من أعمال بيوتيا على ساحل بلاد اليونان نفسها. ومن المحتمل أن ابنيه: هسيودوس وبرسيس ولدا فى هذا الموطن الجديد، حيث لا ريب كانت نشأتها. واشتغل الأخوان كأبيهما بالزراعة، لكن شاءت الأقدار أن تختار لهما غير ذلك، إذ غدا برسيس لكعًا لا خير فيه، على حين لم يقنع هسيودوس بعمله فى الزراعة، بل عكف على نظم الأشعار والإنشاد والوعظ استجابة لنداء الفن. وفى أواخر حياته رحل هسيودوس إلى بلده أوينوى فى إقليم لوكريس، حيث مات قتيلاً.

ومن الواضح أن لا مجال للشك فى شخصية الشاعر هسيودوس، ونستطيع أن نفترض أنه عاش بعد هوميروس الثانى بزمن قليل، أعنى حول نهاية القرن الثامن، وأنه من أهل بيوتيا، ولعل هذا هو سر الفجاجة التى نقابلها فى بعض شعره بالقياس إلى

شعر هوميروس، والقصيدتان الأساسيتان اللتان تنسبان إليه والباقيتان إلى وقتنا هذا أعنى (الأعمال والأيام) و(أصل الآلهة) مقالان ممتازان فى بابهما، ولكن ينبغى أن نلحظ أن كلتيهما قصيرة نسبيًا: ٨٢٨ بيتًا و١٠٢٢ بيتًا. ولا غرابة فى ذلك، فالشعر الذى يستهدف التعليم وضرب الأمثال لا مجال فيه للإطالة والاستطراد، وهو ما اتسع له أسلوب الإلياذة القصصى، ذلك أن القُصاص يدركون تمام الإدراك أن المستمعين يتوقون إلى الإسهاب فى القصص مثال ذلك وصف المعارك والولائم، وإلى الترديد المثير، إنهم يحبون أن تمتد الحكايات الدرامية امتدادًا مثيرًا لمستزيد، وعلى العكس من ذلك أهل الزراعة الذين يريدون النصيحة الموجزة، فتكون الأمثال التى يتراءى فيها أدبهم الشعبى مختصرة نافعة.

قصيدة الأعمال والأيام

تنقسم قصيدة الأعمال والأيام التى ألفها هسيودوس إلى أربعة أقسام:

١ ـ عظة لأخيه الأصغر برسيس.

٢ ـ مجموعة من القواعد الزراعية والملاحية.

٣ ـ مبادئ أخلاقية ودينية.

٤ ـ تقويم الأيام السعيدة والمشئومة.

ويحتوى القسم الأول من هذه الأقسام على قصص رمزية وحكايات تشرح أحوال الناس، وقيم الطيبة القلبية، وفى الحكاية الأولى من هذه القصص الرمزية قارن هسيودوس بين المتنافس النافع وبين المتناحر الصاخب. وتأتى بعدها قصة (باندورا) التى تبين أصل الشر، وأنه لافرار من الكدح والعمل، كما توضح حكاية الصقر والبلبل شرور القسوة والظلم. وأكثر ما يسترعى انتباهنا من هذه القصص كلها قصة العصور الخمسة للعالم، وهى: عصر الذهب أى السلام والكمال، وعصر الفضة وهو أقل من عصر الذهب صفاء ونبلاً، وعصر البرونز وهو العصر الرابع الذى يشير على ما يظهر إلى النهضة المينوية التى ألهمت ذكراها المجيد أشعار هوميروس، وأخيرًا عصر الحديد، وهو العصر الحالى، عصر الحزن والبغضاء والتناحر. ويبدو من ذلك أن هسيودوس عاش فى عصر يشبه عصرنا الحاضر، إذ تأمل المفكرون ألوان الدمار والشقاء والفوضى التى تعقب الحروب والانحطاط الخلقى، ومالوا فى كثير من خيبة

الأمل إلى القول: «إن الدنيا تصير كل يوم من سيئ إلى أسوأ، وإنها تسعى حتمًا إلى نهاية». وهذا النوع من التشاؤم الاجتماعى يطن فى آذاننا كأنه من مظاهر عصرنا الحاضر، على أن أشباهًا مقارنة لهذا النوع حدثت فى أزمنة أكثر قدمًا، مثل أزمنة النشيد السوميرى، فالفكرة القائلة إن كل شىء ينحدر من سيئ إلى أسوأ وإن «العالم صائر إلى الشيطان» متواترة فى كل الأزمنة، أو بالأحرى هى فكرة لابد أن تعود إلى الظهور كلما اضطرب الميزان الاجتماعى اضطرابًا عنيفًا بسبب الحروب أو الثورات أو النوازل الأخرى. وتنطبع هذه الفكرة فى ذهن رجل يسير جسمه وعقله تدريجيًا إلى الانحلال أو ينقصه الصبر على التحرر التدريجى والعناد (الظاهر أو الخفى) الذى يمشى عليه الجيل الجديد، وذلك بغض النظر عن وقوع الحروب أو الثورات.

ومن الواضح أن هسيودوس نظم قصيدته هذه بسبب عدم انقياد أخيه وجهله، وأنه أراد بها أن يثقفه، وأن يخجله كى يسير فى طريق الأخلاق الحميدة، وأن يرفع من روحه المعنوية. ومن المحتمل أن جهوده ذهبت عبثًا.

فالجزء الأول من قصيدته ميثولوجية[1]، الغرض منها أن يبعث فى قلب برسيس حب التقاليد، والرغبة فى العدالة، وأن يعمل كأى إنسان.

أما الأجزاء الأخرى فلا تحتاج إلى شرح طويل فقواعد الفلاحة والملاحة قراءتها أسهل من تحليلها.

ويمكن تلخيص قصيدة الأعمال والأيام على النهج التالى:

١ - ١٠ :

ابتهال إلى ربات الفن أن ينشدن مديح زيوس، وتوسل إلى زيوس[2] أن يستمع إلى الشاعر وأن يمنحه الإنصاف، وإعلام لأخيه بأنه سيحدثه حديثًا صادقًا.

١٠ - ٤١ :

أى برسيس، هناك نوعان من النزاع، لا نوع واحد: هناك نزاع محمود يحفز المرء إلى الكد والعمل ومناقشة قرنائه، وهناك نزاع كريه يدفع إلى الحرب وإلى الدمار.

ابتعد عن دور القضاء، وتذكر ما اغتصب منى وما قدمت من رشوة إلى ملوكنا الذين لا يحكمون بين الناس بالعدل. وهم لجهلهم لا يعرفون أن النصف أكبر من الكل، ولا يدركون الفوائد التى توجد فى طعام الفقير.

٤٢ ـ ١٠٥ :

لقد أخفى الآلهة عن الناس ما يقيم أودهم، وإلا لجمع المرء فى يوم واحد ما يكفيه سنة كاملة، ولكن زيوس أسر الغضب على بروميثوس[٣] الذى خدعه، ولذلك أرسل على البشر الآلام والأحزان.

كان زيوس قد أخفى النار عن الناس، ولكن بروميثوس تمكن من سرقتها. ولما أحس زيوس بذلك خاطب بروميثوس قائلاً:

يا بن (بابيتاس)، يا أمكر الجميع، إنك ولا ريب مسرور لأنك تمكنت من خديعتى وسرقة النار، ولكنها ستكون وبالاً عليك أنت نفسك وعلى البشر. وسأرسل إلى البشر عوضًا عن النار بلاء يملأ صدورهم.

وهم يضمرون شرًا إلى هذه الصدور.

ثم أمر زيوس أن يصنع (هيفايستوس) إله النار امرأة، وطلب من كل إله أن يمنحها مَلَكة من لدنه، وأرسلها إلى (أبيميثوس) أخى (بروميثوس) فتقبلها. وفتحت (باندورا) إناء أحضرته معها فخرجت جميع الشرور التى انتشرت فى العالم؛ ولكنها أعادت الغطاء قبل أن يخرج الأمل.

فالأرض مليئة بالشر وكذا البحر.

والأمراض لا تفتأ تفتك بالناس.

ليلاً ونهارًا وفى صمت، لأن زيوس،

بحكمته، انتزع منها القدرة على الكلام.

ولهذا فلا سبيل إلى الفرار من إرادة زيوس.

١٠٦ ـ ٢٠١ :

لقد مر على العالم خمسة عصور. أولها عصر الذهب، وكان الناس يعيشون فيه بلا كد أو ألم، لا تدركهم الشيخوخة ويأتيهم الموت كالنعاس. فلما قضوا نحبهم، جعل منهم (زيوس) أرواحًا خيرة تجوب الآفاق وتحافظ على البشر وتمنحهم الثراء. ثم تلاه العصر الفضى: وكان الناس فيه لا يعرفون التقوى أو العدالة. فأهلكهم (زيوس)، ولكنه جعل منهم أرواحًا تسكن باطن الأرض ويقدم لها التكريم وتحظى بالإجلال. وأما العصر

الثالث، فقد كان عصر البرونز، وهو عصر نزاع وشقاق، أهلك الناس فيه بعضهم بعضًا بأسلحتهم البرونزية، فلم يكونوا يعرفون الحديد وبعد أن غطتهم الأرض، خلق (زيوس) عصر الأبطال وأنصاف الآلهة. وقد هلك منهم خلق كثير، وهم يقاتلون فى حرب طيبة من أجل قطعان أوديب، وفى حرب طروادة. وبعد موتهم ذهبوا إلى جزائر الأخيار فى أقصى العالم. ونحن الآن فى العصر الخامس، عصر الحديد. وكل شىء فيه سيئ وسيصير إلى أسوأ.

«ليتنى مت قبل هذا أو لم أولد بعد!»

فلن يسود وئام بين أب وأبنائه، ولا بين الأبناء وأبيهم، ولا بين الضيف ومضيفه، ولا بين الرفيق ورفيقه، ولن يكون هناك أخ عزيز عند أخيه، كما كان آنفًا. وإذا بلغ الكبر أحد عند أبيه، نهره الابن ووبخه بألفاظ قاسية، ناسيًا ما أنفق والده من جهد ومال فى تربيته وإطعامه. ولن يعترف أحد بفضل من يبر يمينه، ولا للرجل العادل أو الطيب. وسيمتدح الناس الشر وأفعاله وسيهجر الحياء هذا العالم. ولن يبقى للبشر غير الأحزان المروعة.

٢٠٢ - ٢١٢ :

وسأقص على أمرائنا قصة الصقر والعندليب:

انقض صقر يومًا على العندليب، وأنشب فيه مخالبه، وارتفع به إلى الطبقات العليا من الجو والعندليب يصرخ من شدة الألم. وعندئذ التفت الصقر إليه وخاطبه بازدراء قائلاً: أيها الجاهل، لم العويل؟ إنك فى قبضة من هو أقوى منك، سآخذك إلى حيث أريد رغم أنك طائر صداح. سآكلك إن رغبت. وإن شئت تركتك. إن من الجنون محاربة من هو أقوى منك. إذ ينالك عندئذ عاران: ألم الهزيمة وعار الاندحار.

٢١٣ - ٢٤٧ :

أى (برسيس)، اتبع العدل، واهجر التعدى. فالتقوى شر وبيل على الرجل الفقير، أما الغنى فلن تستطيع فى النهاية احتمال عاقبته. فالسماء تبعث الرخاء إلى الأخيار، أما الظالمون فلهم ولمدنهم الخراب والدمار. فالعدالة تحرز السبق فى النهاية. والقسم يسير بإزاء الحكم الظالم. فإذا حكم القضاة بالعدل على القريب، عم الرخاء وانتشر السلام فى البلاد وأبعد عنها (زيوس) الحروب والمجاعات وفاضت الأرض بالخيرات وأعطت

أشجار البلوط على سفوح الجبال ثمارها غذاء للحيوان. وقد أنزل (زيوس) العذاب ببلدة كاملة من أجل فرد واحد.

٢٤٨ - ٢٧٤ :

أيها الأمراء، الحذر، الحذر! فالآلهة ترى جميع من يظلم البشر ويحكم بغير الحق ولا يخشى الآلهة. ولزيوس ألوف من الأرواح ترصد أعمال الناس فى أطراف المعمورة، والعدالة ابنة زيوس تشكو إلى أبيها قلوب البشر العاتية، حتى يدفع الأهلون ثمن ما ارتكب أمراؤهم من آثام.

إن من يرتكب إثمًا ضد إنسان ما يرتكب إثمًا ضد نفسه.

الرأى السيئ يحيق بصاحبه أكثر من غيره.

وغريب حقًا أن نجد مثل هذا الرأى فى قصيدة ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، وقد يمكن القول إن (هسيودوس) يبنى رأيه هذا عن العدالة الإلهية التى تمحق الظالم مصداقًا لقول الشاعر العربى:

والبغى يصرع أهله　　　والظلم مرتعه وخيم

أما نظرية (سقراط) فى القول بعدم الاعتداء وعدم رد الاعتداء، فأساسها أن الفرد الذى يلحق المعتدى أشد وبالاً من الفرد الذى يلحق المعتدى عليه. كما أن من المسلم به عند (سقراط) وأصحابه أن من المحال أن يستطيع شرير أن يؤذى أحدًا من الأخيار. وعندما ظهر هذا الرأى عند المسيحيين انطوى طبعًا تحت فضيلتى الحلم والتواضع.

٢٧٥ - ٢٨٥ :

أى (برسيس)، اتبع العدالة ولا تفكر فى العنف، فقد فضل (زيوس) الشر على السمك والحيوان والطيور بالعدالة. وزيوس هو الذى يثبت من يتبع العدل ومن هو على استعداد لقول الحق. أما من يشهدون الزور فى إيمانهم فإثمهم كبير وسيلقى بأبنائهم وأحفادهم وسلالتهم فى زوايا الخمول.

٢٨٦ - ٣٨- :

أى (برسيس)، أيها الجاهل، سأقول لك قولاً رشيدًا: إن الشر يسير قريبًا منا والطريق إليه سهل، ولكن الآلهة أقاموا بيننا وبين الفضيلة سدًا من عرق الجبين. والطريق إليها وعر منحدر. فإذا بلغ المرء القمة وجدها قريبة المنال.

إن شر الناس من لا يستمع إلى نصيحة غيره أو يدبر أموره بنفسه. ولكن تذكر، يابرسيس يا سليل الآلهة، نصيحتى واعمل، فإذا عملت كرهك الجوع وأحبتك ديميتر[٤]، وملأت دارك بالطعام. فالجوع رفيق البطالة. والبطالة بغيضة إلى الآلهة والناس. فالعمل شرف. والبطالة عار. والبطال، كذكر النحل يأكل ولا يعمل. والعمل مصدر الثراء. والثراء أساس المجد والشهرة. ومهما كان حظك فى الحياة، فعليك بالعمل. فهو أفضل لك، إن الحياء العاذب رفيق الفقراء، والحياء منه الضار ومنه النافع. فالحياء العاذب رفيق العوز، والثقة بالنفس تلازم الغنى. ولكن ينبغى ألا يغتصب الثراء. فكل مال أُخذ عنوة أو خداعًا فإلى زوال. إن زيوس حقًا يغضب على من يؤذى الضيف والمستجير، ومن يتسلل إلى فراش أخيه ليرتكب جريمة بشعة مع زوجه، ومن يقترف ذنبًا دون مبرر ضد اليتامى، ومن يعتدى على أبيه الذى أدركته الشيخوخة ويسبه بألفاظ قاسية. ابتعد عن هذه الأشياء، وبقدر استطاعتك، قدم الأضحيات للآلهة فى نظافة وطهارة، واحرق لهم لحمًا جيدًا، وفى أوقات أخرى احرق لهم البخور وصب لهم القرابين فى الصباح والمساء لترضى الآلهة عنك وحتى تشترى حقل غيرك، ولا يشترى غيرك حقلك.

ادع صديقك إلى الوليمة، ودع عدوك وشأنه، وخص بالدعوة جارك. فإن حدث شى فإن جارك يوافيك قبل أن يلبس حزامه، أما أصهارك الذين يقيمون بعيدًا عنك فلن يفعلوا ذلك. جار السوء شر مستطير، كما أن الجار الطيب نعمة كبرى. ولن ينفق لك ثور إلا إذا كان جارك شريرًا. أوف الكيل إذا كال عليك جارك، ووفه إن كلت له أو زده. فإن احتجت إليه مرة أخرى وجدته وفيًا.

إياك والكسب الدنىء، فالكسب الدنىء هو الدمار. صادق من يصادقك وزر من يزورك. وأعط من يعطى، ولا تعط من لا يعطى. فالمرء يعطى الكريم ويمنع البخيل. والإعطاء حسن والأخذ ردىء. ومن يعط راضيًا، ولو أعطى الكثير، ينشرح صدره ويسر فؤاده. أما من ينفق فى اللهو ويأخذ لنفسه ولو شيئًا يسيرًا فإن قلبه يتجمد. وكل من يضيف إلى ماله يدفع عن نفسه غائلة الجوع: فلو أضفت القليل إلى القليل، وفعلت ذلك مرارًا، لأصبح ذلك القليل كثيرًا.

لن يضرك ما وجد بدارك. والأفضل أن تحتفظ بمالك فى بيتك. فكل ما كان خارج الدار قد يئول إلى ضياع. ومن الحسن أن يجد المرء ما يريد. ومن المحزن أن يطلب المرء شيئًا فلا يجده..

اشرب حتى ترتوى من النبيذ عند فتح الجرار، وعندما تقترب من النهاية، واقتصد فيما بين ذلك، فليس من الاقتصاد ادخار الثمالة.

ليكن الأجر الذى تمد صديقك ممدودًا. واطلب بابتسامة شاهدًا حتى من أخيك. فالثقة وعدم الثقة كلاهما يجران إلى الخراب.

لا تدع امرأة أنيقة تداهنك وتخادعك، فهى ترنو إلى جرنك، ومن يركن إلى النساء، يثق فى مخادعاتهن.

وليكن لك ولد وحيد ميُول أهل بيتك. وبهذا تزداد ثروتك. ولكن إن كان لك ابن ثان فالأفضل أن تعمر طويلاً. ومع ذلك فقد يمنح زيوس مالاً وفيرًا لعدد كبير. وكثرة الأيدى العاملة تنمى الثروة.

٣٨١ - ٧٦٤ :

فإن تاق قلبك إلى الغنَى، فاعمل على النهج التالى، وأضف عملاً إلى عمل:

ابدأ حصادك عند طلوع الثريا. واحرث عند غيابها. وشمر عن ساعد الجد إذا بذرت أو حرثت أو حصدت. فربما اتفق لك فيما بعد أن تقع فى الفاقة وأن تذهب إلى دور الناس تسألهم الصدقة دون جدوى، كما جئت فيما مضى إلىّ. ولكنى لن أعطيك شيئًا بعد ذلك. ولكن أكيل لك. أيها الجاهل، أىْ برسيس، اعمل فالكد فرض على الناس كافة لئلا تبحث، والألم المرير يملأ قلبك أنت وزوجك وأطفالك عن معاشك بين جيرانك وهم لا يعيرونك التفاتًا. قد تنجح مرتين أو ثلاثًا. ولكن إن أصبحت متعبًا، فلن تحظى بشىء وسيذهب حديثك وتلاعبك بالألفاظ سدى.

اقتن داراً وامرأة وثورًا للحرث. ولتكن المرأة أمة لا زوجة، حتى تسير وراء الثيران - أيضًا - وجهز كل شىء فى دارك لئلا تطلب من أحد فيمنعك، فيضيع وقتك هباء، لا تؤجل عمل اليوم إلى غد أو بعد غد. فالجد والاجتهاد يجعلان العمل يسير سيرًا حسنًا. أما من يؤجل عمله، فهو دائمًا فى نضال مع الدمار.

اقطع ما تريد من الأخشاب بعد منتصف الصيف. فهذه الأخشاب تستطيع مقاومة السوس. واصنع منها ما تريد من أدوات.

ويضيف بعد ذلك هسيودوس وصفًا للفصول المختلفة ويعطى نصائح تناسب كل فصل منها.

ثم يفيض فى وصف وليمة صغيرة فى حر الصيف مستظلاً بصخرة يتفجر بالقرب منها ينبوع ويهب عليها نسيم عليل. هنالك يحلو الشراب ويستطاب أكل لحم البقر والماعز.

ثم يعطى شاعرنا نصائح عن استعمال السفن والسفر فى البحار. ويشير إلى هجرة أبيه بحرًا من كومى الأيولية لا هربًا من الغنى، ولكن فرارًا من الفقر واستقر بالقرب من جبل (هيليكون) فى قرية بائسة هى (أسكرا)، ذات الشتاء القارس، والحر اللافح الرطب والتى لا يطيب هواؤها فى أى وقت، ويذكر الشاعر أنه هو نفسه غير خبير بالبحار وأنه أبحر مرة واحدة من (أوليس) التى مكثت فيها سفن الأخايين مدة طويلة بسبب العواصف الكثيرة قبل أن تتمكن من الإبحار إلى طروادة. وفى تلك المرة ذهب الشاعر إلى خالقيس، إلى الألعاب التى أُقيمت تكريمًا لذكرى البطل (أمفيداماس). ويفخر شاعرنا أنه اشترك فى المباريات الشعرية، وأنه حظى بالجائزة التى أهداها إلى ربات الفن فى هيليكون.

ويستمر هسيودوس فى نصائحه..

تزوج إذا اقتربت سنك من الثلاثين، فهذا أفضل سن للزواج، واختر زوجًا مضى على بلوغها أربع سنوات، وابن بها فى الخامسة. وتزوج بكرًا لتستطيع تلقينها الأخلاق القويمة. ولتكن ممن يقمن بالقرب منك. أحسن الاختيار وإلا أصبح زواجك سخرية جيرانك. فلن يحظى الإنسان بشىء أثمن من الزوجة الطيبة، ولن يحظى بشىء أسوأ من الزوجة الشريرة، تلك الزوجة الجشعة التى تشوى قرينها دون نار وتدفع به دفعًا إلى الشيخوخة المبكرة.

احذر غضب الآلهة. ولا تسوِّ بين صديقك وأخيك. فإن فعلت فلا تبدأه بالأذى. ولكن إن مسك منه أذى أولاً، فتذكر أن تصب عليه ضعف ما أنزل بك. فإن أناب وطلب العفو فاصفح عنه، فلا ضرر فى أن يكون للمرء صديق جديد كل يوم.

لا تكن جوَّادًا. ولا تكن شحيحًا. ولا تصادق الأشرار أو تسب الأخيار. ولا تعيرن أحدًا بفقره، فالآلهة تبسط الرزق وتقدر. وأحسن ذخر المرء لسان عف. وأعظم كنز لديه لسان لا ينطق عن الهوى. لا تكن فظًا فى وليمة عامة، اشترك فيها خلق كثير، فالاستمتاع فيها أعظم، والنفقة أقل.

لا تقرب قربانًا قبل الفجر إلى زيوس أو إلى بقية الآلهة قبل أنَ تغسل يديك، وإلا لم ينصتوا إلى دعائك.

ثم يمضى هسيودوس فى نصائحه، فيحذر من إنجاب أطفال بعد الرجوع من الجنائز، كما يمنع الخوض فى الماء الجارى قبل غسل الأيدى والتوجه إلى الآلهة بالدعاء، كما يحذر من تقليم الأظافر فى أيام العيد، أو وضع الملعقة على إناء مزج به النبيذ فى حفل ما، فإن ذلك يجلب الحظ السيئ، كما يحذر من جلوس الصبى إذا بلغ الثانية عشرة على المقابر وما يشبهها. فهذا يفقده رجولته، كما يمنع من وضع الطفل إذا بلغ اثنى عشر شهرًا على هذه الأشياء للسبب نفسه.

٧٦٥ ـ ٢٩٨ :

ثم يفيض هسيودوس فى ذكر الأيام السعيدة وأيام النحس متبعًا فى ذلك الشهور القمرية. ومعرفة هذه الأيام السعيدة والتحرر من الأيام المشئومة أمر ضرورى لمن يريد أن يوفق فى عمله فلا يقوم فى يوم نحس بعمل يرجو من ورائه خيرًا. ولما كان الدين أساس المجتمع وكانت هذه الخزعبلات قد ارتبطت بالدين، كان لمعرفة هذه الأيام أهمية كبرى. وقد اشتهر الفراعنة بملاحظة هذه الأيام، وأقدم تقويم فرعونى وصل إلينا فى بردية (ساليبه) يحوى قائمة بهذه الأيام السعيدة والمشئومة، وقد مُيز كل منها بعلامة خاصة. ولا زلنا نرزح تحت عبء أمثال هذه الخرافات، ولا زالت التقاويم الحديثة تحمل آثار الماضى السحيق.

يُشتمّ من النصائح التى يعطيها هسيودوس رائحة القرية والبعد عن المدن، وقواعده الأخلاقية محدودة ضيقة ليس بها متسع للرحمة والعطف على الضعيف والفقير. وهو يكره الاعتداء، ولكنه يحبذ الإسراف فى رد الاعتداء. ولا يؤمن كما آمن سقراط بأن رد الاعتداء اعتداء. ولكنه لا يفتأ يلح فى إثبات وجود عدل إلهى. فزيوس يرى ويسمع وقد بث العيون والأرصاد. والعدالة وإن سارت ببطء فإنها تحرز قصب السبق فى النهاية. وقد اصطبغت نظرته بالتشاؤم، وهذا يؤيد وقوع الشاعر تحت ظلم رهيب. أما نظرة هسيودوس ومدرسته إلى النساء، فأشد قسوة مما نجد فى الشعر الحماسى. فالمرأة فى نظره أساس الشر.

وبالجملة، فكل شىء فى عصر هسيودوس سيئ يسير إلى أسوأ. أما العلاج الذى يرتئيه فهو أن يقوم كل امرئ بواجبه، وأن يمتنع القضاة والحكام عن التهام الرشوة

ليسود العدل ويحظى الناس برضاء الآلهة. وبهذا يعم الخير وينتشر السلام. فهو لا يدعو إلى تغيير الأوضاع القائمة، وإنما إلى العودة إلى الفضائل القديمة.

أثر هسيودوس

كان لهسيودوس أثر كبير جدًا على من أتى بعده، ولا سيما من كتب فى الدين أو فى الزراعة. وقد أخذ عنه فرجيل الشىء الكثير. ولكن فرجيل يمكن أن يجعل من زراعياته «أحسن شعر لأعظم شاعر» بأن نفث فى شعره روحًا أحيت موات الأرض وكست حيواناته وطيوره وحشراته شخصية المخلوقات التى تحس وتشعر وتتألم وتفكر. ولا يختلف تصوير فرجيل لمملكة النحل عن تصوير شوقى لها فى قصيده:

مملكـة مدبـــرة   بامــرأة مشمــرة

بل ربما كان فرجيل أشد إغراقًا ومبالغة. وبهذه الوسيلة أنقذ فرجيل زراعياته من الحكم العام الذى أصدره أرسطو ضد الشعر التعليمى وقصائد هسيودوس بأنها نظم لا شعر..

دستور الفضيلة

المدرسة التى كانت وحيًا وإلهامًا
للفن الصينى، والتى زودت الشعب
الصينى بالفضائل على مَرِّ الأحقاب

لاو ـ تـزى

(٥٧٠ ق.م)

الصين أمة عريقة فى التاريخ غنية فى مظاهر الرقى الإنسانى، حضارتها موغلة فى القدم باقية على الزمان، شهدت ميلاد حضارات كبرى ظهرت بعدها، وشهدت انحلالها - أيضًا، وبداياتها الأولى ترجع إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، وهى فى صميمها ذات روح ومثل عُليا إنسانية بالمعنى العام، وأخلاقية اجتماعية بوجه خاص، مع عناية فائقة بالفنون والصناعات التى تحتاج إلى دقة وذوق.

وقد عرفت بلاد الصين منذ القدم أصول الحكم وقواعد السياسة وتدبير أمور البشر، كما عرفت تقلب الأحوال، من تعاقب الأسر الحاكمة وتتابع مختلف الملوك، وتغير النظم، لكن روحها وآدابها وأخلاقها القومية كانت أكبر عامل فى احتفاظها بشخصيتها، رغم ما كان يعرض لها من ظروف التعسف أو الفوضى أو انقلاب نظم الحياة، وقد بقى فى ضمير أجيالها ومفكريها من أخبار الملوك الفضلاء، ذوى الحكمة والسيرة الطيبة ما يجعلهم علامة على عصور سعيدة وقدوة حسنة ومُثلاً عُليا يقاس عليها.

ونالت أمة الصين تقدير مؤرخى الحضارة والعلماء بأحوال الأمم، قديمًا وحديثًا، فيصفهم صاعد الأندلسى، على بعد بلاده من بلادهم، بأنهم «أكثر الأمم عددًا، وأفخمها ملكًا، وأوسعها دارًا» هو يذكرهم بين الأمم التى لم يكن لها عناية بالعلوم - ومقصوده ما كان عند اليونان أو العرب مثلاً، ولكنه يقول: «وحظهم من المعرفة التى بزوا فيها سائر الأمم إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن التصويرية، فهم أصبر الناس على مطاولة التعب فى تجويد الأعمال ومقاساة النَّصَب فى تحسين الصنائع» هذا حكم صائب تدل عليه الشواهد من كلام العلماء بعد صاعد، ومن العناصر الباقية للحضارة ومن الباحثين الغربيين الذين درسوا الصين وحضارتها وخصوصًا منذ القرن الثامن عشر، ووجدوا فى ذلك ما جعلهم يعبرون عن تقديرهم العظيم لأمة الصين ورُقِيها فى

روح الفكر والسياسة والفنون حتى قال المفكر الفرنسى (ڤولتير) عن نظام الإمبراطورية الصينية إنه «خير ما شهده العالم من نظم»، وحتى أشاد (الكونت كيسرلينج) بالصين القديمة وأنها «أخرجت أكمل صورة من صور الإنسانية».. وأن عظماءها «طراز سامٍ من البشر»، وأن الرجل الصينى «أعمق رجل فى العالم» على الإطلاق.

صراع النور والظلمة

وأصول الفكر الصينى، شأن أصول الصين ذاتها، متوارية فى غابر الزمان والمكان ولكن لفكرها ملامح الاستقلال، وهو فكر متعدد الجوانب والاتجاهات وله ملامح دينية.

وفى ذلك الفكر منذ مراحله الأولى، تصورات للكون والكلام عن قوتين تتصارعان فيه، هما «يانج» و «ين» أو النور والظلمة، وفيه آراء حول الحاكم والفضائل التى يتحلى بها ونصوص خاصة بالطقوس والشعائر.

وأهم من ذلك فى حياة الصين فلسفتها العلمية ذات الصبغة الأخلاقية وما اشتملت عليه من نظرة للإنسان والفضائل الإنسانية ومن أصول لسياسة المجتمع وتنظيم العلاقات الاجتماعية. وليس هناك ما يدل على أن أصول هذه الفلسفة العملية جاءت نتيجة تحليل عقلى للمشكلات أو نتيجة نظر علمى فلسفى، كما عند اليونان مثلاً، إنما جاءت ثمرة حَدْس سليم وأحاسيس إنسانية طبيعية وتراث طويل من التجربة العملية والاجتهاد فى الفضائل الإنسانية فى ظل قدوة حسنة كاملة كان الراعى أكبر من يمثلها أمام رعيته.

وأكبر من يمثل الفكر الصينى المأثور هو كونفوشيوس الذى عاش بين ٥٥١ ـ ٤٧٩ ق. م، ولاو ـ تزى الذى عاش بين ٦٠٤ ـ ٥١٧ ق. م.

وقد تناولنا حكمة وآراء كونفوشيوس من خلال كتبه الخمسة فى الجزء الأول من موسوعتنا «كتب غيرت الفكر الإنسانى»[1].

فكرة «الطريق» لاو ـ تزى

غالبًا ما كان ينظر إلى حكماء أمثال «لاو ـ تزى» و «كونفوشيوس» على أنهم قد علموا الناس طريقًا جديدًا للحياة.. وليس ذلك هو كيفية إدراكهم لرسالتهم الشخصية، فعملهم ـ عمل «النبى» كما وصلنا إلى فهمه خلال هذا الكتاب كان العودة بأناس إلى

الحكمة القديمة و «كونفوشيوس» بصورة خاصة، فيما يتصل بآرائه، ولم يدع أنها تحمل أى ابتكار. لقد أعرب عن أسفه فقط أنه نتيجة للإهمال والجهل صار الكثير من الطقوس الدينية فى حالة عدم استعمال، فضلاً عن ذلك من فقدان الحقائق التى كانت ترمز إليها. لقد كان يعتبر نفسه، بصورة خاصة «جهاز إرسال» وعلى شاكلته «لاو - تزى» أكبر الاثنين سنًا، شرع فى أن يوضح للناس الطريق إلى الفضيلة والقناعة. وهذا المسلك أطلق عليه على الوجه السليم جدًا اسم «الطريق» أو «التاو»، أما كيف يمكن اكتشاف هذا الطريق فقد اختلف فيه، مع ذلك، «لاو - تزى» و «كونفوشيوس» اختلافًا واضحًا، أحدهما عن الآخر.

وترجمة «التاو» بـ «الطريق» ترجمة معقولة، وصفة للسعادة، وهذا وحَسْب جزء يسير من معناها، وهى تعنى - أيضًا - أساس الكون، ذلك الذى حفظه ويمنحه الحركة والنظام. وتمامًا كما أن النجوم قد حددت مسارها، فهناك - أيضًا - طريق للإنسان، وسيلة قد يستطيع بها أن يربط وجوده بالواقع: واقع صار بعيدًا عنه إلى حد ما. و«التاو» هى أصل كل معنى فى الكون، وهى مسئولة - أيضًا - عن كل الأشياء المخلوقة، ولكن الأشياء يجب أن تخلق، والخلق فى الواقع يتم عن طريق عنصرين، هما: «ين» و«يانج» ومعنى «ين» الحرفى هو «الظل»، ويعبر عنه بالكتابة التصويرية بالجانب الشمالى لجبل، والجانب الجنوبى لنهر، لأنه فى الصباح تكتنف الظلمة جنوب النهر، أما «يانج» فمن ناحية أخرى، يعنى «الضوء»، ويعبر عنه بصورة مغايرة، و «يانج» إيجابى و «ين» سلبى، والأول ذكر والثانى أنثى؛ ولكن «ين» و «يانج» لا يشكلان مذهب الثنائية إلى تقسيم العالم إلى قسمين، هذه المبادئ من خصائص عالم الظواهر فقط. وفى لب الواقع توجد «الطاو» الوحدة.

ولقد ورد أول بيان لفكرتى «ين» و «يانج»، على ما نذكر فى كتاب غامض عنوانه بقدر غموض محتواه، اسمه «آى - تشنج» أو كتاب التغيرات. وإن من يعلنون أن العقلية الصينية عاجزة عن التأمل الميتافيزيقى ليتجاهلون مقدار ما يتمتع به هذا الكتاب من مقام رفيع! بل إن «كونفوشيوس»، رغم اهتمامه بالميتافيزيقيات، قام بإعداده وأضاف إليه تعليقاته هو الشخصية.

ولقد صار هذا الدليل بقائمته التى تحوى أربعًا وستين «هسيانج» أو «فكرة» والتى باتحادها شكلت واقعًا، صار بمضى الوقت مصدرًا لسحر رخيص ومصدرًا للكهانة،

وكان هذا دليلاً إضافيًا على طابعه التقليدى المقدس، لأن الكتب التى كان من المعتقد أنها تتضمن وحدها محتويات روحية أصيلة من المحتمل أنها كانت تستخدم مثل هذا الاستخدام أو تهمل. لقد استخدمنا لفظة «رخيص» عن قصد: لأنه لو كان الغرض الأصلى لكتاب «آى تشنج» غرضًا تنجيميًا، كما يبدو مؤكدًا، فإن هذا لا يقلل من عمق أساسه. ولقد أعلن عالم سيكولوجى عظيم هو «س. ج. يونج» أن كتاب «آى ـ تشنج» يجسد جوهر الثقافة الصينية، لأن ما يحذقه الشخص المنطقى العصرى ـ دون أن يفهمه على أنه تنجيمى، وما ينظر إليه العالم الحديث على أنه محض خرافة، يراه «يونج» على أنه لون من المعرفة، وفى رأى «يونج» أن كتاب «آى ـ تشنج» يشكل رسالة عما يمكن أن يطلق عليه بعبارات علم النفس الحديث «المطابقات السيكولوجية». ولا نعرف على وجه الدقة كتاب «آى ـ تشنج»، ولكننا نعرف أنه قد تداولته أيدى جيل بعد جيل باعتبار أنه يجسد حكمة ثمينة،ومثل هذا المصير لا يحل بمجرد ملخص للتعاويذ والرقى.

وكان أول فيلسوف تجاوب مع دقة مبدأ «التاو» هو «لاو ـ تزى»، الذى له شهرته كمؤلف كتاب بعنوان «تاو ـ تى ـ تشنج»، الذى يعنى «كتاب دستور الطريق والفضيلة»، و«لاو ـ تزى» شخصية غامضة والواقع إن هناك بعض الشك فيما إذا كان له وجود بالمرة، واسمه نفسه قد يوحى بشخصية أسطورية، لأنه يعنى ببساطة «المعلم العجوز»: ولكن من الواضح أنه كان له اسم آخر هو «لى» ومعناه البرقوق.

ومن ناحية أخرى يقال إن «كونفوشيوس» التقى به، كما ذكر اسمه عدة فلاسفة آخرين.

وعندما يحذف المؤرخون اسم شخص باعتبار أنه اسم أسطورى دون أن يقدموا عنه أى دليل آخر، فإن كل ما يعنونه عادة هو أنهم لم يكتشفوا بعد مجموعة أخرى من الأساطير.

على أية حال، فإن من المفروض أن «لاو ـ تزى» ولد سنة ٦٠٤ ق. م فى محافظة هونان فى الصين الوسطى، ورغم أنه نشأ فى بيت فقير، فقد ارتقى حتى صار أمينًا للمكتبة الملكية فى «تشو» وعاش حتى سن متقدمة وذاع صيته كحكيم، بيد أنه كان

واضحًا أنه فشل فى ممارسة أى نفوذ واضح خارج دائرة صغيرة وقرب نهاية حياته، وإيمانًا منه بأن مآل وطنه الفوضى، عزم على مغادرته، وعند الحدود، لما تعرف موظف الجمرك على الحكيم المبجل، صرح له بمغادرة البلاد بكل ما معه من أمتعة بشرط أن يخلف وراءه حكمته. ولما لم يكن «لاو - تزى» قد دون أفكاره حتى ذلك الوقت وافق على هذا الشرط، ولما بدأ فى العمل على الفور ركز أفكاره فى خمسة آلاف كلمة، وهى أفكار يجب أن تسجل فى سجلات الفلسفة، وهكذا دون كتاب «تاو - تى تشنج». أما ما حدث لـ «لاو - تزى» بعد ذلك، فلم تذكر أية أسطورة عنه، اللهم إلا تسجيل تاريخ وفاته الذى حدد بعام ٥١٧ ق. م.

استعراض كتاب «لاو - تزى»

يعتبر كتاب «لاو - تزى» من أقصر المراجع الصينية، لكنه من أكثرها إثارة وأعظمها إلهامًا. ويتميز الكتاب بما يضمه بين دفتيه من اتجاهات تجريدية وباطنية، وبنزوعه إلى المتناقضات وبه شرح لأول فلسفة فى العالم دعاماتها التعمية والتمويه، بما تلقنه من حكمة التظاهر بالغباء والحمق، وتبديه من توفيق من يظهر عجزه ومنقصته. فعندها أن القوة فى الضعف، والربح فى القناعة، والسلامة فى البقاء فى المنزلة الوطيئة، والفائز من يسلم لخصمه، ولا ثمرة ترتجى من الصراع فى سبيل القوة!!.

ويعرض «لاو - تزى» آراءه فى هيئة حكم مأثورة تتكرر المرة بعد الأخرى، ويمكن حصر هذه الآراء فى النقاط التالية:

إيقاع الحياة - وحدة العالم بأسره والظواهر البشرية - أهمية المحافظة على البساطة الأصلية للفطرة البشرية - خطورة تغالى الحكومة فى التدخل فى حياة البشر - مذهب حرية العمل - تأثير الروح الشامل: عبر التواضع - السكينة والهدوء - القوة حمقاء والكبر سبة وحب التسلط جنون.

وقد أُلف كتاب «لاو - تزى» إبان فترة حفلت بالقلاقل السياسية والجيشان الفكرى. ولهذا فإنه - مثل غيره من الكتب التى أُلفت خلال هذه الفترة - يهتم بعرض فلسفة للحكم وأسلوب لحياة الطبقة الحاكمة، على أن وجهة نظر الكتاب فى معالجة مشكلات الحكم أوسع نطاقًا - بما لا يقاس - مما توحى به هذه العبارات. إذ تستند تعاليم «لاو -

تزى» على مبدأ جوهرى عظيم يتبلور فى كلمة واحدة «تاو» التى اشتق منها تعبير «المدرسة التاوية». والتاو عند «لاو - تزى» مصدر الكائنات جميعًا، وهو الذى يسوس جوانب الحياة بأسرها سواء أكانت بشرية أم غير بشرية، هو الوحدة الأساسية التى لا تتجزأ والتى تحل فيه - فى نهاية المطاف - جميع متناقضات الوجود ومفارقاته.

ويبحث جانب كبير من الكتاب فى طبيعة هذا السبب الأصلى وأسلوب عمله على أنه يسلم بضرورة بقائه - بصفة أساسية - مدلولاً لا يوصف، ولا يدرك إلا من خلال نوع من الإذعان والسلبية، وبانتفاء الصراع والإرغام، كما يتسم بطريقة للفعل: تلقائية - لا جهدية - لا يفرغ لها معين.

وفى المجال البشرى، يصف كتاب «لاو - تزى» الإنسان الكامل «ويطلق عليه الحكيم» لأنه على بصيرة مبدأ التاو الخفى، وأنه يتولى ترتيب حياته وتبويب أفعاله وفقًا لأحكامه، وعلى من يرنو إلى إدراك مبدأ التاو أن يكسر شوكة نفسه ويلتزم الهدوء ويصطنع السلبية ويتحرر من الرغبة. وينأى بنفسه عن الشحناء:

فظاهر أن «لاو - تزى» يتصور الحكيم حاكمًا مثاليًا. فإنه يحدد طائفة من الوصايا يدعو الحكيم إلى انتهاجها فى سياسة شئون الحكم:

أولاً: لا يتدخل فيما لا يعنيه من أمور الناس.

ثانيًا: تجنب الحرب.

ثالثًا: احتقار الترف.

رابعًا: يعمل للعودة بشعبه إلى حالة البراءة والبساطة والانسجام مع الطبيعة «أى التناسق مع التاو».

ويقرر حكماء الصين أن تلك حالة سادت بلادهم فى سالف العصر والأوان قبل ظهور المدنية بما حملته معها من أوزار الرغبات المادية، ودفعها الناس إلى الشحناء والتقاتل.

والإغراق فى الغموض هو الطابع الأساسى لكتاب «لاو - تزى»، حتى إن المفسرين قد استخلصوا من دراسته نتائج يباين بعضها بعضًا:

١ ـ هناك من فسروه أنه دعوة لحرية العمل، وغل يد الحكومة إلى أبعد الحدود الممكنة عن التدخل فى أمور الأفراد.

٢ ـ واعتبره آخرون منهاجًا للنساك والراغبين فى اعتزال المجتمع لينصرفوا إلى تحصيل العلم وجنى ثمار الحكمة. ولهذا السبب أصبحت التاوية ـ خلال فترة طويلة من تاريخ الصين ـ فلسفة الفرد الصينى المثقف وعزاءه وقتما يعتزل الحياة العامة أو يصيبه الإخفاق أو يهجره مجتمع البشر ناشدًا الاتحاد مع عالم الطبيعة، ولاسيما أن التاوية تُعنى بوسائل الاستجابة لتحديات عالم البشر.

طبيعة اصطلاح التاو عند «لاو ـ تزى»

كلمة «تاوى» من أهم الاصطلاحات فى الفلسفة الصينية، وكانت تعنى فى الأصل ـ كما ذكرنا ـ «الطريق» أو «النهج» أو «السبيل».. وكان اللفظ يحتوى فى العصور السابقة لظهور «لاو ـ تزى» على مضمون يبتعد ـ شيئًا ما ـ عن المضمون المادى كالقول «سبيل الإنسان» «أو طريقه أو نهجه» ويقصد به الأخلاق البشرية والسلوك والحق. واقتصر استخدام الكلمة ـ وقتذاك ـ على الشئون البشرية.

ولعل «لاو ـ تزى» هو أول من استخدم كلمة «تاو» استخدامًا ميتافيزيقيًا محضًا، فهو الذى جاهر بأن الكون قد انبعث وفقًا لمبدأ شامل سبق وجوده يطلق عليه «تاو». فالاصطلاح عند «لاو ـ تزى» يماثل اصطلاح «الكلمة» فى الأديان السماوية، ويطالعنا «لاو ـ تزى» بالتعريف التالى لـ «تاو»:

«ثمة شىء لا صورة له إلا أنه كامل. قائم قبل أن توجد السماوات والأرض لا صوت له ولا جوهر، موجود لا يتغير، يتخلل كل شىء. إنه منشئ جميع ما فى الكون، لا نعرف اسمه لكن نصطلح عليه بكلمة «تاو» وكنيته العظيم. يسلك التاوى العظيم هذا الطريق أو ذاك، ويدين إليه بوجوده الآلاف المؤلفة من المخلوقات. لا حصر لمآثره، هو الرداء الذى يكسو ملايين الأشياء ويرقى بها».

ويتبين لنا من هذه العبارة ـ وغيرها ـ أن الذاتية التى يطلق عليها «لاو ـ تزى» لفظ «تاو» قائمة قبل ظهور الكون. وتلك لديه حقيقة مطلقة لا نزاع فى شأنها، وتتألف من جوهر أصيل. ويكفل هذه الأصالة، وجود كون لا نهائى أقامته هذه الحقيقة بنفسها وهى التى تتولى الحفاظ عليه.

وإذا كان الـ «تاو» هو مصدر ملايين الأشياء، فلا يمكن ـ كما يقول «لاو ـ تزى» ـ أن يصبح شيئًا كبقية الأشياء إذ يمكن أن يقال عن الأجسام إنها «كائنة» ولكن الـ «تاو» ليس مادة، ومع ذلك فإنه هو الذى بعث الكون المادى إلى الوجود. ولهذا السبب يتحدث عن التاو بأنه كائن وغير كائن: فهو غير كائن إن أشير إلى جوهره الذى يخالف الأشياء جميعًا، وهو كائن إن أشير إلى فعله.

وبالتالى، يرى «لاو ـ تزى» أن «الكائن» و «اللاكائن» قد تفجرا عن التاو فهما بالتالى مظهران له.. ويستطرد قائلاً:

«أبرز التاو الوحدانية، وأنتجت الوحدانية الثنائية وينبعث الثالوث عن الثنائية ويتفتح الثالوث عن الحشود التى لا حصر لها من الأشياء فالسماء والأرض وملايين الملايين من الأشياء تنبعث عن «الكائن»، والكائن هو ناتج «اللاكائن» لكن ليس اللاكائن هو الصفر أو العدم».

ويقول لاو ـ تزى فى موضع آخر من كتابه:

«لا يدرك التاو باللمس، ويمتنع عن القياس.. ومع ذلك تكمن فيه نماذج الأشياء وأصولها، ويضم بين طياته الذاتية والوجود».

ويقصد لاو ـ تزى بعبارة «لا يدرك باللمس ويمتنع عن القياس»، خلوه من الجوهر المادى، فى حين تعنى عبارة «تكمن فيه نماذج الأشياء وأصولها» أنه ليس «لا كائن الصفر».

وإذا كان التاو هو المبدأ الشامل الجامع يصعب والحالة هذه ـ تمييزه بإطلاق اسم عليه على غرار ما يطلق من أسماء على جسم ذى وجود فردى لتمييزه عن غيره. وذلك لأن لجميع الأسماء قوة التحديد والتعيين. فإذا ما أطلقنا اسمًا على شىء، نكون قد حددناه وميزناه عن غيره، من الأشياء المحددة المعينة بأسمائها. فأما «التاو» فإنه ـ وفقًا لرأى «لاو ـ تزى» ومن تبعه من تلامذته ـ فهو كائن فى كل مكان وهو كل شىء.

وأن التاو هو خالق الكون، فكرة طريفة فى الفلسفة الصينية. فالمراجع الصينية التى ظهرت قبل كونفوشيوس ـ مثل كتاب الأناشيد وكتاب التاريخ ـ تقرر بأن السماء هى التى خلقت الكون، ويردد كونفوشيوس هذا الرأى فى مختاراته كما يردده كل من «منشيوس» و «هسون تزو». أما كلمة «تاو» فقد استخدمت فى تلك المراجع بمعنى سبيل

شىء ما، وإن استخدمت مع لفظ «الإنسان» فيقصد بها السبيل الذى يجب على الإنسان سلوكه.

والأمر يختلف فى كتاب لاو - تزى:

إذ لا يعنى لفظ «تاو» سبيل شىء ما، لكن بات يكون - لديه - ذاتية مستقلة تمامًا، حرة حرية مطلقة وتقوم مقام السماء فى جميع وظائفها وأعمالها، لكن الـ «تاو» هو - كذلك - السبيل الذى يسلكه الكون الجامد، كما يسلكه الإنسان العاقل.

فلا بدع والحالة هذه، أن يصاب دارس لاو - تزى - فى بعض الأحيان - بالبلبلة الفكرية تجاه تفسير اصطلاح «تاو» بأنه ذاتية «أى كيان» وبأنه مبدأ مجرد.

تصور لاو - تزى للكون

يستند رأى «لاو - تزى» عن الكون على مذهب الطبيعة فهو يسلم بوجود علة أصلية، كما يعترف بتجلى قوة عليا، فهو القائل: «ثمة شىء لا يعرف ولا يحدد يتصف بالكمال قائم قبل السماوات والأرض، فبأية كيفية هو ساكن وغير ذى صورة، راسخ بمفرده ويحيط بكل شىء علمًا، ولا خطر عليه من الاستنفاد، هو أصل جميع الأشياء، لا يعرف له اسم لكننى أعرفه بكلمتى «تاو العظيم»».

وإذا كان الغموض يغلب على تعريفه، لكن فكرته عن كائن أعلى لا يتغير ولا قيد على سلطانه، شبيهة - نوعًا ما - بفكرة الأديان السماوية عن «المطلق بدون بداية وبغير نهاية». ويلاحظ أن «لاو - تزى» يضيف صفة «العظيم» إلى لفظ «تاو»؛ حتى لا يختلط مقصده مع حرفية اللفظ ويعنى - كما قلنا - السبيل أو الطريق.

ويقرر «لاو - تزى» أن التاو كونت الواحد، والواحد أحدث الاثنين، والاثنان ولدا الثلاثة، وأوجدت الثلاثة «بمعنى الخلق» جميع الأشياء، فالوجود قد بعث من العدم.

ولقد أخذ الكون بمجامع أفكار مريدى «لاو - تزى» وخلب ألبابهم. وهذا ما نجده فى كتاب «تشوانج تزى» - وهو المعلم الثانى للتاوية - إذ يتساءل:

«هل تدور السماء حول محور؟ هل تقف الأرض ساكنة؟ هل تغير الشمس والقمر مركزيهما؟ من الذى لديه الوقت لتحريكهما؟ هل ثمة نوع من الابتكار الآلى إلى التحريك التلقائى؟ هل ينحصر الأمر فى دورانهما حول محور لا محيص لهما من

الدوران حوله تحت قصورهما الذاتى؟ هل تصنع السحب المطر أو أن المطر هو الذى يكوّن السحب، وما الذى يسقط المطر بغزارة؟».

وتحت تأثير نظرة الحب العميق للكون وللطبيعة المجردة صك التاويون تعبيرهم المأثور «كل منظر يسر، والإنسان وحده «الخسيس»». وإذا ينفرون من عالم الناس، ينصحون بهجر الإنسان له. ولهذا تُعنى كتابات التاويين بصفة خاصة - بتصوير النساك فى اتحاد مع الطبيعة.

ويخبرنا «تشوانج تزى»:

«الكون هو وحده جميع الأشياء، فلو سلم الفرد بذاتيته مع هذه الوحدة تصبح فكرة الموت والحياة لديه، وكذلك البداية والنهاية - وهى التى تعكر صفو حياته - مجرد تعاقب النهار والليل».

واطراد العمليات الكونية، هو الذى يدفع «لاو - تزى» ومريديه إلى النصح بالتزام السلبية. إذ تتواصل حركة المظاهر الكونية فى نظام بديع يبلغ ذروة الكمال، ومع ذلك - كما يقول «تشوانج تزى» - لا تتحدث قط. فالفصول الأربعة تتبع نظامًا واضحًا دون حاجة إلى نقاش أو لجاج، وتسير الظواهر الطبيعية المتعددة وفقًا لمبادئ محكمة. والحكيم العظيم هو الذى يسعى نفهم أسرار الطبيعة ويُعنى باستقراء مكنوناتها، وبعبارة أخرى يتبلور واجب المرء فى الحياة فى «تأمل الكون».

وإجلال «لاو - تزى» للطبيعة يدفعه إلى نقد فكرة «كونفوشيوس» عن الأرض والسماء. وإذ يرى «كونفوشيوس» أن الطبيعة هى مجرد زوال، لأنها تزهر وتستطيل فى الربيع ثم تذبل وتفنى فى الخريف والشتاء، فى حين أن الطبيعة - وفقًا لرأى «لاو - تزى» - بناءة وتعمل لخير الإنسان، وإذا كان ثمة صراع وتقاتل على الأرض بين مختلف المخلوقات، فلا صلة له بعمل الطبيعة الأصيل القائم على الخير والإبداع.

نظرة «لاو - تزى» إلى الحياة

تأثرت نظرة «لاو - تزى» إلى الحياة بالأحداث الرهيبة التى مرت بها الصين واستمرت ٢٤٢ عامًا. وحسبنا القول، إن التاريخ الصينى قد سجل هذه الفترة ستًا وثلاثين حادثة قتل الملك، نصفها ارتكبها أبناء الملوك أنفسهم، وهذا يفسر دعوته إلى التزام السلبية.

وهو يعزو الفوضى التى تنتشر فى البلاد إلى تعاليم الحكماء، فيتهمهم بمجافاة المنطق عند عرض حكمتهم، ويشير «لاو ـ تزى» هنا إلى تعاليم «كونفوشيوس»، فهى - فى رأيه ـ إذ تعلى من شأن الولاء للوالدين وللحاكم، تضعف العلاقات البشرية الأخرى، كما يغالى «كونفوشيوس» فى ولاء الوزير لشخص الحاكم مهما نافت سياسته مصالح البلاد، ويعتبر «لاو ـ تزى» هذه المغالاة عاملاً من عوامل الفوضى التى شاعت فى البلاد. ويتهم «لاو ـ تزى» «كونفوشيوس» بإقامة أنماط خلقية مصطنعة تبث فى معتنقيها رغبة عارمة للحيازة والتملك، إذ يرى «لاو ـ تزى» أن للخلق الطبيعى خفقة إبداعية تحقق للحياة والحرية التقدم المستمر والانطلاق المتصل صوب الارتقاء. فى حين يخضع الخلق المصطنع الناس لاستيفاد التقاليد واسترقاء العادة والعرف. والجد فى طلب العمر الطويل والتماس الخلود، غايتان مهمتان للتاوية، دفعتا التاويين إلى التنقيب عن أكسير الحياة مما قاد إلى ارتقاء الكيمياء الصينية على أيديهم، على أن التاوية تسلم بأن الموت أمر لا محيص عنه. وعندما يموت المرء يتلاشى هذا الشعور بالوجود وتزول هذه «الأنا» الغيور اللجوج. لكن ما موقف المرء؟ يقول التاويون: إن الشعور بالوجود عذاب وشر مهما يكن من أمر وضعه فى الحياة.

فهل يتغير وضع الكون، لو لم تكن هناك هذه «الأنا»؟

يجيب «لاو ـ تزى» بأن طول العمر الحق، مناطه الحقيقة القائلة بأنه وإن كان المرء يموت إلا أنه لن يضيع هباء.

وبالتالى، لا يقتصر الحال بهذا الفيلسوف على الاستكانة للموت، بل يبهجه التفكير فيه باعتبار أن الموت يؤكد شخصيته تجاه عالم الكون اللانهائى. ومصداقًا لهذه الفكرة يقول «تشوانج تزى» ـ مريد «لاو ـ تزى»: إن مكابدة تغيرات تتعدد أشكالها تعددًا هائلاً، يبعث فى النفس سرورًا يفوق الحصر. ويقول ـ بموضع آخر من كتابه: «إن الحياة عندما تقبل فلأن الوقت قد آذن بقدومها، وعندما تروح فلنتيجة طبيعية للأحداث. وإن تقبل جميع الأشياء التى تحدث باطمئنان وتحمل التبعة الطبيعية للأحداث فى سلام، يكفلان الصمود للأسى والألم على السواء. وهنا يتحرر المرء من العبودية».

أسلوب «لاو ـ تزى» فى التثقيف الذاتى

يتألف أسلوب «لاو ـ تزى» فى التثقيف الذاتى من:

١ـ البساطة وهى مَثَل التاوية الأعلى، لأنها تنبعث عن الطبيعة وهى هدفها المرتجى.

٢ـ معرفة الذات.

٣ـ ضبط النفس.

فالبساطة تطرح ـ بعيدًا ـ الميول والنزوات بكافة أنواعها: التشوق للخمر، الرغبة فى النساء، الميل للثراء، التحرق للمباهج والمسرات، التشوف للرفاهية: وهذا يعنيه «لاو ـ تزى» عندما يتحدث عن الألوان الخمسة التى تعمى أبصار الناس، والنغمات النشاز الخمس التى تصم أسماعهم، والمذاقات الخمسة التى تثير شهواتهم، وركوب الخيل والصيد والقنص التى تربك عقولهم، ومن رأيه كذلك أن الأشياء النادرة والطريفة تثير رغبات البشر الشريرة.

ومن رأيه أن معرفة الناس، نوع من الحكمة لكن معرفة الذات هى الضياء وتجتنى الحكمة من بيئة الإنسان ومن خارج ذاته، لكن الضياء الحق يفد من داخله، فإذا ما غشيت الصفاء الداخلى سحابة، حط الضباب على الحكمة، والإنسان القوى ـ فى نظره ـ ليس من يتغلب على بقية الناس ـ لكن من يقهر نزواته ويكبح جماح نزعاته.

وثمة نظرية مهمة فى كتاب «لاو ـ تزى» تتصل بموضوع الضعيف والمستكين فإنه يؤمن بأن فى وسع الضعيف المستكين أن يقهر القوى، ويتغلب على العسير. ويسوق لفكرته هذه تفسيرًا يربط بينها وبين نظريته عن التغير الدورى.. فالضعيف يغلب القوى فيصير هو ذاته قويًا، وعندئذ يصبح ضحية للضعيف.

ويبدو هذا التأويل معقولاً للوهلة الأولى، إلا أن تقييم فكرة الاستكانة والضعف، يثير أمام الباحث طائفة من المشكلات إذ يوجب «لاو ـ تزى» الاستمساك الشديد بصفة الاستكانة. ولو اتبعنا نصحه بالتزام الضعف والاستكانة لنبلغ القوة، أفليست مرحلة القوة ـ وفقًا لنظرية دورية الضعف والقوة ـ قصيرة الأمد وتعقبها مرحلة ضعف... وهكذا دواليك؟ وبالأحرى، لا فائدة ترجى من اتباع الضعف وانتهاج الاستكانة فى الحياة.

ويبنى على حتمية تحول الشىء إلى نقيضه «بعد بلوغه منتهى تقدمه ـ أو تأخره حسب الأحوال» سلامة مبدأ السكون وانتهاج خطة اللامبالاة تجاه عالم يفيض بالحركة المستديمة والتغير المستمر. لكن ثمة اعتراض على تفسير رأى «لاو ـ تزى» عن حركة تحول الأشياء ـ تفسيرًا يستند إلى مبدأ دورية التغير ـ ومبناه أن ثمة فارقًا جوهريًا بين

مظهرى التغير: التقدم والتأخر، والقوة والضعف... إلخ، ويوجب هذا الفارق فكرة التغير ذاتها. فالتقدم بطيء متدرج والتأخر سريع وفجائى وعملية التأخر أشبه ما تكون بطريق منحدر يجهد المرء فى بلوغه قمته، فإذا ترك نفسه هوى إلى القاع سريعًا. ولهذا يدعو «لاو - تزى» إلى التزام القناعة، وأن يجهد المرء نفسه لمعرفة متى يقف خشية أن يهوى إلى القاع. وفى هذا يقول:

«إن التزمت القناعة، فلن تكابد الخزى، وإن عرفت متى تقف فلن تجابه الخطر». ويقول بموضع آخر من كتابه «القانع غنى»، مبرزًا هذه النقطة فى عبارة تتسم بالقوة وردت فى الفصل السادس والأربعين من كتابه:

«ليست هناك جريمة أبشع من تزايد الرغبات، ولا نكبة أفظع من العزوف عن القناعة، ولا نازلة أسوأ من الجشع».

والإنسان تدفعه الرغبة والطمع إلى التماس الجزاء الحسن والمكانة المرموقة ولمقاومة نزعاته الكامنة فى فطرته، لابد من تلقينه - باستمرار - دروس القناعة وتعريفه الحد الذى تتوقف عنده رغباته. ولا سبيل للإنسان إلى إدراك خطورة التطلع إلى المزيد من الثراء والجاه - كما يقول «لاو - تزى» - إلا أن يتحقق بأن ما لديه يكفيه.

نظام «لاو - تزى» الخلقى

للاو - تزى وجهات نظر ثلاث تجاه الأخلاقيات:

الأولى: الشفقة والتعاطف.

الثانية: حسن التدبير.

الثالثة: التواضع.

ويحذر الناس من التخلى عن هذه الأمور، لأنهم لو فعلوا ذلك لتعجلوا الموت بأيديهم.

وثمة مبدأ رئيسى عند «لاو - تزى» يقضى بانسجام اتجاهات المرء الخلقية مع نواميس الكون الأساسية، والحرص على الابتعاد عن التمرد عليها. ويعتقد بضرر النظم الاصطناعية وخطأ جميع ضروب الكد والكفاح. ولا تعنى حملته على الكفاح الحكم على أوجه النشاط جميعها بالخطأ، لكن ينصب حكمه على ما يبذله المرء من جهد

وعناء لتحقيق آمال فوق متناول قدرته، فتثور نفسيته ويضيق صدره.. وهذا ما يعنيه «تشوانج تزى» ـ خليفة «لاو ـ تزى» والمعلم الثانى للفلسفة التاوية ـ بقوله:

«أولئك الذين يدركون أوضاع الحياة، لا يرومون إنجاز شىء تعجز الحياة عن إتيانه، ومن يعلم تصاريف القدر لا يتطالع إلى ما فوق متناول المعرفة».

ومن شروط التقدير السليم عند التاويين، كفالة التوازن بين الإدراك الحكيم لما يمكن تنفيذه، وما لا يتأتى القيام به من الناحية الأخرى. ومن الأمور المهمة فى هذا الشأن، التسليم بأن جميع الأشياء نسبية، وفى هذا يقول «لاو ـ تزى»: «إن إجماع الناس على وصف شىء بالجمال، هو السبب فى إدراك عقولنا فكرة القبح». ويسوق «تشوانج تزى» المثال التالى لإيضاح فكرة النسبية «إذا نام إنسان فى مكان رطب يحس بآلام مبرحة فى ظهره بعد استيقاظه، ويشعر وكأنه نصف ميت، لكن هل يصدق هذا القول على ثعبان الماء؟ لا يمكن للإنسان أن يعيش فى الأشجار كالقردة. إن الناس يأكلون اللحوم، ويتغذى الغزال بالحشائش ويهوى الجريش آكل الثعابين، ويستمتع البوم والغراب بالتهام الفئران».

ويطبق «تشوانج تزى» هذه النسبية على المسائل فيقول: «... فيما يتصل بالخطأ والصواب، ليس الصواب صوابًا مطلقًا، كما لا يمكن اعتبار الخطأ خطأ مطلقًا... فلنعمل على تنسيق مظاهر الحياة داخل إطار الكون الشامل ولندعها فى سبيلها...».

وبالأحرى، إذا لم يكن هناك شىء مؤكد، يصبح كفاح الإنسان المُضْنى لاجتناء النجاح عبثًا. وفى هذا يقول «لاو ـ تزى»: «إن الإنسان الذى يقف على إصبع قدمه لا يقف وطيدًا، وهذا الذى يسير بأوسع الخطى لن يقطع مسافات الأرض كلها» وينصح الإنسان بقوله: «إن رغبت أن يحتفظ نصلك بحدته، فاجتنب أن يصبح أشد مضاء، ولتجنب سطو اللصوص على منزلك فلا تملأه بالذهب والجواهر الكريمة. الثروة والمنزلة الرفيعة، تقود الإنسان إلى الدمار، مثل أن حاصل جميع اثنين واثنين أربعة بالتأكيد».

وتنادى فلسفة «لاو ـ تزى» بتوقى التوتر النفسانى، واجتناب القلق العقلى فى أية صورة من الصور. وقد وردت بمؤلفات التاويين أمثلة عديدة توضح أن القلق عدو الإجادة فى العمل، وخصم التصرف الحميد، وسبيل ارتكاب الأخطاء فيجب أن تكون الطمأنينة سبيل المرء. ويمحض «لاو ـ تزى» الإنسان النصح بأن يتكلم أقل ما يمكن، لأن

هذا هو أسلوب الطبيعة: فالسماء والأرض تعجزان على استدامة العاصفة أو الإعصار، وأن أولئك الذين يعملون لا يتكلمون، والذين يتكلمون لا يعملون.

ومن رأيه أن فى وسع الناس توقى المتاعب إن أقلعوا عن التعلم، وينصحهم بنبذ الحكمة والتخلص من الفتنة ليكونوا أهنأ مائة مرة. فالعبرة لديه بانتهاج سبيل الحق، أى الطريق الذى تمليه الطبيعة. ويقرر «تشوانج تزى» أنه أتى على الإنسان حين من الدهر كانت فيه حكمة الشيوخ كاملة، وذلك ما لم يكونوا قد أحسوا بوجود الأشياء فلما عرفوها بدءوا فى تمييز أحدها على الآخر، ثم أقبلوا على تصنيفها، فانبعث إلى الوجود اصطلاحا (الخير والشر) و(الخطأ والصواب) و (النافع والضار)... إلخ، وها هنا انتهك البشر حركة الطبيعة فأحاط بهم الأذى من كل جانب.

نظرية «لاو ـ تزى» السياسية والدولة المثالية عنده

استخدم «لاو ـ تزى» اصطلاح (حكيم) فى مؤلفه أكثر من عشرين مرة للدلالة على الحاكم الذى ينتهج الطريق السوى، ويلتزم الحق فى أفعاله، ويعتبر الدولة شيئًا رقيقًا يتأثر بأقل خطأ أو أدنى رعاية، وشبّه الحاكم بأنه مقدس تجب المحافظة عليه وتَوَقِّى العبث به مهما كانت الظروف والأحوال.. ويعد الدولة جزءًا من نظام الطبيعة القدسية. ويتسم النظام الطبيعى بتوازنه الدقيق، فأى تدخل ـ مهما ضؤل ـ يقدم الحاكم على إتيانه، يخل بهذا التوازن ويقود إلى اختلال النظام واضطراب الأمور وفسادها.

والدولة المثالية عند «لاو ـ تزى» هى التى يتصف شعبها بالبراءة، وصدق النية وسلامة الطوية، ويتحرر رعاياها من الرغبة. ولا يقصد بالرغبة ـ هنا ـ الضرورات الأساسية مثل الطعام والكساء، فإن الطعام لدى العقيدة التاوية وسيلة لسد الجوع، والكساء أداة لدفع غائلة البرد. لكن إن تجاوز الطعام والكساء كفالة الغايتين، اعتبرا ترفًا ورفاهية تجب محاربتهما. فأصناف الطعام الدسمة التى يقصد بها إمتاع التذوق، رغبة ذميمة يجب كبتها، والأردية الغالية القيمة التى ترتدى لإرضاء نزعة التظاهر، رغبة كريهة يجدر كبح جماحها.

وهناك رغبات يستنكرها «لاو ـ تزى» ويعتبر الحاكم مسئولاً عن وجودها، وتتمثل فى الألقاب والوظائف وما إليها من أسباب التمايز الاجتماعى، ولذلك ينصح الحاكم بالامتناع عن إنشاء ألقاب الشرف، فإن تمييز بعض الناس عن بقيتهم يحيق أبلغ الأضرار بالمجتمع. وتجده يقول:

«ليس بتكريم أهل الفضل تصدى الناس عن المنازعة، وليس بتقدير الأعمال الطيبة - وهى لا تتم لذاتها - تمنعهم من ارتكاب السرقة. ولن تُجْدى الإشادة بالأفعال الكريمة فى صرف أذهانهم عن الشر».

ومن رأى «لاو - تزى» أن الرغبة تنشأ عن المعرفة، والرغبة هى لديه مصدر شقاء الإنسان وتعاسته. ولهذا ينصح الحاكم بالعمل للحيلولة دون اكتساب رعاياه معرفة تستثير رغباتهم الكامنة، والرغبات هى التى تعمى الناس عن سلوك سبيل الطبيعة - طريق الحق والصدق والاستقامة الذى يقودهم إلى السعادة الحقة. والحاكم الحصيف - فى رأيه - من يعمل على أن يستبقى للشعب بساطته ووداعته، بحمايته من المعرفة التى تستلُّ من عقله الباطن رغبات جامحة تزعزع طمأنينته النفسية.

وعلى الحاكم - بالمثل - أن يُنكر ذاته فى علاقته بالشعب، أو بتعبير «لاو - تزى» «الحكيم من ينفع الشعب، ولا يسعى إلى نيل اعترافه بالجميل. وهو من يؤدى واجبه العام ولا يباهى بفضله على رعاياه، فإذا جهده عليهم بالخير، فليتوقع منهم النكران».

ويقول فى الفصل السادس والستين من كتابه:

«على الحاكم أن يتواضع أمام رعاياه، ومن يتصدى لقيادة شعب فمكانه آخر الصفوف».

ومن رأى «لاو - تزى» أنه كلما كثرت القوانين فى دولة، استفحل خطر اللصوص والمرتشين وقطّاع الطرق، وينذر الحكام بأن تماديهم فى الجور والطغيان يدفع رعاياهم إلى إيثار الموت على الحياة، فلن يخشوا بطشه وتنكيله، فيخرجون - على طول المدى - على الحاكم الظالم.

وفى الحق، أن ثمة عنصرًا من الفوضوية فى تعاليم التاوية، بلغ درجة من الخطورة فى صيحة بعض التاويين بترك العالم يسير وفق هواه، وأن لا داعى لتقييد حرية الناس بإقامة حكومة، حتى وإن تكن صالحة.

وقد حوت مؤلفات التاويين أنباء عن حكماء ترفعوا عن تولى مناصب رئاسة الوزراء، بل زهد كثيرون فى تسنُّم العرش، ويُؤْثَر عن فيلسوفهم العظيم «تشوانج تزى» أن ملكًا من ملوك الصين دعاه لمقابلته ليعرض عليه تولى منصب رئيس الوزراء فرفض مُؤْثِرًا صيد الأسماك، ذلك لأن هذا الفيلسوف من مريدى «لاو - تزى» - مثل جميع الصوفيين

الصادقين ـ قد وجد فى التجربة الصوفية ذاتها، الرضاء الروحانى المرتجى فلم تعد له حاجة بأوجه النشاط وألوان الجزاء التى ينشدها الإنسان العادى. وطبيعى ـ والحالة هذه ـ أن يكون معتنق مذهب «لاو ـ تزى» ـ التاوى ـ أبعد الناس عن العجب والخُيلاء.

مقطتفات من كتاب «لاو ـ تزى»

التاو يشبه الإناء، وقد يبدو للناظر السطحى فارغًا لكن يمكن سحب الماء منه إلى ما لا نهاية، ولا يحتاج لأن يملأ قط.

إنه جسيم وعميق، ويبدو كما لو أنه سلف الأشياء جميعها..

فيه تغوص أحدُّ الأسنة فتصبح ملساء.

بوساطته تحل أعقد المشكلات.

ومن يشع نورًا ساطعًا يخطف الأبصار.

يحول المُركَّب إلى البسيط.

إنه ساكن مثل السرمدية ولم يولد.

تنبعث إلى الوجود الحشود الهائلة من الأشياء.

ويفرط بعضها فى النمو ولا أهمية لذلك.

إذ يجب أن يؤوب كل منها إلى الجذر الذى جاء منه، وهذه العودة إلى الجذر هى الطمأنينة، وهى تحقيق لمصير الواحد.

وإن قيام الواحد بتقرير مصيره هو النموذج الخالد..

والاستنارة هى ثمرة معرفة النموذج الخالد.

ومن يحظ بالمعرفة، فلن يؤثر فيه الحظ السيئ ويُحِطْ بكل شىء علمًا.

ومن تفض له الإحاطة الشاملة، يخلُ من الأهواء تمامًا، وهنا تتسامى ذاتيته.

والسامى مثل السماء، ومن هو مثلها تصبح مرتبته مع التاو.

ومن يصبح مع التاو، يَغْدُ مثلها خالدًا لا يفنى.

فإن توارى جسمه فى محيط الوجود، يصبح أبعد من أن يصيبه ضرر.

إن كنت لا تود إراقة النبيذ، فلا تملأ الكأس أكثر من اللازم.

إن رغبت أن يحتفظ نصلك بحدته، فاجتنب أن يصبح أشد مضاء.

إن الثروة وعلو المنزلة والعجرفة، تدفع الإنسان إلى التهلكة.

فعندما تؤدى رسالتك وتتوطد شهرتك، انسحب من المجتمع.

فهذا هو طريق السماء.

فهمك للآخرين يجعل منك حكيمًا، لكن فهمك لذاتك يحيلك إلى مستنير.

المرء الذى يقهر الآخرين قوى، لكن من يقهر نفسه مقتدر.

وهذا الذى يستحوذ على أنفس الأشياء، تصبح خسارته أفدح.

والمرء الحكيم من يتوقف باختياره فيظل قائمًا على رجليه.

وليست هناك نكبة أفظع من عدم القناعة.

ولا فاجعة أبشع من الرغبة فى الحصول على المزيد.

فلو أن إنسانًا جرب ذات مرة الرضاء العميق الناجم عن القناعة الحقة، فإنه لن يرضى مرة أخرى أن يكون غير ذلك.

فما الذى يفعله المرء؟

الكلمات الصادقة ليست مزوقة، والكلمات المزوقة ليست صادقة.

الإنسان الصالح لا يجادل، ومن يجادلون ليسوا صالحين.

الحكيم ليس عالمًا، والمتضلعون ليسوا حكماء.

وفيما يلى طائفة من حكمه المأثورة، وتحتوى على شىء غير قليل من التناقض الذى أشرنا إليه:

ـ إياك وأن تظهر أنك الأول فى العالم.

ـ تبدو المهارة المتناهية كالغباء، والفصاحة كالعمى.

- حتى فى الانتصار ينتفى الجمال، ومن يرى فيه جمالاً هو من يبتهج برؤية مذبحة.

- يجب الاحتفال بالنصر بإقامة شعائر الجنازات.

- تسلح السماء بالحب أولئك الذين لا ترغب فى دمارهم.

- الكريم الجواد يتعاظم رزقه.

- قابل الكراهية بالمحبة.

- صدِّق الأمناء، ولا تصدق الكاذبين.

- العارف لا يتكلم، والجاهل يتكلم.

التأمـــلات

من أَسْمَى الكتب التى كتبها القدماء

وأبقاها على مرِّ الزمن

أوريليوس

(١٧٠ م)

رجل ساكن هادئ مطمئن، لا اطمئنان البلاهة أو الإهمال أو اللامبالاة، بل اطمئنان الرصانة والرزانة، وليدة الاتزان فى الرأى، واليقين من السير على الرشد والبصيرة والهداية، فلا ينال منه الزهو والغرور، كما أنه لا يدع للضعف والتخاذل سبيلاً إلى قلبه. تراه يدير بحكمة وحزم دفة الإمبراطورية الرومانية خلال سنوات قلقة مضطربة فيها الثورات والفتن، يقول عنها المؤرخ الفرنسى (تين) : «كان يصعب على المرء آنذاك أن يعيش إنسانًا، فكم بالحرى أن يكون إمبراطورًا!».

ينتمى ماركوس أوريليوس إلى سلالة الأباطرة الأنطونيين الذين حكموا روما مدة القرن الثانى الميلادى، فأولهم (تريانوس) وآخرهم (كومودوس) وبينهما (هادريانوس) ثم (أنطونيوس) ثم (أوريليوس). وجميعهم غير رومانيين، شأن الأباطرة اليوليانيين الأُوَل، بل هم من الأقاليم والولايات، ولا سيما من غاليا أو إسبانيا. هذا وإن عصرهم معروف فى التاريخ كعهد روما الذهبى، ويعلل ذلك بأن كلاً منهم، ما عدا (كومودوس) خلف لمن سبقه، لا عن سبيل وراثة الولد لوالده، بل عن سبيل الولاء والتبنى، فما كان يختار ليعلو سدة العرش إلا خير الخلف لخير السلف.

أوريليوس إمبراطورًا

ولد (أوريليوس) فى ٢٦ من أبريل ١٢١م. من أسرة إسبانية الأصل كان أفرادها يحصون أبا عن جد كمواطنين رومانيين. ثم ما لبث أبوه أن مات فنشأ عند جده، ثم تبناه الإمبراطور أنطونينوس سنة ١٣٨م. وزوَّجه ابنته فوستينا سنة ١٤٥م. ومازال يزيده إشراكًا فى أموره وسلطته حتى عينه خلفًا له فى الإمبراطورية عند موته ١٦١م. بعد أن كان قد طلب إليه أن يشرك هو بدوره، فى حكمه، أخاه بالولاء والتبنى - أيضًا (لوسيوس فيروس) ففعل، فكان هو يحكم بلقب (أغسطس) وأخوه بلقب (قيصر)، وذلك حتى موت هذا الأخير فى أوائل سنة ١٦٩م، فينتهى هكذا الطور الأول من عهد

أوريليوس كإمبراطور. أما الطور الثانى من ذلك العهد فإنه يقع بين سنتى ١٦٩م - ١٧٧م، وفيه ينفرد أوريليوس بالحكم وحده، يليه الطور الثالث والأخير منذ ١٧٧م، إذ أخذ يشرك الإمبراطور فى حكمه ولده الشرعى (كومودوس)، وذلك حتى موته فى الطاعون فى ١٧ من مارس سنة ١٨٠م.

محن.. وفتن.. وحروب

فى أثناء تلك الأطوار الثلاثة توالت المحن على (أوريليوس) فى داخل الدولة وفى الخارج، فإنه ما لبث أن تسلم الحكم، بعد موت (أنطونينوس) حتى زحف الفرس فى الشرق على أرمينيا وهى آنذاك فى الأطراف من الولايات الرومانية. وكان الجيش المتمركز هناك قد دب إليه الرخاء والفساد، فولى الإمبراطور عليه قائدًا شديد الحزم والبأس ولكنه قاسى القلب من الطغاه القساة الطامعين فى الحكم. فمازال بالجند وبالفرس مدة أربع سنوات حتى ذلل كل شىء، ورد الأمور إلى نصابها واستتب الأمن فى تلك الأقطار.

غير أن الحرب لم تنته هناك حتى نشبت فى الطرف الآخر من الإمبراطورية، على تخوم الدانوب حيث الجرمان وقبائلهم، وهم طالما هددوا الدولة الرومانية وجعلوها على وشك أن تصبح أثرًا بعد عين، ففى سنة ١٦٧م عبر أقوام منهم ذلك النهر وتقدموا حتى انتهوا إلى شواطئ بحر الإدرياتيك، فنهض (أوريليوس) يقاومهم بنفسه مما اضطره إلى أن يقضى أيامه فى المخيمات مع معاونه (فيروس)، فلا يحضر إلى روما إلا فيما ندر، بين الحين والحين. ثم إنه ما كاد يرتاح من تلك المحنة حتى قام عليه فى الشرق ذلك القائد الذى كان قد استعمله على الجند أنفسهم، وسرعان ما انقلبوا عليه فقتلوه. فاستطاع (أوريليوس) حينئذ أن يذوق طعم الراحة، واغتنمها فرصة سانحة ليقوم بجولة فى أرجاء الإمبراطورية أثناء السنتين ١٧٥ و١٧٦م، فزار الشرق حيث ماتت زوجته فوستينا، ثم انتقل إلى اليونان.

إلا أن الفتن ما لبثت أن عادت فى الداخل وفى الخارج.

ففى الداخل كان انتشار الدين المسيحى، والشعب هائج على أنصاره يطالب بقتلهم وتشريدهم وتطهير الأرض منهم و(أوريليوس) لابد له من أن يقف فى جانب ذلك الشعب، لا سيما وأنه هو نفسه يرى - بدافع عقليته الوثنية - أن ذلك الدين من أشد

العناصر خطرًا على الدولة، فيحاول قمعه وينظم عليه الاضطهادات العنيفة التى ندرك أشدها فى (ليون) عاصمة (غاليا) سنة ١٧٧م.

وأما فى الخارج، فإن الجرمان عادوا إلى غاراتهم وغزواتهم على ضفاف الدانوب، فأسرع (أوريليوس) إلى محاربتهم وتحرش بهم، ويكاد يدخل فاتحًا بلاد (بوهيميا) عرينهم آنذاك، حين أصابه داء الطاعون فكان فيه حتفه، بعد سبعة أيام قضاها طريح الفراش. وكان ذلك فى (سرميوم)، عاصمة ولاية (بانونيا)، على نهر الساف.

خواطره.. لنفسه!

ومع ذلك، فإن (أوريليوس) لم يكن ليحظى بتلك الشهرة التى تعلقت باسمه بعد موته لو لم يخلف لنا، كمفكر، علاوة على مجموعة رسائل لـ (فرونتينوس)، أستاذه فى علم الخطابة، مذكرات شبه فلسفية، ضبطت فى اثنى عشر فصلاً بالعنوان : (تأملات) وهى معروفة - أيضًا - فى تاريخ الفكر اليونانى، بعبارة غامضة يمكن تعريبها بما يلى: (لنفسه) أو (لنفسى)، بمعنى أن الأفكار والآراء المدونة فى تلك المذكرات ملاحظات شخصية على الأمور والحوادث خطرت لأوريليوس، ولا سيما فى أواخر حياته، أثناء وجوده فى المخيمات والمعسكرات، فسجلها يومًا بعد يوم على حدة، بعضها إلى بعض، ليميزها عن المستندات الخطية الرسمية التى كانت تودع ـ أيضًا ـ خزانة الإمبراطورية.

ومهما كان من أمر، فإن (أوريليوس) يبدو من خلال تلك الوريقات صاحب روح شريفة نبيلة، مزيتها الأولى الأساسية، الصدق والإخلاص للحق، يدل على ذلك خير الدلالة لقب (الصادق) أو (الصدوق) (الصديق) الذى يُكنَّى به، والذى به أصبح مشهورًا عند الناس فى حياته..

الإمبراطور الفيلسوف

يقول (أفلاطون) فى جمهوريته على لسان سقراط: «لا يمكن خلاص المدن من الشقاء، بل خلاص الإنسانية جميعها ما لم يُملَّك الفلاسفة، أو يتفلسف الملوك والحكام فلسفة صحيحة تامة، أى ما لم تتحد القوتان: السياسة والفلسفة فى شخص واحد، وما لم ينسحب من الحكم الأشخاص الذين يقتصرون على إحدى هاتين القوتين، فلا تبرز الجمهورية التى صورناها فى بحثنا إلى حيز الوجود، ولا ترى نور الشمس، والذى

حملنى على التردد فى إبداء هذا الرأى هو شعورى بأنه يضاد الرأى العام كل المضادة ، لأنه يعسر الاقتناع به وسيلة لحصول الفرد والدولة على السعادة».

وفى موضع آخر يقول: «والحقيقة، أن خير الدول هى الدولة التى يكون حكامها زاهدين فى الحكم، ومثل هذه الدولة تحكم فى هدوء، وشر الدول هى الدولة التى يحرص حكامها على الحكم أشد الحرص».

وهذان هما شرطا الحكومة الصالحة فى رأى أفلاطون صاحب (الجمهورية)، وكان يبدو له هو نفسه أن توافرهما يقرب من المستحيل، فهو يرى أن الحاكم يجب أن يكون فيلسوفًا، وأن يكون فى الوقت نفسه غير راغب فى الحكم، لأن حبه للفلسفة أقوى من حبه للحكم والسيطرة.

ومهما يكن حظ رأى كبير الفلاسفة وشيخ المفكرين من الصواب والحكمة فإن الصور التى تمثلها، صورة الحاكم الفيلسوف الزاهد فى الحكم، قد تحققت إلى حد كبير بعد موت أفلاطون بقرون معدودة فى الإمبراطور الفيلسوف الرومانى (أوريليوس)، فهو الحاكم الذى كان يؤثر الخلوة بين كتبه والفراغ للمطالعة والدرس على تقلد السلطة واحتمال أعباء الحكم،وهو القائد الأعلى للجيش الذى كان يذهب لخوض المعارك وإراقة الدماء وإزهاق الأرواح. وهو يفضل السلم، وأن يعيش الناس أمة واحدة فى ظل الأمن المستقر والمحبة الدائمة والإخاء والعدالة.

وفى رأى الكثيرين ممن توفروا على دراسة حياة هذا الإمبراطور الفيلسوف، أنه كان أقرب إنموذج للإنسان الذى كاد أن يخلو من العيوب، ويبرأ من النقائص، وأنه وصل إلى مرتبة من السمو يصعب على غيره بلوغها، فكان لا تغضبه الإساءة إليه، بل يعطف على المسىء، ويدرس أخلاق الناس ويتعرف طبائعهم لا لكى يقع على أخطائهم وجوانب ضعفهم، وإنما لكى يهتدى إلى محاسنهم الخفية ومزاياهم الكامنة، وكان مثلاً نادرًا فى الاعتدال والتسامح وعذوبة النفس وسماحة الخلق وكرم السجية، ومعظم الناجحين فى الحياة يقدمون ضريبة من الثناء يمتزج فيها التقدير العاطف بالنقد لأساتذتهم السابقين وأسلافهم الأولين، ولكن (أوريليوس) وهو فى سن الخمسين من عمره وبين أعماله الكثيرة الناصبة ومشاغله المهمة المضنية يأوى إلى حجرته ويلوذ بصمته ليعدد مآثر الرجال الصالحين الذين عرفهم وأفاد منهم، وكان يعرف ما تنطوى عليه نفوس البشر من شر وأثرة وإحن وأحقاد، ولكنه كان يتعمد أن يغض الطرف عن ذلك كله

ويبحث عن المحاسن وينشد الجمال الأخلاقى، وكان لا يفكر فى أخطاء غيره وإنما يراقب نفسه مراقبة شديدة، ويحاسبها على أخطائها حسابًا عسيرًا، ويجهد فى علاج عيوبها، وكان همه أن يجعل المسىء محسنًا، وأن يجعل المحسن متزيدًا من الإحسان، والعين العاطفة والودود قد تستبين فى النفوس محاسن لا تراها عند الساخر الكلبى المزاج، وقد يرى بسلامة طبعه واستقامة بصيرته أبعد مما يرى الساخرون وأصدق مما يرون، فوراء الضعف البشرى قد تكون هناك دوافع اكرم وأنبل، وكان يتلقى الكوارث والخطوب والأحداث الفاجعة بصبر المؤمن المحتسب، وجلَد الحكيم الصبور.

وقد يقال، إن رجلاً مثل (أوريليوس) قد رفعته الأقدار إلى ذروة السلطان والسيطرة الكاملة والنفوذ البعيد المدى، فكيف تعرض له المتاعب وتساوره الهموم؟ ولكن حياة (أوريليوس) كانت حافلة بالأكدار والنكبات، والحروب والثورات، والزلازل والطواعين، ورغم تجلده القليل النظير، وصبره العظيم بلغ به الحال إلى أن صار يرحب بقدوم الموت، ويرى فيه السبيل للخلاص من متاعب الحياة وأحزانها ومشكلاتها التى لا نهاية لها، ولابد للإنسان باتقائها، وكان كثيرًا ما يفكر فى أسلافه من الأباطرة الرومانيين ليذكر نفسه أنه بعد قليل سيلحق بهم، ويصبح مثلهم خبرًا من الأخبار وسيرة من السير، وإن من الخير له أن يؤدى واجبه بإخلاص وأمانة مادام قادرًا على العمل، وكانت فكرة أنه سيموت غدًا تحثه على أن يقضى أيامه فى محاولات نبيلة وأعمال مجيدة، وكان يمر بخياله والده بالتبنى أنطونينوس والإمبراطور هادريان صاحب الشخصية الغامضة والذى أدرك بعينيه الملهمتين ما تنطوى عليه نفس (أوريليوس) من خير وصلاح وهو غلام ناشئ، ثم يفكر فى (تراجان) الفاتح العظيم الذى مد حدود الإمبراطورية ووطد العدالة فى أنحائها من الأباطرة حتى يصل إلى (أغسطس قيصر) وسلفه (يوليوس قيصر)، وكلهم قد أدركهم الموت، وطواهم الزمن، وهو سيكون فى إثرهم ولكن لاتزال أمامه الفرصة سانحة ليعمل الخير ويسدى المعروف ويحسن السيرة.

وما من شك فى أن (أوريليوس) من أنبل الشخصيات التى يلتقى بها الإنسان فى رحاب التاريخ، وأحبها إلى النفس، وهو مثل يذكرنا دائمًا بالأعالى التى يمكن أن يبلغها الإنسان. وبرغم ضعفه وغلبة الأهواء عليه، فقد كان يحكم إمبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى عرفها التاريخ، وكانت الملاهى جميعها ميسرة له، والمتع برمتها

قريبة منه، ولكنه أعرض عن ذلك كله، وكبح جماح نفسه، وراضها أقوى رياضة على مجافاة الشر، والإمعان فى سبيل الخير، والعمل لإسعاد الناس ما وسعته قدرته، وسمحت به ظروف عصره، وأحوال بيئته، وطبيعة مجتمعه، ومن سوء حظ البشرية أن أمثاله فى التاريخ نوادر وقليلون.

التأملات

وقد ترك (أوريليوس) للإنسانية كتابًا يُعد من أسمى الكتب التى كتبها القدماء وأبقاها على الزمن، وهو كتاب (التأملات). وليس هذا الكتاب مجرد مجموعة أفكار فلسفية أو خواطر أخلاقية صالحة للوعظ والهداية والإرشاد، وإنما هو قصة نفس كانت تنشد الحقيقة، وتُعنى بمشكلات الحياة الكبيرة، وتدعم التفكير فى معنى الحياة والموت، وهو مناجاة مستمدة من مأساة حياة رجل كبير القلب، راجح العقل، لا يريد أن يذيع عقيدة أخلاقية أو أن يقدم لك مذهبًا فلسفيًا، ولكنه مع ذلك يستولى عليك، ويلمس قلبك.

وقد انتهى إلى فكرة أن على الإنسان أن يكبح رغباته إذا أراد أن يكون سيد نفسه، وهى النتيجة نفسها التى انتهى إليها (شوبنهاور) و(البوذيون)، وهى نوع من الانتحار الداخلى وكبت الرغبات والميول والأهواء.

والوصية التى يوصينا بها الرواقيون، والبوذيون، (وشوبنهاور) وأوريليوس هى أن نعمل على أن نكون مثل الأحجار التى لا تحس شيئًا، ولكن إذا كانت الأحجار لا تحس ولا تشعر وبذلك تتخلص من الألم فهى كذلك لا تستشعر الحب ولا تعرف الإيمان، وقد كان قلب (أوريليوس) حافلاً بالحب والعواطف الإنسانية الكريمة، عامرًا بالإيمان بعدالة الكون وقداسته، وواضح أن هناك نوعًا من أنواع التناقض، ولكنه تناقض مقبول، لأنه أنقذه من جفاف الشعور والحس وقساوة القلب التى استهدف لها الرواقيون، فقد حاولوا إخماد العواطف نزولاً على حكم العقل، وكان لزامًا عليهم أن يخمدوا كذلك الحب والعطف، أما (أوريليوس) فقد سلم بوجود حرية الإرادة ليستطيع الصفح عن الغير، وكان يرى أن الخير والشر طبيعيان كازدهار الورد فى الربيع، وهذا التناقض أفسد عليه مذهبه الفلسفى، ولكنه أفاض على تفكيره من ناحية أخرى روحًا إنسانية جذابة.

ولم تنقـذه من صـرامـة النسك وظلام اليأس طيبـة القلب وحـدهـا، وإنما اشـتـرك معها فى الإنقاذ إيمـانه بقوة العقل الإنسـانى، فهو يقـول لنفسه فى تأمـلاته: «اعمل على أن تتذكر على الدوام أنك رجل وأنك رومـانى، وليكن ديدنك أن تؤدى أعمـالك فى رزانة غير متكلفة وبإنسانية وحرية وعدالة».

ويقـول كذلك : «إن السلطة المقدسـة ليست سوى الروح والعقل اللذين يمـلكهمـا كل إنسان» فإلهه هو الضـمير الإنسانى، وليس له إيمان محدد فيما يخص الآلهة سوى هذا الإيمان.

وهو لا يؤكد شـيئًا، ولأفكاره دائمًا وجهان، وجه يفترض وجود الله والروح، ووجه آخر يفـتـرض أنهمـا غـيـر مـوجـودين، فـهـو يقـول مـثـلاً: «الدنيـا إمـا أن تكون أخـلاطًا من الذرات تجـتـمـع حينًا وتفـتـرق حينًا آخر، وإمـا أن تكون وحدة منسـقـة خـاضـعـة لقـوانين النظـام والعنـايـة، فـإذا صح الـرأى الأول فلمـاذا أطلب البـقـاء حـيث الطبـيـعـة فـوضى والأشيـاء تخبط خبط العشواء فى اجتماعها وتفرقها؟ ولماذا أُعنى بأى شىء آخر غير عـودتى إلى عنصـر الأرض فى أسـرع وقت مـسـتـطاع؟ ولماذا أجـشـم نفـسى المتـاعب وأسومها العذاب؟ فلأعمل ما أريد فإن عناصرى ستتبدد وتتفرق. ولكن إذا كانت هناك عناية فإنى سأكون حاكم الدنيا العظيم وأطمئن إلى رعايته وألوذ بحماه».

ويقول فى منـاجاة أخرى : «اعمل وتحدث وفكر كأنك معرض للموت فى كل لحظة من لحظات حـيـاتك. ومـاذا فى الموت مما يروع ويهـول؟ إذا كانت هـنـاك آلهة، فـإنك لن تعذب لأنها لا تمسك بسوء، وإذا لم يكن هناك آلهة أو كانت لا تحفل بالمخلوقات الفانية أمثالنا فإن عالمًا بغير آلهة ولا عناية إلهية لا يستحق أن يعاش به، ولكن الواقع أن وجود الآلهة واهتمـامهـا بأمور البشـر من المسائل التى لا خـلاف فيـهـا، وقـد منحت الإنسـان القدرة على تجنب الكوارث الحقيقية..».

ولم يسـتطع (أوريليوس) أن يخـرج من هذه الحـيرة، ويطمـئن إلى حل نهـائى لهذه المشكلة، وهذا هو مصدر مأساة حياته الأخلاقية، فكان هناك صراع دائم فى نفسه بين اليقين وبواعث الشك، وكان هذا اليقين الذى لايفتـأ يطارد الشك ويغـالبه مصدر همه ونصـبـه وعـذابه وآلامـه، وقـد ظل كـذلك إلى النهـايـة يشك ويؤمن، ويحـارب إيمـانه الشكوك، وقد مات وهو فى غمرة الهيجاء ونقعها المثار، ولكنه لم ينهزم!

وقد كان فى بعض الأحايين يسمو إلى القمم العالية حيث الصمت الذى لا تصل إليه ضجة الأرض وضوضاؤها، والهدوء الذى لا تشوبه عواطف الأهواء والشهوات، والحكيم الذى يظل متوغلاً فى تلك الأعالى والمرتفعات لا مفر من أن يقضى على إرادة الحياة فى نفسه، وإذا قضى الإنسان على إرادة الحياة فى نفسه فقد قضى كذلك على ارادة الفضيلة وإرادة الخير، وقد استطاع (أوريليوس) أن يقمع أهواءه، ويروض جماح نفسه، ولكن نبع الحب والعطف ظل فى نفسه عذبًا فياضًا يذكرنا بتلك الأسطورة التى تروى عن «ساكيا مونى» البوذا، وذلك أنه فى خلال السنوات الطويلة التى قضاها فى الصحراء جالسًا بغير حراك كانت عيناه معقودتين بالسماء، وكان دائم التفكير فى الأبدية حتى قارب الوصول إلى «النرفانة»، وتصلبت مفاصل ذراعيه المدودتين وطارت فوقه خطاطيف، فلما رأته ثابتًا لا يتحرك ظنته حجرًا أو جذع شجرة، فعششت فى راحة يده، وكانت تعود إليها فى كل ربيع، ولكنها فى يوم من الأيام طارت لكى لا تعود مرة أخرى، فلما عرف ذلك هذا الذى أخمد فى نفسه كل رغباته، وقمع إرادة الحياة والذى أصبح لا يألم ولا يفكر، واستمتع بهدوء النرفانة عز عليه فراق الخطاطيف فطفرت الدموع من عينيه.

وهكذا القلب البشرى ـ كما يقول الكاتب الروسى الكبير (مرزكوفسكى) فى مقاله القيم عن (أوريليوس) ـ «لا يصل إلى الهدوء المطلق والحكمة الخالصة لأنه لا يستطيع أن يحرم على نفسه الحب» وربما كان هذا الضعف هو مصدر قوته وآية مجده وعظمته.

ويُعد (أوريليوس) واحدًا من كبار ممثلى الفلسفة الرواقية التى وضع أساس مذهبها (زينون القبرصى) حوالى سنة ٢٩٠ قبل الميلاد فى أثينا، وكان لهذا المذهب تأثير بعيد المدى فى تاريخ الدولة الرومانية، وقد استجاب الرومان لهذا المذهب الفلسفى بوجه خاص لأن نزعته العملية كانت تلائم المزاج الرومانى، فالرومانيون كانوا يؤثرون حياة العمل على حياة الفكر، والفلسفة الرواقية لا توجه عنايتها إلى مشكلات ما وراء الطبيعة وإنما تتناول مشكلات الحياة الراهنة، وتحاول أن تضع أساسًا أخلاقيًا عمليًا لحياة الإنسان، وتبصره كيف يفيد من حياته فى الكون على الوجه الأكمل، وقد استأثرت هذه المشكلة بجانب كبير من تفكير أفلاطون وأرسطو، ولكنهما يربطان بحوثهما الأخلاقية والسياسية ببحوث ما وراء الطبيعة، فى حين أن الفلسفة الرواقية

تقرن الفلسفة بواقع الحياة، وتُعنى بالمسائل الفكرية من ناحية تأثيرها على الحياة العملية. والفضيلة عند الرواقيين قائمة على أن يعيش الإنسان طبقًا لقوانين الكون، وقد حاولوا تفسير العالم الطبيعي لكي يحرروا أذهان الناس من الخوف والاعتقاد بالخرافات، وآثروا النظرية الذرية التي أيدها (ديموقريطس) لأنها تجعل لكل شيء سببًا طبيعيًا، على أن (أوريليوس) لم يكن رواقيًا خالصًا فقد أخذ من الذهب الرواقي ما يلائم تفكيره ويرضي نوازعه، وأفاض على الرواقية من شخصيته ما لطف من جفائها وألان من حدتها، واستخلص جوهرها، وعاش حياته طبق ما اقتبسه من تعاليمها وارتضاه لتكون له منهج حياة، ولقد وسع (أوريليوس) نطاق الفلسفة الرواقية وبث في تعاليمها روحًا إنسانية كانت تفتقدها، وقد سجل خواطره في كتاب (التأملات) الذي كتبه على الأرجح لنفسه لا ليقرأه الناس.

ومن المشكلات التي حاولت المذاهب الفلسفية أن تواجهها مشكلة أصل الشر، وخطورة هذه المشكلة أنها أول اعتراض يوجه إلى مسألة وجود العناية الإلهية الشاملة للكون، وقد واجه الرواقيون هذه المشكلة في جرأة، وأنكروا الوقائع، وقالوا إن العالم كامل لا عيب فيه ولا نقص، وكل ما نسميه شرًا لازم لوجود الخير العام، و(أوريليوس) يقر (الرواقيين) على هذا الرأي ويقول: «هل قثاؤك مر الطعم؟ إذن دعه، وهل هناك شجر شائك في طريقك؟ إذا كان الأمر كذلك فتجنبه، وإلى هنا تكون قد أحسنت الصنيع، ولكن لا تسأل «ما هذه الدنيا التي تحوي مثل هذه الأشياء؟ وذلك لأن الفيلسوف الطبيعي سيضحك منك، وسيكون في احتجاجك هذا من الصواب مثل ما في محاولة إيجاد خطأ في عمل النجار لأنه يساقط النشارة أو عمل خائط الثياب لوجود خرق في حانوته».

ومعنى ذلك أنه ليس هناك شر مطلق، والشر الموجود تابع للخير. ويقول (أوريليوس): «إن الشر بوجه عام لا يضر الكون، وكذلك في الموضوعات الخاصة لا يؤذي أحدًا، إنه لا يتعب إلا من كان يستطيع أن يتخلص منه في أي وقت يشاء».

وفي بعض الخواطر لا يشير (أوريليوس) إلى القانون العام الذي يعده العناية الإلهية التي تشمل الكون برعايتها، وإنما يشير إلى وجود الآلهة التي توجه الأشياء كلها أحسن توجيه، ولكنه، في الوقت نفسه، لا يؤكد تأكيدًا قاطعًا، فهو متردد بين الآلهة وبين الذرات، أو بين العناية الإلهية وبين المصادفة، وهو يكثر من ذكر العناية الإلهية، ولكنه يرينا، في الوقت نفسه، أن الإنسان يستطيع أن يكون قانعًا في ظل المصادفة.

ولا يتحدث عن الحياة الأخرى حديث الواثق المستيقن، والروح لا تهلك فى رأيه لأنها جزء من الألوهية، ولكن مسألة الحياة الأخرى من المسائل التى لم يكثر من إثارتها، والحياة الحاضرة هى مناط اهتمامه، وهو مع ذلك يستخرج من زوال الحياة وقصر مدتها معنى أخلاقيًا نبيلاً، فلا يقول: «لنأكل ونشرب لأننا سنموت غدًا»، وإنما يقول«لنحسن الاستفادة من هذه الحياة فليس لنا حياة سواها» وعزاؤنا الوحيد عند الموت فى شعورنا بالقيام بالواجب المنوط بنا، فإذا كانت حياتنا صالحة خيرة فلنقنع بالموت سواء أكثرت سنوات عمرنا أم قلت. وكان (أبيقور) يوصى أتباعه بأن يشعروا وهم يودعون الحياة شعور الضيف الخارج من المأدبة وقد شبع واستمتع، ولكن الرواقيين يرون أن يكون وداع الناس للحياة كوداع الممثل للمسرح بعد أن يقوم بأداء دوره، ويقول (أوريليوس) فى تأملاته: «أعرنى سمعك، أيها الصديق، لقد كنت من مواطنى هذه المدينة العظيمة، فماذا يهم أقضيت بها خمس سنوات أم قضيت ثلاث سنوات ليس غير؟ إذا كنت قد راعيت قوانين التعاون فإن طول الزمن أو قصره لا يحدث فرقًا، فما وجه الغبن إذا كانت الطبيعة التى أنبتتك هنا تأمر بإزالتك؟ لا تستطيع أن تقول إن الذى أقصاك طاغية مستبد أو قاض ظالم، كلا، إنك تترك المسرح دون أن يلحقك ظلم كما يتركه الممثل الذى أخلى سبيله سيد الحفل، ولكنك تقول إننى لم أشترك إلا فى ثلاثة فصول، والمسرحية تتم فى خمسة فصول، ولكنه فى الحياة تكمل المسرحية الفصول الثلاثة، والذى أمر بتمثيل المنظر الأول أصدر أمره بإنهاء المسرحية، ولست محاسبًا على إدخالك المسرح أو على إخراجك منه، فقرَّ عينًا بانسحابك فإن الذى أخرجك راض وقانع مثلك».

ويقول فى خواطره عن قبول الإنسان لما يكون: «كل ما يحدث عادى ومألوف مثل الورد فى الربيع أو مثل التفاح فى الخريف، ومن هذا القبيل الأمراض والنمائم والخداع وكل الحمقى أو من يثير نقمتهم».

ويعود إلى تأكيد ذلك فى خاطرة أخرى فيقول : «لا شىء يصيب الإنسان إلا وفى استطاعته أن يحتمله، وبعض الناس قد تعرضوا لمحن جد قاسية واستطاعوا احتمالها بشجاعة دون أن تنال منهم، إما لأنهم أقل فهمًا لها، وإما لأن عندهم كبرياء أكثر من غيرهم. ومما يزرى بنا وينتقص من كرامتنا أن يكون الجهل أو الغرور أجدى علينا من الحكمة».

ويقول : «كل ما يصيبك قد قسم لك من الأبدية، وهذه السلسلة من الأسباب التى يتكون منها القدر، قد ربطت وجودك بوقوع الحوادث التى تحدث لك». ويتحدث فى الكتاب الأول عن ما لأقربائه وأساتذته عليه من فضل، فيقول عن جده لأبيه: «لقد كان جدى لأبى (فيروس) قدوتى فى النزوع إلى الخير ومجافاة الغضب». ويقول عن أبيه وأمه: «بتذكرى لأخلاق والدى تعملت أن أكون متواضعًا مُوَطَّأ الكنف، وأن أكون ناهض الهمة، أما والدتى فقد علمتنى احترام الدين وأن أكون كريمًا سخيًا ولا أمتنع عن الإساءة إلى أى إنسان وحسب، بل لا أُجيل بفكرى خاطر الإساءة إلى أحد على الإطلاق، ومنها تعلمت أن أعيش عيشة بسيطة بعيدة عن البذخ والإسراف، كما أشكر جدى الأعلى لوالدى لأنى لم أذهب إلى مدرسة عامة، بل أحضر لى مدرسين صالحين وتعلمت أن على الإنسان أن ينفق بسخاء فى هذا السبيل».

ويشيد بما أفاده من تعليم (دايوجنيتس) و(راستيكاس) و(أبولونياس) و(سيكتوس) و(فرونتو) و (الإسكندر الأفلاطونى).. وغيرهم.

ووجه مرة إلى نفسه هذا اللوم «لقد نسيت رابطة القرابة المقدسة التى تربط كل إنسان بالنوع البشرى، وليست هى قرابة الدم والولد، وإنما هى قرابة المشاركة فى الفهم نفسه والإدراك، وقد غاب عنك أن الروح العاقلة لكل إنسان مستمدة من الله، وأننا لا نملك ما لنا، فأطفالنا وأجسادنا وأنفسنا كلها مستعارة من السماء، كل ذلك على ما يظهر قد نسيته».

وفى يوم آخر يظهر أن الناس أفرطوا فى الإساءة إليه، فقد كتب فى سجله الخالد حينما ثاب إلى نفسه فى هدأة الليل «هكذا نظام الطبيعة، والناس من هذا الطراز لا يستطيعون العدول عن ذلك، وليس لهم فيه حيلة ولا عنه مذهب، وتعجبنا من ذلك يشبه دهشتنا حينما نرى شجرة التين وهى تحمل التين، وتذكر أنك أنت وخصمك بعد فترة جد قصيرة سيمضى بكما الموت وسرعان ما يغمر اسميكما النسيان».

وفى الخاطرة الثلاثين من الكتاب السادس يقول لنفسه: «حاذر حتى لا تصبح قيصرًا، وتصطبغ بتلك الصبغة، وهذا من الأمور التى يسهُل الانغماس فيها، فانظر لنفسك، وكن صريحًا مخلصًا مستمسكًا بالفضيلة ملازمًا التواضع متحريًا الجد، والوقار، وانشد العدل والصلاح، وترفق بالناس، وعاملهم باللين، واجتهد فى أداء الواجب، واعمل على أن تكون كما ترضى لك الفلسفة، واحترم الآلهة وادفع السوء عن

البشر، وهذه الحياة قصيرة المدى، وكل ما تستطيع أن تغنمه من فوائدها هو التقوى والأعمال النزيهة الخالصة، ولتكن قدوتك فى أعمالك جميعًا أستاذك (أنطونيوس)، فتشبه به فى اتباعه الدائم لما يوصى به العقل، وسر على منهج واحد فى مختلف الظروف والأحوال، وطهارة نفسه وهدوء نظرته ورقة روحه وعذوبتها، واحتقاره للشهرة والمظهر الكاذب، وحرصه الكريم على أن يتعرف عمله ويستجلى أسراره، ويخلص إلى دخائله وانظر كيف كان لا يغادر موضوعًا من الموضوعات إلا بعد أن يوسعه بحثًا وتنقيبًا ويحيط بكلياته وجزئياته، ويستوعبه استيعابًا فلا تند عنه شاردة ولا واردة، وكيف كان يتحمل ما يوجه إليه من اللوم والتأنيب الظالم دون أن ينبس بكلمة، وكيف كان يستأنى ولا يتعجل فى عمل أى شىء، وكيف كان يسد أذنيه عند سماع السوء، وكيف كان ينظر إلى أعمال الناس وأخلاقهم ويدرسها دراسة منزهة عن سوء الظن والرغبة فى استنباط العيوب والتهدى إلى المساوئ والميل إلى السفسطة والمغالطة، وكيف كان يرعى الاقتصاد فى بيته وفراشه وملبسه وطعامه وخدمته، وكان دأبه الصبر والجلَد والعكوف على العمل حتى المساء، وتذكر حبه لأصدقائه وكيف كان يحتمل المعارضة والسرور الذى كان يلم بنفسه حينما كان يأخذ الرأى الذى يفضل رأيه، وتقواه التى لم يكن بها أدنى أثر للاعتقاد بالخرافات، فكر فى ذلك كله، وتشبَّه به فى هذه الصفات جميعها حتى تلقى ساعتك الأخيرة بنفس مطمئنة، وضمير خالص كما لقيها».

ويقول فى الخاطرة الخامسة من الكتاب الثانى: «لتذكر دائمًا أنك رجل رومانى، ولتؤد كل عمل تضطلع به بجدية غير متكلفة وإنسانية وحرية وعدالة، وانظر لنفسك حتى لا تسترسل مع الأوهام التى قد تقف حجر عثرة فى سبيل تلك الصفات، وهذا فى استطاعتك إذا كنت تقوم بأى عمل كأنه آخر عمل تتولى إنجازه، وإذا كانت شهواتك وأهواؤك لا تضغط على عقلك، وإذا خلت نفسك من عدم الإخلاص وحب الذات، وإذا لم تشتك من مصيرك، وترى من ذلك أنه ليس على الإنسان إلا اتباع أشياء قليلة ليبلغ فى الحياة المستوى الذى يرضى الآلهة، لأن الذى يصل إلى المدى يؤدى كل ما تطلبه القوى الخالدة».

ويقول فى الخاطرة السابعة من الكتاب نفسه: «لا تدع الأحداث تزعجك، ولا تمكِّن الأشياء الخارجية من أن تستغرق أفكارك، واعمل على الاحتفاظ بهدوء عقلك، وصفاء تفكيرك، حتى يكون فى مكنتك أن تتعلم شيئًا حسنًا، ودع الانتقال من شىء إلى شىء

على غير هدى، وهناك نوع آخر من هذا التجوال يحسن تجنبه، لأن بعض الناس يبدو أنهم مشغولون ولكنهم لا يصنعون شيئاً، وهم يرهقون أنفسهم، ويبددون قواهم، ولا يقصدون بلوغ غاية أو تحقيق مطلب».

ويقول فى الخاطرة الثامنة: «يندر أن يكون الإنسان غير سعيد لأنه يجهل أفكار غيره من الناس، ولكن هذا الذى لا يتعرف أفكاره هو الشقى حقًا».

وفى الخاطرة السابعة من الكتاب الثالث: «لا تحسب أنك تظفر بفائدة من نقض وعد، أو نكث عهد، أو ترك التواضع، أو بالكراهة وسوء الظن أو بلعن أى إنسان أو بالميل إلى عمل لا يحتمل الضوء ولا يقوى على مواجهة الدنيا، لأن الذى يقدر قيمة عقله ويضع عبادة آلهته المقدسة فوق كل شىء ليس فى حاجة إلى أن يقوم بعمل محزن ولا يستذله خطب، وليس فى حاجة إلى العزلة أو الصحبة، وأكثر من ذلك أنه لا يفر من الحياة، ولا يجرى وراءها ولا يبالى بطول الزمن أو قصره الذى تسكن فيه روحه جسده، وإذا قدر له أن يسلم روحه فى هذه اللحظة فإنه سيكون مستعدًا لذلك استعداده لأى عمل آخر يمكن أن يؤديه فى تواضع ورفق، ولأن هذا ديدنه الوحيد طوال حياته - وهو أن يكون عقله مشغولاً على الدوام بما يليق بمخلوق اجتماعى عاقل».

ويقول فى الخاطرة الثامنة من الكتاب نفسه : «إذا اختبرت إنسانًا قد صقلته الفلسفة، وهذبته، فإنك لن تجد فيه شيئًا غير سليم أو ضعة أو زيفًا، ولا يستطيع أن يفجأ حياته ناقصة، ومن ثم لا يستطيع إنسان أن يقول إنه قد ترك المسرح قبل استيفاء لعب دوره، وفضلاً عن ذلك فإنه ليس فيه شىء من الصَّغَار أو التكلف، وهو لايرتبط بغيره ارتباطًا وثيقًا، ولا يتجنب الناس ويعتزلهم».

وفى الخاطرة الثالثة من الكتاب الرابع : «من عادات الناس المألوفة أن يلوذوا فى الاعتزال بالأماكن التى لا يأوى إليها أحد، أو يذهبوا إلى شاطئ البحر والجبال التماسًا للعزلة، وهذا ما التمسته فى أغلب الأوقات وحرصت عليه، ولكن بعد كل شىء إن هذا مجرد وهم من الأوهام الدارجة، لأنه فى وسعك أن تلوذ بحمى نفسك حيثما تريد ذلك، وعقل الإنسان هو أكثر الأمكنة تحررًا من الجماعات ومن ضوضاء الدنيا إذا كانت أفكار الإنسان من هذا النوع الذى يكفل له السكينة التامة، وقوام هذه السكينة حسن تنظيم العقل، ولذلك فإن الطريق الذى تسلكه هو أن تعمل على الاستفادة من هذه العزلة، وتجدد فضيلتك فى ظلالها، ولكى تحقق هذه الغاية عليك أن تزود نفسك

بطائفة من التعاليم لا نزاع فيها لكى يستقيم فهمك، وتعود إلى عملك راضيًا قانعًا، ومن أمثلة ذلك الشر الذى يزعجك، فإذا واجهك هذا الشر فما عليك إلا أن تتناول الترياق المضاد له وتفكر فى أن الكائنات العاقلة إنما وجدت للتعاون على ما ينفع الجميع، وأن اصطناع الأناة جزء من العدالة، وأن الناس لا يحسنون السلوك لأنهم مغلوبون على أمرهم، وفكر كذلك فى كم من الناس قد تورطوا فى مشكلات وقضوا أيامهم فى منازعات، وسوء ظن وعداوات، وهم الآن موتى قد حرقت جثثهم، ولم يبق منها سوى الرماد فاهدأ، ولا تعكر صفو نفسك بعد ذلك، وربما كان توزيع الدنيا لا يرضيك، وعليك فى هذه الحالة أن تفكر فى الجانب الآخر، فالعناية الإلهية أو الذرات هى المسيطرة على الكون، وفضلاً عن ذلك فإنك قد تذكر البراهين التى تثبت أن الدنيا كما هى مدينة عظمى وجماعة متعاونة، ولكن ربما كانت حالتك الصحية هى التى تؤلمك، وفكر فى هذه الحالة أن عقلك لا يتأثر بخشونة تيارات الإحساسات أو بنعومتها إذا خلا بنفسه وفكر فيما له من مزايا وقدرة، وحينما يقوم بذلك فلتذكر فلسفة اللذة والألم التى أصغيت لها ووافقت عليها حتى فى تلك اللحظة، وقد يكون طلب الشهرة هو الذى أثار همك وشغل بالك، فإذا كان هذا مثار نقمتك فلتفكر فى أن الأشياء سرعان ما تختفى ويجر عليها النسيان أذياله، وأى فوضى هائلة على جانبى الأبدية، التهليل والتصفيق! فكر فى فراغ الصوت وعدم استقرار الأملاك وضآلة حكم هؤلاء الذين يعطونه لنا وضيق نطاقه، لأن عالمنا الأرضى كله ليس سوى نقطة واحدة، وفي الحيز الصغير ما أضأل مكان إقامتك، وما أهون شأن هؤلاء المعجبين بك، ومهما يكن من الأمر فلا تنس أن تلوذ بعالمك الصغير المحدود، وعليك قبل كل شيء ألا تستعين بالضغط أو المجاهدة في هذا السبيل، بل تقوم فى حرية وفكر فى الأمر بوصفك كائنًا بشريًا ومواطنًا وإنسانًا فانيًا، ولتضع نُصّب عينك من بين ذخائرك حكمتين، هما:

أولاً: أن الأشياء لا تستطيع أن تزعج الروح، بل تظل فى الخارج مسلوبة الحركة، وأن الإزعاج وإحداث الاضطراب يأتيان من الرأى الذى يجول فى الروح.

وثانيًا: أن تفكر أن المنظر آخذ فى التحول والانزلاق إلى العدم، وأنك أنت نفسك قد رأيت تغيرات كثيرة، وموجز القول إن الدنيا كلها تحول وانتقال والحياة رأى».

وفى الخاطرة العاشرة من الكتاب الرابع: «كن على بينة من أن الحوادث تسير سيرًا عادلاً، وإذا أحسنت النظر فى الأمور فلن تدرك ارتباط الأسباب بالمسببات

وحدها، بل ستعلم أن هناك توزيعًا للعدالة مشرفاً على إدارة الشئون الدنيوية يعطى كل شيء حقه فراقب الأمور كما بدأت، ولتكن أعمالك مطابقة لأعمال الرجل الصالح - وأقصد الرجل الصالح فى عرف الفلسفة ومعناها الدقيق».

ويقول فى خاطرة أخرى : «أليس لك عقل فى رأسك؟ نعم، إنك قد رزقت عقلاً فلماذا إذن لا تنتفع به؟ لأنه إذا كانت هذه الموهبة - موهبة العقل - تقوم بوظيفتها فإنى لا أرى ماذا تحتاج إليه أكثر من ذلك».

ويقول : «فى الوقت الحاضر، طبيعتك واضحة متميزة، ولكنك عما قليل ستختفى فى الكل، أو بالأحرى ستعود إلى العقل العام الذى وهبك الوجود».

ويقول : «لا تعمل كأنك ستطوى عشرة آلاف سنة، فإن الموت واقف لك بالمرصاد على كثب منك، فلتكن صالحًا لعمل شيء خلال أيام حياتك، وهذا فى وسعك».

ويقول : «لا تفقد اتزانك ولا تخبط خبط العشواء، ولتكن نياتك مخلصة ومعتقداتك أكيدة».

ويقول : «ضع نفسك بغير تردد فى يد القدر ودعه يهيئ لك ما تريد من الحظ»، «الذى يقوم بعمل مجيد والذين يتحدثون عن هذا العمل جميعهم أشياء قصيرة العمر سريعة الزوال».

وهكذا يشير الإمبراطور الفيلسوف فى مختلف خواطره وتأملاته التى كتبها ليقوى بها على مواجهة الحياة ولقاء الموت، إلى الاكتفاء بحسن السير وصفاء السريرة والقيام بالواجب على أحسن الوجوه، وحسب الإنسان ذلك فى رحلته الأرضية القصيرة المدى السريعة الزوال.

الزِّيج الصابئ

أول جدول فلكى يحتوى على معلومات صحيحة ودقيقة وأرصاد كان لها أكبر الأثر فى علم الفلك.

البتـانى

(٩١١ م)

لا يستغنى الإنسان منذ فجر التاريخ عن استخدام العناصر الفلكية فى كثير من مرافق حياته وحتى الآن نجد لدى أفراد الشعوب البدائية معلومات فلكية متناثرة بسيطة، إلا أنها أساسية بالنسبة لحياتهم، وتعينهم فى معاشهم وأمور دنياهم. فهم غالبًا لا يخرجون للقنص أو لصيد الأسماك، ولا يزرعون، ولا يتأهبون للنهب أو للسلب إلا تبعًا لتوفير ظواهر معينة يشاهدونها أو يرصدونها فيما علاهم من سماء أو فى جو الأرض.

ويبدو أن معرفة الإنسان ببعض حالات السماء وتطلعه إليها نشأت منذ القدم، وتدرجت هذه المعرفة من وسواس وأوهام، إلى عمليات رصد فعلية، وساعد قيام حكومات قوية فى الصين ومصر وبابل على تطور هذا العلم فى تلك البلاد. ونهضت شعوبها القديمة بالفلك، وأمكن توفير سلسلة طويلة من الأرصاد بنيت عليها فى النهاية أسس ذلك العلم وشيدت دعائمه.. إلا أنه فى الواقع لم يحدث تقدم نظرى فى هذا الصدد حتى عهد الإغريق الذين بدءوا بإجراء التجارب وإعمال الفكر والمنطق لتحقيق ما ظهر من نظريات.

مآثر العرب فى الفلك

لم يعرف العرب قبل العصر العباسى شيئًا يذكر عن الفلك، اللهم إلا فيما يتعلق برصد بعض الكواكب، والنجوم الزاهرة وحركتها وأحكامها بالنظر إلى الخسوف، وعلاقتها بحوادث العالم من حيث الحظ والمستقبل والحرب والسلم والمطر والظواهر الطبيعية، وكانوا يسمون هذا العلم - إن صح أنه علم - الذى يبحث فى هذه الأمور (علم التنجيم). ومع أن الدين الإسلامى قد بين فساد الاعتقاد بالتنجيم وعلاقته بما يجرى على الأرض، إلا أن ذلك لم يمنع الخلفاء ولا سيما العباسيون فى بادئ الأمر أن يعتنوا به، وأن يستشيروا المنجمين فى «كثير من أحوالهم الإدارية والسياسية - فإذا

خطر لهم عمل وخافوا عاقبته، استشاروا المنجمين فينظرون فى حالة الفلك واقترانات الكواكب، ثم يسيرون على مقتضى ذلك. وكانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك، يراقبون النجوم ويعملون بأحكامها قبل الشروع فى أى عمل حتى الطعام والزيارة»(١).

ومما لاشك فيه : أن علم الفلك تقدم تقدمًا كبيرًا فى العصر العباسى كغيره من فروع المعرفة، وكانت بعض مسائلة مما يطالب المسلم بمعرفتها، كأوقات الصلاة التى تختلف حسب الموقع ومن يوم إلى يوم، ولا يخفى أن حسابها يقتضى معرفة عرض الموقع الجغرافى، وحركة الشمس فى البروج، وأحوال الشفق الأساسية، وفوق ذلك: فاتجاه المسلمين إلى الكعبة فى صلواتهم يستلزم معرفتهم سمت القبلة (أى حل مسألة من مسائل علم الهيئة الكرى، مبينة على حساب المثلثات»(٢). وهناك صلاة الكسوف أو الخسوف التى تقتضى معرفتها، معرفة حساب حركات النيرين واستعمال الأزياج(٣) الدقيقة. وهناك ـ أيضًا ـ هلال رمضان، وأحكام الشريعة والصوم «حملت الفلكيين على البحث عن المسائل العويصة المتصلة بشروط رؤية الهلال، وأحوال الشفق، فبرزوا فى ذلك واخترعوا حسابات وطرقًا بديعة، لم يسبقهم إليها أحد من الهنود والفرس.

أضف إلى هذا كله شغف الناس بالتنجيم، كل هذا ساعد على الاهتمام بالفلك والتعمق فيه تعمقًا أدى إلى الجمع بين مذاهب اليونان والكلدان والهنود والسريان والفرس، وإلى إضافات مهمة لولاها لما أصبح علم الفلك على ما هو عليه الآن.

قد يستغرب القارئ إذا علم أن أول كتاب فى الفلك والنجوم ترجم عن اليونانية إلى العربية لم يكن فى العهد العباسى، بل فى زمن الأمويين قبل انقراض دولتهم فى دمشق بسبع سنين، ويرجح الباحثون أن الكتاب هو ترجمة لكتاب «عرض مفتاح النجوم» والمنسوب إلى (هرمس الحكيم). والكتاب المذكور: موضوع على تحاويل سنى العالم وما فيها من الأحكام النجومية.

وأول من عُنى بالفلك وقرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم (أبو جعفر المنصور)، الخليفة العباسى الثانى. وبلغ شغفه بالمشتغلين بالفلك درجة جعلته يصطحب معه دائمًا (نوبخت الفارسى)، ويقال إن هذا لما ضعف عن خدمة الخليفة أمره (المنصور) بإحضار ولده ليقوم مقامه فسير إليه ولده (أبا سهل). وكان فى حاشية (المنصور) من المنجمين

غير (أبى سهل) أمثال (إبراهيم الفزارى المنجم) وابنه (محمد) و(على بن عيسى الأسطرلابى المنجم) وغيرهم.

و(المنصور) هو الذى أمر أن ينقل كتاب فى حركات النجوم، مع تعاديل معمولة على درجات[٤]، محسوبة لنصف درجة، مع ضروب من أعمال الفلك من الكسوفيين ومطالع البروج وغير ذلك. وهذا الكتاب عرضه عليه رجل قدم عام ١٥٦ هجرية من الهند قيم فى حساب السندهنتا، وقد كلف (المنصور) (محمد بن إبراهيم الفزارى) ترجمته وعمل كتاب فى العربية يتخذه العرب أصلاً فى حركات الكواكب، وقد سماه المنجمون (كتاب السند هند الكبير) الذى بقى معمولاً به إلى أيام المأمون وقد اختصره (الخوارزمى) وصنع منه زيجه الذى اشتهر فى كل البلاد الإسلامية «.. وعول فيه على أوساط السند هند وخالفه فى التعاديل والميل، فجعل تعاديله على مذهب الفرس، وميل الشمس فيه على مذهب (بطلميوس)، واخترع فيه أنواع التقريب أبوابًا حسنة، استحسنه أهل ذلك الزمان وطاروا به فى الآفاق». وفى القرن الرابع للهجرة، حول «مسلمة بن أحمد المجريطى» الحساب الفارسى إلى الحساب العربى.

زاد اهتمام الناس بعلم الفلك وزادت رغبة (المنصور) فيه، فشجع المترجمين والعلماء، وأغدق عليهم العطايا، وأحاطهم بضروب من العناية والرعاية. وفى مدة خلافته، نقل (أبو يحيى البطريق) (كتاب الأربع مقالات لبطلميوس) فى صناعة أحكام النجوم، ونقلت كتب أخرى هندسية وطبيعية أرسل (المنصور) فى طلبها من ملك الروم. واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين أتوا بعده فى نشر العلوم وتشجيع المشتغلين بها، فلقد ترجم المشتغلون ما عثروا عليه من كتب ومخطوطات للأمم التى سبقتهم، وصححوا كثيرًا من أغلاطها وأضافوا إليها، وفى زمن (المهدى) و(الرشيد) اشتهر علماء كثيرون فى الأرصاد، أمثال : (ما شاء الله) الذى ألف فى الأسطرلاب ودوائره النحاسية، (أحمد بن محمد النهاوندى). وفى زمن (المأمون) ألف (يحيى بن أبى منصور) زيجًا فلكيًا مع (سند بن على)، وهذا - أيضًا - عمل أرصادًا مع (على بن عيسى) و (على بن البحترى) وفى زمنه - أيضًا - أصلحت أغلاط (المجسطى) لبطلميوس، وألف (موسى بن شاكر) أزياجه المشهورة، وكذلك عمل (أحمد بن عبدالله بن حبش) ثلاثة أزياج فى حركات الكواكب، واشتغل (بنو موسى) بحساب طول درجة من خط نصف النهار، بناء

على طلب الخليفة المأمون. وفى ذلك الزمن وبعده، ظهر علماء كثيرون لا يتسع المجال لسرد أسمائهم جميعًا.

والآن نأتى إلى مآثر العرب فى الفلك فنقول :

بعد أن نقل العرب المؤلفات الفلكية للأمم التى سبقتهم، صححوا بعضها ونقحوا الآخر وزادوا عليها. ولم يقفوا فى علم الفلك عند حد النظريات، بل خرجوا إلى العمليات والرصد.

إن ارتفاع القطب يساوى عرض المكان، وهذه مسألة عظيمة الأهمية فى أعمال المساحة وغيرها، ولسنا بحاجة إلى القول إن تعيين ارتفاع القطب على وجه التحقيق، يتطلب استنباط طرق دقيقة للرصد والحساب، خالية أو بعيدة عن الخطأ. ولقد تم لبعض علماء العرب (كابن الهيثم) النجاح فى إيجاد هذه الطريقة التى وردت فى بعض رسائله، (رسالة ارتفاع القطب).

والعرب أول من استخرج بطريقة علمية طول درجة خط النهار، فقد وضعوا طريقة مبتكرة لحسابها أدت إلى نتائج قريبة من الحقيقة، ويعدها العلماء (من أجلِّ آثار العرب فى ميدان الفلكيات)، والطريقة وردت فى الكتب العربية على صورتين الأولى : فى الباب الثانى من (كتاب الزيج الكبير الحاكمى لابن يونس)، وقد نقلها (نللينو)[٥] بحرفها عن النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بمكتبة ليدن، وهى كما يلى:

و... الكلام فيما بين الأماكن عن الذَّرْع. ذكر (سند بن على) فى كلام وجدته له إن (المأمون) أمره هو و(خالد بن عبدالملك المروذى) أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دوائر سطح الأرض قال : فسرنا لذلك جميعًا وأمر (على بن عيسى الأسطرلابى) و(على بن البحترى) بمثل ذلك، فسارا إلى ناحية أخرى. قال (سند بن على) : فسرت أنا و(خالد بن عبدالملك) إلى ما بين (واسط) و(تدمر)، وقسنا هنالك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بسطح كرة الأرض، فكان سبعة وخمسين ميلاً، وقاس (على بن عيسى) و(على بن البحترى) فوجد مثل ذلك، وورد الكتابان من الناحيتين فى وقت بقياسين متفقين.

«وذكر أحمد بن عبد الله المعروف بحبشى فى الكتاب الذى ذكر فيه أرصاد أصحاب الممتحن بدمشق، أن (المأمون) أمر بأن تقاس درجة من أعظم دائرة من دوائر بسيط كرة الأرض، قال : فساروا لذلك فى (برية سنجار) حتى اختلف ارتفاع النهار بين

القياسين فى يوم واحد بدرجة، ثم قاسوا بين المكانين... ميلاً وربع ميل، منها أربعة آلاف ذراع بالذراع السوداء التى اتخذها (المأمون). وأقول أنا وبالله التوفيق: إن هذا القياس ليس بمطلق، بل يحتاج مع اختلاف ارتفاعى نصف النهار بدرجة، إلى أن يكون القائسون جميعًا فى سطح دائرة واحدة من دوائر نصف النهار، والسبيل إلى ذلك بعد أن نختار للقياس مكانًا معتدلاً ضاحيًا، أن نستخرج خط نصف النهار من المكان الذى يبتدئ منه القياس، ثم نأخذ حبلين دقيقين جيدين، طول كل منهما نحو خمسين ذراعًا، ثم نمرر أحدهما موازيًا بالخط نصف النهار الذى استخرجناه إلى أن ينتهى، ثم نضع طرف الحبل فى وسطه، ونمرره راكبًا عليه إلى حيث بلغ. ثم نرفع الحبل الأول، ونضع فى وسط الحبل الثانى ونمرره راكبًا عليه، ثم افعل ذلك دائمًا ليحفظ السمت، وارتفاع نصف النهار يتغير دائمًا بين المكان الأول : الذى استخرجنا فيه خط نصف النهار، والمكان الثانى : الذى انتهى إليه يسيرون، حتى إذا كان بين ارتفاعى نصف النهار فى يوم واحد درجة بآلتين صحيحتين تبين الدقيقة فى كل واحدة منها، قيس ما بين المكانين، فما كان من الأذرع فهو درجة واحدة من أوسع دائرة تمر ببسيط كرة الأرض. وقد يمكن أن يحفظ السمت عوضًا عن الحبلين بأشخاص ثلاثة، تسير بعضها بعضًا على سمت خط النهار المستخرج، وينقل أقربها من البصر متقدمًا، ثم الذى يليه، ثم الثالث دائمًا إن شاء الله تعالى...».

أما الرواية الثانية : فهى التى وردت فى كتاب (وفيات الأعيان لابن خلكان) عند ترجمته (لموسى بن شاكر). ويعلق (نللينو) على هذه الصورة بقوله : «... لا تخلو رواية (ابن خلكان) من شىء من الخلط والخطأ ..» ثم يوضح ذلك تفصيلاً فى كتاب (علم الفلك وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى)، ويعقب ذلك بقوله : «... والصحيح أن ما يستخرج من (زيج ابن يونس) وكتب غيره، أن جماعة من الفلكيين قاسوا قوسًا من خط نصف فى صحراوين، أى البرية عن شمالى (تدمر) وبرية (سنجار)، ثم إن حاصل العملين اختلفا فيما بين ($\frac{1}{4}$ ٥٦) من الأميال و(٥٧) ميلاً، فاتخذ متوسطها ٥٦ من الأميال تقريبًا، أى أن طول الدرجة عند الفلكى (المأمون) ١١١٨١٥ مترًا، وعلى هذا فطول المحيط ٤١٢٤٨ كم، وهو كما لا يخفى قريب من الحقيقة، (... دال على ما كان للعرب من الباع الطويل، فى الأرصاد وأعمال المساحة...».

ويقول (نللينو) : «أما قياس العرب فهو أول قياس حقيقى أجرى كله مباشرة، مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة،. واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحيين فى العمل، فلابد لنا من عداد ذلك القياس من أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة».

وقد وضع (البيرونى) نظرية بسيطة لمعرفة مقدار محيط الأرض وردت فى آخر كتابه (الأسطرلاب) كما يلى :

«وفى معرفة ذلك الطريق قائم فى الوهم صحيح بالبرهان، والوصول إلى عمله صعب لصغر الأسطرلاب وقلة مقدار الشىء الذى يبنى عليه فيه، وهو أن : تصعد جبلاً مشرفًا على بحر أو تربة ملساء ترصد غروب الشمس فتجد فيه ما ذكرناه من الانحطاط، ثم تعرف مقدار عمود ذلك الجبل وتضرب فى الجيب المستوى لتمام الانحطاط الموجود، وتقسم المجتمع على الجيب المنكوس لذلك الانحطاط نفسه، ثم تضرب ما خرج من القسمة فى اثنين وعشرين أبدًا، وتقسم المبلغ على سبعة فيخرج مقدار إحاطة الأرض بالمقدار الذى به قدرت عمود الجبل، ولم يقع بهذا الانحطاط وكميته فى المواضع العالية تجربة، وجرأنا على ذكر هذا الطريق ما حكاه (أبو العباس النيريزى) عن (أرسطوطاليس)، إن أطوال أعمدة الجبال خمسة أميال ونصف، بالمقدار الذى به نصف قطر الأرض ثلاثة آلاف ومائتان ميل بالتقريب فإن الحساب يقضى لهذه المقدمة أن يوجد الانحطاط فى الجبل الذى عموده هذا القدر ثلاث درجات بالتقريب. إلى التجربة يلتجأ فى مثل هذه الأشياء، وعلى الامتحان فيها يعول، وما التوفيق إلا من الله العزيز الحكيم».

والعرب كذلك أول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة، وقالوا باستدارة الأرض وبدورانها على محورها، وعملوا الأزياج الكثيرة العظيمة النفع، وهم الذين ضبطوا حركة أوج الشمس وتداخل فلكها فى أفلاك أخر(٦).

وزعم علماء الغرب أن آلة الأسطرلاب من مخترعات (تيخوبراهى)(٧)، مع أن هذه الآلة، والربع ذا الثقب، كانا موجودين قبله فى مرصد (المراغة) الذى أنشأه العرب، وهاهم - أى العرب - الذين حسبوا الحركة المتوسطة للشمس فى السنة الفارسية، وحسب (البتانى) ميل ذلك البروج على فلك معدل النهار، فوجده (٢٣) درجة و(٣٥) دقيقة وظهر حديثاً أنه أصاب فى رصده إلى حد دقيقة واحدة.

ودقق العرب فى حساب طول السنة الشمسية، وأخطئوا فى حسابهم بمقدار دقيقتين و٢٢ ثانية، ويعود سبب الخطأ إلى اعتمادهم على أرصاد (بطلميوس).

ودققوا فى حساب إهليلجية فلك الشمس فقالوا : إن بعد الشمس عن مركز الأرض إذا كانت فى بعدها الأبعد، يساوى ١١٤٦ مرة مثل نصف قطر الأرض، وإذا كانت فى بعدها الأقرب، يساوى ١٠٧٠ مرة مثل نصف قطر الأرض، وإذا كانت فى متوسط بعدها يساوى ١١٠٨ أمثال نصف قطر الارض.

ومن هذه الأرقام، يتبين أن النتيجة التى وصل إليها العرب - ولاسيما (البتانى) - قريبة من النتائج التى وصل إليها العلماء فى هذا العصر.

وكذلك حقق (البتانى) مواقع كثير من النجوم، وقد وجد أن مواقع بعضها تغير عما كانت عليه فى زمن (بطلميوس) ومن يقرأ كتابه ووصف أرصاده وتدقيقاته فيها، يتجلى له السبب الذى حدا بعلماء أوروبا أن يجعلوا (البتانى) فى المحل الأول بين علماء الهيئة فى كل العصور.

وقال بعض علماء العرب بانتقال نقطة الرأس والذنب للأرض، ورصدوا الاعتدالين: الربيعى والخريفى، وكتبوا عن كلف الشمس وعرفوه قبل أوروبا، وانتقد أحدهم وهو (أبو محمد جابر بن الأفلح)، «المجسطى» فى كتابه المعروف بكتاب «إصلاح المجسطى» ودعم انتقاده هذا عالم آخر أندلسى هو : (نور الدين أبو إسحق البطروجى الإشبيلى) فى كتابه «الهيئة»، الذى يشتمل على مذهب حركات الفلك الجديد.

ويقول الدكتور (سارتون) : «إنه رغم نقص هذه المذاهب الجديدة، فإنها مفيدة جدًا ومهمة جدًا، لأنها سهلت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى، التى لم يكمل نموها مثل القرن العاشر، وأوحت بحوثهم الفلكية (لكبلر) « ... أن يكشف الحكم الأول من أحكامه الثلاثة الشهيرة، وهو: إهليلجية فلك السيارات».

ولهم جداول دقيقة لبعض النجوم الثوابت، فقد وضع (الصوفى) مؤلفًا فيها وعمل لها الخرائط المصورة، جمع فيها أكثر من ألف نجم، ورسمها كوكبات فى صورة الأناسى والحيوان.

وأثبت (البتانى) النجوم الثابتة لسنة ٢٩٩ هجرية، ولهذا وغيره من الجداول منزلة عالية عند علماء الفلك فى هذا العصر، إذ لا يستغنون عنها عند البحث فى تاريخ بعض الكواكب ومواقعها وحركاتها.

وبلغت شدة ولوع العرب والمسلمين بهذا العلم حدًا جعلت بعضهم «... يصنع فى بيته هيئة السماء، وخيل للناظرين فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود...»(٨).

ووضع العرب وسائل فلكية غاية من الأهمية، يستدل من بعضها على أن بعض العلماء (كابن الهيثم) قد وُفِّق فى تبسيط سير الكواكب وتنظيمها جميعاً على منوال واحد.

وهذه الآراء الجديدة التى أدخلها (ابن الهيثم) فى العلوم الفلكية، وكانت محل إعجاب الأستاذ (فيدمان) والأستاذ (مدور)، لا تقل أهمية عن الآراء الجديدة التى نوه عنها فى الضوء، حيث أدخل خط الإشعاع الضوئى بدلاً من الخطوط البصرية.

وأخيرًا نقول: إن العرب عندما تعمقوا فى دراسة علم الفلك «... طهروه من أدران التنجيم والخزعبلات، وأرجعوا إلى ما تركه علماء اليونان علمًا رياضيًا مبنيًا على الرصد والحساب، وعلى فروض تفرض لتعليل ما يرى من الحركات والظواهر الفلكية».

أبو عبد الله البتانى

(البتانى) من علماء القرن العاشر للميلاد، وأحد الذين اشتغلوا بالفلك والرياضيات، وقد أسدوا لها أجلَّ الخدمات.

يعده الكثيرون من عباقرة العالم من الذين وضعوا نظريات مهمة، وأضافوا بحوثًا مبتكرة فى الفلك والجبر والمثلثات، ونظرة إلى مؤلفاته وأزياجه تبين خصب القريحة، وترسم لك صورة عقليته الجبارة.

اشتهر برصد الكواكب والأجرام السماوية، ورغم عدم وجود آلات دقيقة كالتى نستعملها الآن، فقد تمكن من إجراء أرصاد لاتزال محل دهشة العلماء ومحط إعجابهم.

لقد عده (كاجورى) و(هاليه) من أفذاذ علماء الرصد، وسماه بعض الباحثين (بطلميوس العرب).

وقال عنه (سارتون)، إنه من أعظم علماء عصره، وأنبغ علماء العرب فى الفلك والرياضيات ووصل إعجاب (لالاند)، العالم الفرنسى الشهير ببحوث (البتانى) ومآثره، درجة جعلته يعده من العشرين فلكيًا المشهورين فى العالم كله..

هو أبو عبد الله محمد بن جابر سنان البتانى الحرانى، ولد فى بتان فى نواحى حران، وهى مدينة واقعة على نهر البليخ، أحد روافد نهر الفرات بالعراق يقابله قرب مدينة الرقة. وتاريخ مولده موضع جدال بين العلماء المؤرخين، فيقول (سارتون) إن ذلك كان قبل عام ٢٤٤ هـ (٨٥٨م)، بينما جاء فى «دائرة المعارف لوجدى» أن البتانى ولد سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م)، ويقول (بول) فى كتابه «مختصر تاريخ الرياضيات» إنه ولد سنه ٢٦٤ هـ (٨٧٧م)، ولعله خلط بين تاريخ ولادته وتاريخ بداية أرصاده الفلكية. أما كتاب «آثار باقية لصالح زكى»، فيقول : «إن تاريخ ولادة البتانى غير معروف، إلا أن هناك ما يجعلنا نعتقد أنه ولد بعد عام ٢٣٥هـ.....».

وإن كان ثمة شك فى تاريخ مولده، فإن تاريخ وفاته لاجدال فيه - وقد أجمع المؤرخون على أن ذلك كان عام ٣١٧هـ (٩٢٩م).. أما مكان وفاته، فيقول عنه (قدرى طوقان) فى «تراث العرب العلمى» نقلاً عن الفهرست لابن النديم: «وكانت وفاته سنة ٣١٧هـ ـ ٩٢٩م فى طريقه بقصر الجص، عند رجوعه من بغداد حيث كان مع بنى الزيات من أهل الرقة، وقصر الجص هو قصر عظيم بناه المعتصم قرب سامراء.

أما (ابن خلكان) فى كتابه «وفيات الأعيان» فيقول: «توفى البتانى عند رجوعه من بغداد فى موضع الحضر.. والحضر مدينة قائمة بالقرب من الموصل، ومن تكريت بين دجلة والفرات فى البرية».

وقال (ياقوت الحموى) فى كتابه «المشترك وضعًا والمختلف صقعًا»: قصر الحضر بقرب سامراء من أبنية (المعتصم). أما (سارتون) فى «مقدمته لتاريخ العلم»، فقد اكتفى بالإشارة إلى وفاته بالقرب من سُرَّ مَنْ رأى (سامراء).

عاش البتانى حياته العلمية بين الرقة على الفرات وأنطاكية فى سوريا حيث أُنشئ مرصد باسم (مرصد البتانى). وعكف فى البداية ـ كغيره من العلماء العرب ـ على دراسة مؤلفات من سبقه ،وعلى الأخص كتابا السند هند والمجسطى. وفى ذلك يقول عن بطلميوس إنه «قد تقصى علم الفلك من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى والعددى الذى لا تدفع صحته بشك فى حقيقته، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده وذكر أنه قد يجوز أن يستدرك عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على (أبرخس)(٩) وغيره من نظرائه لجلال الصناعة؛ ولأنها سماوية ولا تدرك إلا بالتقريب».

وما لبث أن دخل ميدان البحوث فى الفلك والمثلثات والجبر والهندسة والجغرافيا فامتاز على غيره بمواهبه، حتى إن علماء أوروبا وضعوه فى الصف الأول من الفلكيين. وقد أشار (كاجورى) إلى ذلك فى كتاب «تاريخ الرياضيات»، كما أن (لا لاند) بعد أن اطلع على مآثره عده من العشرين فلكيًا المشهورين فى العالم كله. وشاركهما فى ذلك (سارتون) فوصفه بأنه أعظم فلكيِّى جنسه وزمنه، ومن أعظم علماء الإسلام.

وله بضعة مؤلفات فى التنجيم، من بينها «شرح أربع مقالات لبطلميوس»، ولكن أهم أعماله الفلكية هى الأرصاد التى قام بها ابتداء من سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧م) وشملت مجالاً واسعًا لا تنقصه الدقة. فإذا نظرنا مثلاً إلى زاوية الميل الأعظم نجده قد رصدها بمدينة الرقة عدة مرات ولم يكتف برصدها مرة واحدة (المعتقد أن ذلك الرصد بين عامى ٢٦٧هـ - ٢٧٠هـ) وذلك بقياس ارتفاع الشمس فى الظهيرة عند المنقلبين الصيفى والشتوى فيكون الفرق بين الارتفاعين ضعف الزاوية المطلوبة... وقد وجد قيمة هذه الزاوية ٣٥َ و ٢٣ْ وأثبتت الحسابات الحديثة أن القيمة الصحيحة فى أيامه لا تختلف عن ذلك إلا بمقدار دقيقة واحدة - وذلك رغم الآلات البدائية التى كانت تستخدم فى القرون الوسطى.

ومن بين أرصاده الأخرى المهمة، قياس موضع أوج الشمس فى مسارها الظاهرى فوجد أنه قد تغير عما كان عليه إبان بطلميوس بمقدار ٤٧َ و ١٦ْ فى حين كانت قياسات بعض المعاصرين له مطابقة لما وجده بطلميوس. وكان هذا التضارب فى النتائج حافزًا لأبى الريحان البيرونى، الذى جاء بعده بأكثر من مائة عام، على إعادة الرصد بضع مرات فوجد أن الموضع قد انتقل فعلاً من مكانه وبذلك نادى بحركة أوج الشمس، وإن كان البتانى هو المكتشف الأصلى لها.

ومن بين أعماله الفلكية الأخرى، حساب طول السنة الشمسية وأخطأ فى حسابه بمقدار دقيقتين، ٢٢ ثانية، وكذلك وجد مقدار تقهقر الاعتدالين ٥٤,٥ ثانية فى العام. كما أثبتت احتمال حدوث الكسوف الحلقى للشمس، ومن أمثلة أرصاده الدقيقة، تلك التى تناولت الكسوف والخسوف والتى اعتمد عليها (دنثورن) عام ١٧٤٩م فى تحديد تسارع القمر فى حركته خلال قرن من الزمن. أما أهم أرصاده، فهو تصحيح حركات القمر والكواكب وعمل جداول جديدة لمواقعها، بالإضافة إلى تحقيق مواقع عدد كبير من النجوم، ضمَّنها زيجه الشهير الذى اعتمد عليه علماء الفلك لعدة قرون.

وفى مجال الرياضيات يقول (سارتون)، إنه استعمل (الجيب) بدلاً من (الوتر) الشائع عند الإغريق، وهو يعلم تمامًا مدى ميزته على هذا الأخير، فقد كان الإغريق - والعرب من بعدهم - يستعملون أطوال أوتار الدائرة التى تقابل زوايا معينة ابتداء من الصفر إلى تسعين درجة.

ومن الأعمال الأخرى فى الرياضيات، إكماله تعريف ظل التمام (تحت اسم الظل المعكوس والظل المستوى)، وحسب جداول لظل التمام بزيادة درجة قوسية واحدة فى كل خطوة. ويُنسب إليه اكتشاف قانون جيب التمام فى المثلث الكروى، كما بحث فى بعض المسائل التى تناولها اليونان بالطرق الهندسية، فحاول الوصول إلى حل جبرى لها.

ومن بين المؤلفات المهمة للبتانى نجد :

١ - «كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك»، وهو يتناول البحث عن النقطة الموجودة على خط الاستواء السماوى والتى تشرق فى اللحظة نفسها مع نقطة معينة على دائرة البروج، وقد حسبت جداول خاصة (اعتمادًا على بعض نظريات حساب المثلثات الكروية) تعطى المطلوب لأية نقطة على فلك البروج فى أجزائه الأربعة: الصاعد الشمالى ويحتوى على الحَمَل والثور والجوزاء، والهابط ويحتوى على السرطان والسنبلة، والهابط الجنوبى ويحتوى على الميزان والعقرب والقوس، وأخيرًا الربع الصاعد الجنوبى ويشمل الجدى والدالى والحوت.

٢ - «رسالة فى مقدار الاتصالات».

٣ - «رسالة فى تحقيق أقدار الاتصالات».

وقد تناول فى هاتين الرسالتين موضوع اتفاق كوكبين فى خط الطول أو فى خط العرض السماوى. سواء أكانا على فلك البروج، أم كان أحدهما أو كلاهما خارج هذه الدائرة.

٤ - «شرح أربع مقالات لبطلميوس»، وتلك أربع مقالات وضعها بطلميوس كذيل لكتابه «المجسطى» تناول فيها مسائل التنجيم وتأثير النجوم على الحوادث الدنيوية.

٥ - «كتاب تعديل الكواكب» يبحث فيه الفرق بين الكواكب فى مساراتها بفرض أنها منتظمة وثابتة المقدار، وبين حركتها الحقيقية التى تختلف من موضع إلى آخر فى المدار.

أما أهم مؤلفاته جميعًا فهو «الزيج الصابئ»، الذى كان أول زيج يحتوى على معلومات صحيحة دقيقة، وأرصاد كان لها أثر كبير فى علم الفلك خلال العصور الوسطى عند العرب وأوائل النهضة فى أوروبا.

الزيج الصابئ

يشتمل «الزيج الصابئ» على سبعة وخمسين بابًا تتناول أوتار الدائرة والقوانين الفلكية بطريقة يغلب عليها الإنجاز دون الدخول فى تفاصيل إثباتها، تاركًا للقارئ مهمة التأكد من صحة هذه القوانين من المراجع الأخرى، وقد ساق بعض الأمثلة على أرصاده ونتائجه بالإضافة إلى أرصاد الآخرين ـ وعلى الأخص بطلميوس وأبرخس ـ عند التعرض للقوانين المتعلقة بالأرصاد قدره دقيقتان و٢٢ ثانية.

ثم بحث الاختلاف فى حركة الشمس وعدم انتظام سرعتها بين يوم وآخر على مدار السنة فى البابين التاليين، ويعترف (بول) بأنه وفق فى بحثه عن حركة الشمس توفيقًا عجيبًا. وخصص الباب الثلاثين لحركات القمر والكسوف والخسوف وبعد الشمس والقمر عن الأرض، واختتمه بشرح أسباب أوجه القمر مع شكل مبسط يوضح تمامًا ما يرمى إليه.

وخصص البتانى الباب الحادى والثلاثين للكواكب ومساراتها، ويلى ذلك أربعة أبواب للتقاويم المختلفة عند العرب والروم والفرس والقبط، وفى الباب السادس والثلاثين نجد إشارة إلى منازل القمر، وهنا ينبغى أن نقف برهة لنناقش طريقته فى تقسيم هذه المنازل. فالمعروف أن القمر يميل حوالى خمس درجات على مسار الأرض حول الشمس، وهو يقطع هذا المدار فى حوالى $\frac{1}{4}$ ٢٧ يوم، ومعنى ذلك أنه يقطع كل يوم حوالى ١٣ درجة. وقد اختار العرب أيام الجاهلية ثمانى وعشرين مجموعة من النجوم قريبة من مسار القمر لتكون لهم دليلاً على موضعه خلال دورته، وأطلقوا عليها اسم منازل، بمعنى أن القمر ينزل فى كل منها يومًا بليلة تقريبًا. وفى أوائل القرن الثالث للهجرة وصلت بعض كتب الهند إلى المنجمين العرب، فساروا على منوالها باعتبار منازل القمر سبعة وعشرين فقط واستمروا فى إطلاق الأسماء العربية نفسها عليها، مع إلغاء منزلة الزياتى وإدماج نجومها فى منزلة الإكليل. وهناك فرق ثان بين المنازل العربية القديمة وبين منازل الهند، فالعرب قاموا بتقسيمها بناء على مشاهدة القمر ليلة بعد

أخرى ولذا جاءت منازلهم غير متساوية، أما الهند فبعد أن تطورت العلوم الهندسية والفلكية فى بلادهم وعرفوا الدوائر السماوية ومسار القمر فقد استخدموا منازل متساوية عددها سبعة وعشرون، فلما بدأ العرب فى تلقى علوم الهند تنازلوا عن إحدى منازلهم القديمة وأدمجوها مع منزلة الإكليل. أما البتانى فى زيجه، فقد جمع بين رأى عرب الجاهلية وطريقة الهند فكان عمله تطويرًا للمنازل العربية القديمة، وليس محاكاة للهند دون تَروٍّ أو تفكير، فقد تبين أنه قسم القمر الشهرى إلى ثمان وعشرين منزلة كما فعل عرب الجاهلية. ولكنه استخدم فيها الأصول الهندسية والفلكية.

وباستثناء الأبواب الثلاثة الأولى (المقدمة، طريقة العمليات الحسابية فى النظام الستينى، وأوتار الدائرة) نجد أن الأبواب الأربعة عشر الأولى مخصصة للكرة السماوية ودوائرها. وأهم هذه الأبواب هو الرابع، الذى يبحث فيه مقدار ميل فلك البروج عن فلك معدل النهار أى الميل الأعظم، وكانت القيمة التى وصل إليها من أرصاده (٣٥َ و ٢٣ْ) صحيحة فى حدود دقيقة واحدة. وقد جمع البيرونى فى المقالة الرابعة من (القانون المسعودى) نتائج من سبقوه، ومنها يتضح لنا أن البتانى هو أول من حصل على هذه القيمة لزاوية الميل الأعظم ثم اتفق معه فى ذلك ثلاثة من العلماء جاءوا بعده، وهم: عبد الرحمن الصوفى (ولد عام ٢٩٠ هـ وتوفى ٣٧٦هـ)، وأبو الوفاء البوزجانى (ولد عام ٣٢٨هـ وتوفى ٣٨٨هـ) وأبو حامد الصاغانى (توفى عام ٣٨٠هـ)، بينما خالفهم باقى العلماء فى نتائجهم ولهذا قام البيرونى برصدها عدة مرات، وكانت النتيجة مؤيدة لقيمة البتانى.

ويلى ذلك ثلاثة أبواب فى قياس الزمن برصد ارتفاع الشمس وبالعكس، ثم أبواب تبحث فى موضوع الكواكب الثابتة (النجوم) سواء لقياس الزمن باستخدامها، أو معرفة أوضاعها بالنسبة للدوائر السماوية. أما الباب السابع والعشرون فتجدر الإشارة إليه، إذ يتناول طول السنة الشمسية عن طريق الرصد، وفى ذلك يذكر البتانى أن العلماء اختلفوا فى مقدار طول السنة، فذكر بعضهم أن قدماء أهل مصر وبابل وجدوه ٣٦٥ يومًا، ٦ ساعات، ١٢ دقيقة، ثم جاء أبرخس فاعتبره ٣٦٥ يومًا. ثم جاء بطلميوس فاتخذ الفترة بينه وبين أبرخس (حوالى ثلاثمائة عام) أُسًا لإيجاد قيمة دقيقة لطول السنة الشمسية بتعيين اللحظة التى تحل فيها الشمس عند نقطة معينة من المسار (ولتكن

نقطة الاعتدال) ثم حساب الزمن بينهما وبين اللحظة التى حلت فيها عند النقطة نفسها أيام أبرخس، فيكون ذلك الزمن مساويًا لعدد كامل من السنين الشمسية ومنه ينتج طول السنة، وكلما ازدادت الفترة بين الرصدين قل الخطأ الناتج عن الرصد لقسمته على عدد كبير من السنين، وقد وجد بطلميوس طول السنة ٣٦٥ يومًا، ٥ ساعات، ٤٧ دقيقة، ٣٠ ثانية. واتبع البتانى الطريقة نفسها (بينه وبين بطلميوس حوالى سبعمائة وخمسين عامًا) فوجد القيمة ٣٦٥ يومًا، ٦ ساعات، ١٤ دقيقة، ٢٦ ثانية بخطأ بمراعاة التساوى بينهما كمبدأ الهند(١٠).

وتشتمل الأبواب السبعة التالية على دراسات لمسار القمر ونقطتى تقاطعه مع مسار الأرض وميله عليه ورؤية الهلال والخسوف. وكان البتانى - بشهادة البيرونى فى المقالة الثامنة من القانون المسعودى - مدققًا فى بحثه إمكان رؤية الهلال، فأخذ فى الاعتبار المسافة بين القمر والشمس لأن نور الهلال يتناقص بزيادة هذه المسافة..... وعلى مقدار نور الهلال تتوقف ظروف الرؤية. أما الباب الرابع والأربعون، فبحث فيه كسوف الشمس وأحواله واستخراج ذلك باستعمال الحسابات أو بالجداول. ويلى ذلك أربعة أبواب لكواكب المجموعة الشمسية المعروفة حينئذ، مواضعها وحركاتها ومساراتها.

ومن أهم الأبواب فى الزيج الصابئ، نجد الباب الحادى والخمسين الذى يحتوى على أرصاد النجوم التى قام بها البتانى. وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا فى تحديد السنة المنسوب إليها تلك الأرصاد ومواقع النجوم المثبتة فى جداوله، فإنهم أجمعوا على أنها أدق مواقع رصدت حتى أيام البتانى. ومن النتائج الكبرى التى أدت إليها أرصاده، أنه وجد مواقع النجوم فى الطول قد تغيرت عما كانت عليه أيام بطلميوس بمقدار ٥٠َ و ١١ْ ، ولما كانت الفترة بينهما حوالى ٧٨٠ سنة فإن التغير يجرى بمعدل قدره درجة واحدة كل ٦٦ سنة أى $\frac{1}{2}$ ٥٤ ثانية كل سنة فى حين أثبتت الأرصاد الحديثة أن هناك تغيرًا بمقدار ٥٠,٢ ثانية كل سنة!!

أما البابان الأخيران من الزيج، فقد خصصهما لوصف الآلات الفلكية وطريقة صنعها، وقد ناقش فى الباب الأخير منها أنواع الأخطاء التى تقع بين علماء الفلك فى أرصادهم وقسمها إلى نوعين: شخصية وآلية. فالخطأ الشخصى، ما يقع من العالم

سواء دون قصد أو عن قلة دراية، والخطأ الآلى مرجعه إلى خلل فى آلة الرصد نفسها أو طريقة تقسيمات مقياسها. وخرج من المناقشة بتحديد طرق التغلب على هذه الأخطاء وتقليل أثرها فى النتائج الفلكية الرئيسية، فأولاً: لا يجب الاعتماد على نتائج عالم واحد، فإذا ما كان المطلوب يعتمد على رصدَىْ عالمين بينهما فترة من الزمن فيحسن أن تكون تلك الفترة أطول ما يمكن حتى إذا ما أخطأ أحدهما كانت قسمة الخطأ على عدد السنين أقل ما يمكن وبالنسبة للآلات نفسها، نادى بتطويرها وزيادة دقتها وعدم الركون إلى آلة واحدة فى جمع الأرصاد. وهو يقول فى هذا الشأن :

«أما ما كان الوقوف عليه بالقياسات والأرصاد والمحن والاعتبارات، فقد يمكن أن يستدرك فيه الزيادة والنقصان فما كان منه قبل الوقوف على حقيقة الشيء بعينها والتقصير عن ذلك، فإنه إذا قسم على الزمان الطويل قلّ ذلك الذى يعرض فيه وإن كان محسوسًا، وما قسم على زمان قصير كثر وإن كان قليلاً. وأما ما وقع الخطأ فيه الآلة فى قسمها ونصها وتقويمها، فإنه إن امتحن بتلك الآلة بعينها وهى على الحالة الأولى كان الخطأ واحدًا فى الوقتين، وإن كان الخطأ من قبل القسمة فقط قد يمكن أن يصحح نصها وتوفيتها أن يغير ويبقى الخطأ بحالة من قبل القسمة. فإذا رصد بغيرها ظهر الاختلاف.....».

ويحتوى الكتاب ـ فيما عدا ذلك ـ على جداول لتاريخ الملوك والخلفاء، وجداول لأطوال وعروض البلدان تحتوى على ٩٤ بلدًا مأخوذة عن كتاب «صورة الأرض» للخوارزمى، ومن الجداول الأخرى وتلك المحتوية على أسماء النجوم ومواضعها فى السماء ومقدار لمعانها. ثم جمع النجوم اللامعة الشهيرة فى جداول منفصلة.

وللزيج الصابئ أثر كبير فى تقدم علمَى الفلك والرياضيات، سواء خلال فترة النهضة العربية أو عند بداية النهضة الأوربية. فقد اعتمد عليه كثير من علماء العرب فى حساباتهم، كما قام بعضهم باقتباس بعض محتوياته أو تفسيرها. فنجد مثلاً بين مؤلفات البيرونى «كتاب جلاء الأذهان فى زيج البتانى»، بينما يشير فى كتابه «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» إلى أن أبا محمود حامد بن الحضر الجندى المتوفى عام ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) كان يعتمد على زيج البتانى فى حساباته. وفى موضع آخر من الكتاب نفسه يذكر البيرونى أن حسابات أهل خراسان كانت من زيج البتانى

الموضوع على الرقة، أما أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى عالم الأندلس المتوفى عام ٣٩٧هـ (١٠٠٧م)، فقد أخذ جزءًا من زيج البتانى وهو الخاص بحركات الكواكب وتعديلها، ثم وضع كتابًا اختصر فيه هذه التعديلات. بينما نجد أن أبا الحسن على بن عمر المراكشى من علماء المغرب فى منتصف القرن الثالث عشر للميلاد، قد ألف مرجعًا من أهم المراجع فى علم الفلك «كتاب جامع المبادئ والغايات فى علم الميقات» اعتمد فى بعض نواحيه على مؤلَّف البتانى.

وقد تُرجم الزيج الصابئ إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر للميلاد، وقام بترجمته عالمان، هما: (روبرت تشتر) (فقدت هذه الترجمة)، و(ويلانو تيفوك)، وقد طُبعت ترجمة هذا الأخير فى نورمبرج عام ١٥٣٧م. وبعد حوالى قرن، أمر (ألفونسو) العاشر صاحب قشتالة بترجمة هذا الزيج من العربية إلى الإسبانية، ولهذه الترجمة مخطوط غير كامل فى باريس.

وقد وجد (ريجيو مونتانوس) نسخة من ترجمة هذا الكتاب فى مكتبة الفاتيكان وقابلها على نسخة عربية فأصلح ما فيها من أغلاط، ثم طبعت الترجمة فى بولندا عام ١٦٤٥ / ٤٦م مع تعليقات على بعض النواحى العلمية. ويقال إن (هاليه) رأى أن الطبعة الثانية لا تحتاج إلى تنقيح أو تصحيح، إلا أنه لم يتمكن من العثور على النسخة العربية الأصلية، وقد تكون فى مكتبة الفاتيكان نسخة عربية من هذا الزيج.

وقد نشر (كارلو نلينو) طبعة الأصل العربى منقولاً على النسخة المحفوظة بمكتبة بلدة الإسكوريال من بلاد الأندلس فى ثلاثة مجلدات بروما (١٨٩٩ - ١٩٠٧)م، مصحوبة بترجمة لاتينية وتعليق على بعض الموضوعات.

نماذج من الكتاب

ولا شك أن خير ما نختم به فقرتان نقتبسهما من الزيج الصابئ، تعطيان فكرة عامة عما فى هذا العمل الجليل، إلى جانب رأى البتانى نفسه فى الشروط الواجب توافرها فى علماء الفلك، وضرورة تجديد البحث والمثابرة على الأرصاد وتدقيقها. فنجده يقول فى أحد المواضع:

«وإن الذى يكون فيها من تقصير الإنسان فى طبيعته عن بلوغ حقائق الأشياء فى الأفعال كما يبلغها فى القوة، يكون غير محسوس عند الاجتهاد والتحرز ولاسيما فى

المدد الطوال. وقد يعين الطبع، وتسعد الهمة، وصدق النظر، وإعمال الفكر، والصبر على الأشياء وإن عسر إدراكها. وقد يعوق عن كثير من ذلك، قلة الصبر، ومحبة الفخر، والحظوة عند ملوك الناس بإدراك ما لا يمكن إدراكه على الحقيقة فى سرعة، أو إدراك ما ليس فى طبيعته أن يدركه أحد».

وفى صدر الكتاب يقول:

«إن أشرف العلوم منزلة، وأسناها مرتبة، وأحسنها حلية، وأعلقها بالقلوب، وألمعها بالنفوس، وأشدها تحديدًا للفكر والنظر وتذكية للفهم، ورياضة للعقل بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسننه، علم صناعة النجوم لما فى ذلك من جسيم الحظ وعظم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت، وفصول الأزمان، وزيادة النهار والليل ونقصانهما، ومواضع النيرين وكسوفهما، ومسير الكواكب فى استقامتها ورجُوعها وتبدل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها، إلى ما يدرك بذلك من أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد، ومعرفة كنة عظة الخالق وسعة حكمته، وجليل قدرته ولطيف صنعه..... وإنى لما أطلت النظر فى هذا العلم، ووقفت مع اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم، وما تهيأ على بعض واضعيها من الخلل فى ما أوصلوه فيها من الأعمال، وما ابتنوه عليها، وما اجتمع - أيضًا - فى حركات النجوم على طول الزمان لما قيست أرصادها إلى الأرصاد القديمة، وما جد فى ميل ذلك البروج على فلك معدل النهار من التقارب، وما تغير بتغيره من أصناف الحساب، وأقدار الزمان والسنين وأوقات الفصول، واتصالات النيرين التى يستدل عليها بأزمان الكسوفات وأوقاتها، أجريت فى تصحيح ذلك وأحكامه على مذهب (بطلميوس) فى الكتاب المعروف «المجسطى»، بعد إنعام النظر وطول الفكر والروية، مقتفيًا أثره متبعًا ما رسمه، إذ كان قد تقصى ذلك من وجوهه ودل على العلل والأسباب العارضة فيه كالبرهان الهندسى العددى، الذى لا تدفع صحته ولا يشك فى حقيقته..... وذكر أنه يجوز أن يستدرك عليه أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على (أبرخس) وغيره من نظرائه..... ووضعت فى ذلك كتابًا وأوضحت فيه ما استعجم، وفتحت ما استغلق، وبينت ما أشكل من أصول هذا العلم، وشذ من فروعه، وسهلت به سبيل الهداية لمن يتأثر به ويعمل عليه فى صناعة النجوم، وصححت فيه حركات الكواكب

ومواضعها من منطقة فلك البروج على نحو ما وجدتها بالرصد وحساب الكسوفين وسائر ما تحتاج إليه من الأعمال، وأضفت إلى ذلك غيره مما يحتاج إليه، وجعلت استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول لوقت انتصاف النهار من اليوم الذى يحسب فيه بمدينة الرقة، وبها كان الرصد والامتحان على تحذيق ذلك كله إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق».

المناظــر

أعظم الأعمال العلمية قيمةً وأهمها شأنًا

ابن الهيثم

(١٠٢٠ م)

يؤلمنى أن أقول إنه لو كان (ابن الهيثم) من أبناء أمة أوروبية، لرأينا كيف يكون التقدير، وكيف يذاع اسمه، وتنتشر سيرته على الناس، وتدخل فى برامج التعليم لتأخذ منها الأجيال إلهامًا وحافزًا، يدفعهم إلى الاقتداء به والسير على طريقه.

أليس فى عدم معرفة ناشئتنا وشبابنا شيئًا عن (ابن الهيثم)، إجحاف وعيب فاضح؟ أليس إهمالاً منا أن نعرف عن (بطلميوس) و (كبلر)، و (باكون)، أكثر مما نعرف عن (ابن الهيثم)؟!

ألا يدل هذا على نقص معيب فى برامجنا الثقافية؟

ولا يظن القارئ أن (ابن الهيثم) وحيد فى هذا الإجحاف والإهمال، فليس حظ أكثر علماء العرب ونوابغهم وعباقرتهم بأحسن من حظه، فها هى حياتهم ومآثرهم، لاتزال محاطة بغيوم الغموض وعدم الاعتناء. وهى فى أشد الحاجة إلى أناس يتعهدون إزالة الغيوم وإظهار المآثر على حقيقتها للناس، لا شك أن فى إظهارها إنصافًا لهم وخدمة للحقيقة، كما أن فى عرضها على الناشئة، من العوامل التى توجد فيهم الاعتزاز، والاعتقاد بالقابلية، وشعورًا يدفعهم إلى السير على نهج الأجداد فى رفع مستوى المدنية، ولا يخفى ما فى هذا كله من قوى تدفع الأمة إلى حيث المجد والسؤدد، قوى تمهد السبل لتنهض الأمة بالواجب عليها نحو نفسها، ونحو الإنسانية فتساهم فى بناء الحضارة الإنسانية.

ولنرجع الآن إلى (ابن الهيثم) فنقول: إنه ظهر فى القرن الخامس للهجرة فى البصرة، ثم نزل (مصر) واستوطنها إلى أن مات سنة ١٠٣٨م.

جاء فى كتب التاريخ: أنه نُقل إلى حاكم مصر أن (ابن الهيثم) قال:

«لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً، يحصل النفع فى كل حال من حالاته من زيادة ونقصان»[1] فازداد (الحاكم) شوقًا، وسيّر إليه سرًا جملة من مال، ورغّبه فى الحضور، فسافر نحو (مصر)، ولما أتاها ودرس أحوال النّيل، تحقق لديه أن ما يقصده غير ممكن، ففترت عزيمته وانكسرت همته «ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبل مدينة (أسوان)، وهو موضع منحدر يندفع منه ماء النيل، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه، فوجد أمرًا لا يمشى على موافقة مراده، وتحقق الخطأ عما وعد به، وعاد خجلاً مخذولاً، واعتذر بما قبل (للحاكم) ظاهره ووافقه عليه...».

ثم بعد ذلك أُحيطت حياته بصعوبات كثيرة وخشى (الحاكم بأمر الله الفاطمى) «الذى كان مريقًا للدماء بغير سبب، أو بأضعف سبب من خيال يتخيله..» فتظاهر بالجنون والخبل، ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق من وفاة (الحاكم)، فأظهر العقل وعاد سيرته الأولى، وخرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر، مشتغلاً بالتصنيف والنسخ والإفادة، منصرفًا بكليته إلى العلم وإلى البحث عن الحقيقة التى كان مخلصًا لها كل الإخلاص.

لقد عرف الأقدمون فضل (ابن الهيثم) وقدروا نبوغه وعلمه، فقال ابن أبى أصيبعة: «كان (ابن الهيثم) فاضل النفس، قوى الذكاء، متفننًا فى العلوم، لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه، وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف، وافر التزهد...»[2].

وقال (ابن القفطى):

«... إنه صاحب تصانيف وتآليف فى الهندسة، وكان عالمًا بهذا الشأن متقنًا له، متفننًا فيه، قيّمًا بغوامضه ومعانيه، مشاركًا فى علوم الأوائل، أخذ عنه الناس واستفادوا..».

وكذلك عرف الغرب قيمة (ابن الهيثم) فأنصفوه بعض الإنصاف، واعترفوا بتفوقه وخصب قريحته، فنجد دائرة المعارف البريطانية تقول:

«إن ابن الهيثم كان أول مكتشف بعد بطلميوس فى علم البصريات».

وجاء فى «كتاب تراث الإسلام»:

إن علم البصريات وصل إلى أعلى درجة من التقدم بفضل (ابن الهيثم). واعترف العالم الفرنسى (لوتير فياردو)، بأن (كبلر) أخذ معلوماته فى الضوء - ولا سيما فيما يتعلق بالانكسار الضوئى فى الجو - من كتب (ابن الهيثم).

ويقول (سارتون) :

«إن ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة، بل أعظم علماء الطبيعة فى القرون الوسطى، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله».

ولعل الأستاذ مصطفى نظيف - أول عربى فى هذا العصر، أنصف (ابن الهيثم) بعض الإنصاف، ووقف على التراث الضخم الذى خلفه فى الطبيعة، ولا سيما فيما يتعلق ببحوث الضوء.

قال الأستاذ مصطفى نظيف فى مقدمة كتابه النفيس الفريد «البصريات» ما يلى:

«والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع الطبيعة الأخرى، أن علمًا ازدهر فى عصر التمدن الإسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأنًا ورفعة وأثرًا (الحسن بن الهيثم)، الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر للميلاد ...» فلقد بقيت كتبه منهلاً عامًا ينهل منه أكثر علماء القرون الوسطى، (كروجر باكون) و (كبلر) و (ليوناردو دافنشى) و (ويتلو) وغيرهم، وكتبه هذه وما تحتويه من بحوث مبتكرة فى الضوء هى التى جعلت (ماكس يرهوف) يقول بصراحة: «... إن عظمة الابتكار الإسلامى تتجلى فى البصريات...»..

وظهر فى عام ١٩٣٩م كتيب يبحث فى «ابن الهيثم وأثره المطبوع فى الضوء»، ويشتمل على أولى المحاضرات التى ألقاها الأستاذ مصطفى نظيف فى كلية الهندسة. وفى هذه المحاضرة النفيسة تحليل رائع للطريق التى كان يسير عليها (ابن الهيثم)، وعرض موفق لسيرته الحافلة بالمآثر الخالدة. وقد طبعها الأستاذ بطابع الإخلاص للحق والحقيقة، وأبان بعضًا من بحوث الضوء التى أثارها (ابن الهيثم)، والتى «تكفى لتجعل له مقامًا ممتازًا فى مقدمة علماء الطبيعة فى جميع عصور التاريخ».

وأشار الأستاذ مصطفى نظيف أيضًا، إلى أن هناك آراء (لابن الهيثم) سبق فيها الأجيال، وأنه أعاد بحوث من تقدموه من جديد، ونظر فيها نظرًا جديدًا لم يسبقه إليه

أحد، وأنه وضع لبعض مسائل تتعلق بالضوء حلولاً واضحة مطابقة للواقع المعلوم من زمانه « ... وقد جاءت حلوله متناسقة منسجمة ينظمها نظامًا طبيعيًا سليمًا، فتتألف من ذلك وحدة وضعت الأمور فى أوضاعها الصحيحة، وصارت النواة التى تتكثف ونما حولها علم الضوء».

لقد ثبت من «كتاب المناظر» أن (ابن الهيثم) عرف الطريقة العلمية، وأنه سار عليها ومهد إلى أصولها وعناصرها ولا يخفى أن هذا من أهم العوامل التى جعلت (ابن الهيثم) علمًا من الأعلام وخالدًا فى الخالدين.

يقول الأستاذ (قدرى حافظ طوقان) فى كتابه «تراث العرب العلمى»:

ما كنت أظن أن للعرب أثرًا فى كشف الطريقة العلمية، أو التمهيد إلى كشفها، حتى بحثت فى مآثر (ابن الهيثم) فى الطبيعة، واطلعت على كتاب «الحسن بن الهيثم - بحوثه وكشوفه لمصطفى نظيف» الذى ظهر سنة ١٩٤٢م.

إننا لا نقول إن علماء العرب توسعوا فى هذه الطريقة، واستغلوها على النحو الذى استغلها به العلماء فى أوروبا، ولا نقول إنهم كانوا يدركون ما لهذا الأسلوب من شأن، كما يدركه علماء الغرب.

ولكننا نقول إنه وجد فى العرب وبين علمائهم من سبق (باكون) فى إنشائها، بل ومن زادعلى طريقة (باكون) التى لا تتوافر فيها جميع العناصر الأساسية فى البحوث العلمية.

أما العناصر الأساسية فى طريقة البحث العلمى، فهى: الاستقراء والقياس، والاعتماد على المشاهدة أو التجربة أو التمثيل.

ويظن كثيرون، أن هذه الطريقة فى البحث من مبتكرات هذا العصر، ولكن بعد درس «كتاب المناظر»، وتعليقات الأستاذ مصطفى نظيف وشروحه المستفيضة ثبت أن (ابن الهيثم) قد أدرك الطريقة المثلى، فقد قال بالأخذ بالاستقراء وبالقياس، وبالتمثيل، وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود، على المنوال المتبع فى البحوث العلمية الحديثة. ولسنا الآن فى مجال ضرب الأمثلة.

ويتجلى لنا من التجارب التى وردت فى (كتاب المناظر)، ونظرياته، الخطة التى كان يسير عليها فى بحوثه، وأن غرضه فى جميع ما يستقريه ويتصفحه، استعمال العدل لا اتباع الهوى، وأنه يتحرى فى سائر ما يميزه، طلب الحق لا الميل مع الآراء.

وبعد ذلك نراه قد رسم الروح العلمية الصحيحة وبين أن الأسلوب العلمى، هو فى الواقع مدرسة للخلق، فقواعده التجرد عن الهوى، والإنصاف بين الآراء، فيكون قد سبق علماء هذا العصر، فى كونه لمس المعانى وراء البحث العلمى.

وكان يرى فى الطريق المؤدى إلى الحق والحقيقة ما يثلج الصدر - على حد تعبيره - وهذا ما يراه باحثو هذا العصر من رواد الحقيقة، العاملون على إظهار الحق، فإن وصلوا إلى ذلك فهذا غاية ما يبغون ويأملون.

يتبين مما مر أن فى العرب من مهد إلى الأسلوب العلمى، ومن سبق (باكون) و(جاليليو) فى إنشائه والعمل به، ولا شك أن هذا من الأمور الجديرة بالاعتبار والنظر، لا سيما إذا علمنا أن أعظم خدمة أسداها العلم وأمجد أثر له، هو الأسلوب العلمى والنتائج الرائعة التى أسفر عنها تطبيقه.

ومن الثابت كذلك: أن «كتاب المناظر لابن الهيثم» أكثر الكتب القديمة استيفاء لبحوث الضوء وأرفعها قدرًا، لا يقل مادة وتبويبًا عن الكتب الحديثة العالمية، إن لم يفقها فى موضوعات انكسار الضوء وتشريح العين، وكيفية تكوين الصور على شبكية العين لدرسها، وهو يُعد من أروع ما كتب فى القرون الوسطى، وأبدع ما أخرجته القريحة الخصبة، فلقد أحدث انقلابًا فى علم البصريات، وجعل منه علمًا مستقلاً، له أصوله وأسسه وقوانينه، كان يسير فيه على نظام يقوم على المشاهدة والتجربة والاستنباط.

ونستطيع أن نقول جازمين إن علماء أوروبا كانوا عالة على هذا الكتاب عدة قرون، وقد استقوا منه جميع معلوماتهم فى الضوء. وعلى بحوث هذا الكتاب المبتكرة وما يحويه من نظريات استطاع علماء القرن التاسع عشر والعشرين أن يخطوا بالضوء خطوات فسيحة، أدت إلى تقدمه تقدمًا ساعد على فهم كثير من الحقائق، التى تتعلق بالفلك والكهرباء.

ويظن بعض العلماء أن (ابن الهيثم) لم يشتغل بالرياضيات، مع أن الواقع خلاف هذا، فله فيها بحوث تدل على سعة اطلاعه، وخصب قريحته، ونضجه العلمى.

وهو رياضى بارع، وتتجلى مقدرته فى تطبيق الهندسة، والمعادلات والأرقام، فى المسائل المتعلقة بالفلك والطبيعة، وفى البرهنة على قضايا توافق الواقع الموجود من الأمور الطبيعية.

ومن براهينه ما هو غاية فى البساطة، ومنها ما هو غاية فى التعقيد، وهى تتناول الهندسة بنوعيها: المستوية والمجسمة.

ويمكن القول إنه رياضى بأدق ما يدل عليه هذا الوصف وعلى ما أجراه (ابن الهيثم) من تجارب هى الأولى من نوعها، وعلى ما وضعه من آراء وتجارب فى البصريات.

والآن نزيد على ذلك القول: إن (ابن الهيثم) بحث فى قُوَى تكبير العدسات، ويرى كثيرون أن ما كتبه فى هذا الصدد، قد مهد السبيل لاستعمال العدسات فى إصلاح عيوب العين، وهو أول من كتب فى أقسام العين، وأول من رسمها بوضوح تام، ووضع أسماء لبعض أقسامها، وأخذها عنه علماء الغرب وترجموها إلى لغاتهم، فمن الأسماء التى وضعها: (الشبكية) و (القرنية) و (السائل المائى) و (السائل الزجاجى).

وتقول دائرة المعارف البريطانية: إن (ابن الهيثم) كتب فى تشريح العين وفى وظيفة كل قسم منها، وبين كيف ننظر إلى الأشياء بالعينين فى آن واحد، وأن الأشعة من النور تسير من الجسم المرئى إلى العينين، ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية فى محلين متماثلين، ولعل هذا الرأى هو أساس آله التلسكوب.

ويمكن القول إن (ابن الهيثم) قد طبع علم الضوء بطابع جديد أوجده، وإنه ـ كما يقول الأستاذ مصطفى نظيف ـ بدأ البحث من جديد ... «وأعاد بحوث الذين تقدموه ليس لاستقصاء البحث وحَسْب، بل لقلب الأوضاع أيضًا. فظاهرة الامتداد على السموت المستقيمة[٣]، وظاهرة الانعكاس، وظاهرة الانعطاف، تلك الظواهر التى استقصى (ابن الهيثم) حقائقها، لم تكن تتعلق ألبتة بالشعاع الذى زعم المتقدمون بأنه يخرج من البصر، إنما كانت تتعلق بالضوء، الضوء الذى له وجود فى ذاته، مستقل عن وجود البصر، والذى رأى (ابن الهيثم) ـ وكان أول من رأى ـ أن الإبصار يكون به،... (فابن الهيثم) قلب الأوضاع القديمة وأنشأ علمًا جديدًا، لقد أبطل علم المناظر الذى وضعه اليونان، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى والحدود التى نريدها الآن. وأثر (ابن الهيثم) فى هذا لا يقل فى نظرنا عن أثر (نيوتن) فى الميكانيكا..» إلى أن يقول: «.. إن عُدَّ (نيوتن) بحق رائد علم الميكانيكا فى القرن السابع عشر، (فابن الهيثم) خليق بأن يُعد بحق رائد علم الضوء فى مستهل القرن الحادى عشر للميلاد..».

و (لابن الهيثم) مؤلفات أخرى عديدة وقيّمة، فى الرياضيات والطبيعة منها:

• (كتاب شرح أصول «إقليدس» فى الهندسة والعدد وتلخيصه).

• (كتاب الجامع فى أصول الحساب)، وهو كتاب استخرج أصوله لجميع أنواع الحساب من أوضاع (إقليدس) وجعل السلوك فى استخراج المسائل الحسابية بجهتى التحليل الهندسى والتقدير العددى. ويقول عنه مؤلفه (ابن الهيثم): «وعدلت فيه عن أوضاع الجبريين وألفاظهم».

• (كتاب فى تحليل المسائل الهندسية).

• (كتاب فى تحليل المسائل العددية بجهة الجبر والمقابلة مبرهنًا).

• (كتاب فى المساحة على جهة الأصول).

• (كتاب فى حساب المعاملات).

• كتاب يقول عنه: «مقالة فى إجارات الحفور والأبنية، طابقت فيها جميع الحفور والأبنية بجميع الأشكال الهندسية، حتى بلغت فى ذلك إلى أشكال قطوع المخروط الثلاثة: المكافئ، والزائد، والناقص».

• (كتاب تلخيص مقالات «أبولونيوس» فى مقطوع المخروطات).

• (كتاب فى الأشكال الهلالية).

• (كتاب فى مسألة التلاقى).

• (كتاب فى قسمة المدارين المختلفين المذكورين فى الشكل الأول فى المقالة العاشرة من كتاب إقليدس).

• (مقالة فى التحليل والتركيب).

• (مقالة فى بركار الدوائر العظام).

• (رسالة فى شرح مصادرات إقليدس).

• (فى قسمة الخط الذى استعمله «أرشميدس» فى الكرة والأسطوانة).

• (مقالة فى المعلومات).

• (فى إصلاح شكل «لبنى موسى» من عمل «ابن الهيثم»).

• (فى أصول المساحة، وذكرها بالبراهين).

- (فى استخراج أعمدة الجبال).
- (فى خواص المثلث من جهة العمود).
- (مقالة فى أن الكرة أوسع الأشكال المجسمة التى إحاطاتها متساوية، وأن الدائرة أوسع الأشكال المسطحة التى إحاطاتها متساوية).
- (مقالة فى الضوء).
- (مقالة فى المرايا المحرقة بالقطوع).
- (مقالة فى المرايا المحرقة بالدوائر).
- (مقالة فى الكرة المحرقة).
- (مقالة فى كيفية الظلال).
- (مقالة فى عمل البتكام).
- (مقالة فى عمل الرخامة الأفقية).
- (مقالة فى الحساب الهندى).
- (مقالة فى مسألة عددية مجسمة).
- (مقالة فى استخراج مسألة عددية).
- (رسالة فى القول المعروف بالغريب من حساب المعاملات).
- (كتاب فى التحليل والتركيب الهندسى على جهة التمثيل للمتعلمين) وهو مجموع مسائل هندسية.
- (مقالة فى أصول المسائل العددية الصم وتحليلها).
- (رسالة فى برهان الشكل الذى قدمه «أرشميدس» فى قسمة الزاوايا إلى ثلاثة أقسام ولم يبرهن عليه).
- (كتاب فى تربيع الدائرة).
- (كتاب فى حساب الخطأين).
- (كتاب حل شك إقليدس).
- (مقالة فى انتزاع البرهان على أن القطع الزائد، والخطين اللذين لا يلقيانه، لا يقربان أبدًا ولا يلتقيان).

- (كتاب أوسع الأشكال المجسمة).
- (كتاب فيه: استخراج أضلع المكعب، وظِل الحساب الهندى، وإعداد الوفق، وأصول المساحة، ومقدمة ضلع المسبع، ومساحة الجسم المتكافئ).
- (كتاب استخراج ما بين البلدين من البعد بجهة الأمور الهندسية).
- (مسألة فى المساحة).
- (استخراج أربعة خطوط).
- (الجزء الذى لا يتجزأ).
- (مساحة الكرة).
- (كتاب فى مراكز الأثقال).
- (كتاب فى الهالة وقوس قُزَح).

وله غـيـر هذه: مـؤلفـات فى الإلهـيـات والطب والفلسـفـة يزيد عـددها على الخمسين[٤]. وكذلك اشتغل (ابن الهيثم) بالفلك، ويعترف بذلك (سيديو) الذى يقول:

«... وخلف (ابن يونس) فى الاهتمام بعلم الفلك جمع، منهم: (الحسن بن الهيثم) الذى ألف أكثر من ثمانين كتابًا ومجموعًا فى الأمصار، وتفسير المجسطى».

ويستدل من مؤلفات (ابن الهيثم) ورسائله التى وصلت إلى أيدى العلماء أنه استنبط طريقة جديدة لتعيين ارتفاع القطب، أو عرض المكان على وجه التدقيق، وهى تدل على مـقـدرته الفلكيـة العلمـيـة، وعلى مـقـدرة رياضـيـة فـائقـة، إذ اسـتطاع أن يلجـأ إلى الرياضيات، فكانت بحوثه ونتائجه خالية من الغلط والأخطاء.

وبسط (ابن الهيثم) سير الكواكب، وتمكن من تنظيمها على منوال واحد، فكانت هذه بمثابة آراء جديدة أدخلها إلى العلوم الفلكية، وهى لا تقل عن الآراء الجديدة التى نوه عنها فى الضوء، حيث أدخل الإشعاع الضوئى بدلاً من الخطوط البصرية، وكانت هذه الآراء الجديدة التى أتى بها (ابن الهيثم) عاملاً من عوامل الفلك، وخطوة لابد منها فى تطور هذا العلم.

وقد درس الأستاذ الفلكى (محمد رضا مدور) بعض وسائل (ابن الهيثم) فى الفلك، فخرج بالقول:

«.. وإذا أردنا أن نقارن (ابن الهيثم) بعلماء عصرنا الحاضر، فلن أكون مغاليًا إذا اعتبرت (الحسن بن الهيثم) فى مرتبة تضاهى العلاَّمة (أينشتاين) فى عصرنا هذا.
و(لابن الهيثم) جولات فى ميدان الفلسفة، وقد وضع فيها مؤلفات عديدة، ولم تتناولها أيدى الباحثين ولكن (ابن أبى أصيبعة) فى كتابه «طبقات الأطباء» يورد بعض آراء (ابن الهيثم) الفلسفية، يمكن الاستدلال منها على مذاهبه الفلسفية بصورة عامة، فهو يدخل شئون الدين والدنيا فى الفلسفة ويجعل علم الحق وعمل العدل نتيجة لها، وهنا نراه يخالف رأى الفلاسفة الإسلاميين الذين سبقوه أو الذين أتوا بعده «.. فإنهم يجعلون علم الحق وعمل العدل، شركة بين الفلسفة والدين، على نحو يختلف تفصيله باختلاف الفلاسفة...»».

ويقول (ابن الهيثم) فى هذا الشأن ما يلى:

«.. إنى لم أزل منذ عهد مروّيًا فى اعتقادات هذا الناس المختلفة، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى، فكنت متشككًا فى جميعه، مؤمنًا بأن الحق واحد، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية، انقطعت إلى طلب معدن الحق، فخضت لذلك ضروب الآراء والاعتقادات، وأنواع علم الديانات، فلم أحظ من شىء منها بطائل، ولا عرفت منه للحق منهجًا، ولا إلى الرأى اليقينى مسلكًا جديدًا فرأيت أنى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحية، وصورتها الأمور العقلية فلم أجد ذلك إلا فيما قرره (أرسطوطاليس)، فلما تبينت ذلك أفرغت وسعى فى طلب علوم الفلسفة، وهى ثلاثة: علوم رياضية، وطبيعية، وإلهية..»..

وبعد أن يعدد مصنفاته ورسائله يقول:

«.. ثم شفعت جميع ما صنعته من علوم الأوائل برسالة بيَّنت فيها: أن جميع الأمور الدنيوية والدينية هى من نتائج العلوم الفلسفية.. فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق، والعمل بالعدل فى جميع الأمور الدنيوية، والعدل هو محض الخير الذى بفعله يفوز ابن العالم الأرضى، بنعيم الآخرة السماوى».

فالحسن بن الهيثم أحد علماء ثلاثة يزدهى بهم تاريخ العلم، وهم: ابن سيناء وابن الهيثم والبيرونى بلغت الحضارة العلمية الإسلامية فى عهدهم الذروة، ذلك من منتصف القرن العاشر إلى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى، أو منتصف القرن الرابع إلى

منتصف القرن الخامس الهجرى، وهو كأحد علماء الطبيعة (الفيزياء) الإسلاميين يُعتبر الأرفع شأنًا، والأعلى كعبًا والأرسخ قدمًا. ولعله فى مقدمة علماء الطبيعة فى جميع العصور والأحقاب.

مَنْ هو ابن الهيثم

وابن الهيثم واسمه الكامل (الحسن أبو على بن الحسن بن الهيثم) ولد فى البصرة عام ٣٥٤هـ (١٦٥ ميلادية)، فى الوقت الذى كان فيه العرب قد أتموا نقل الكثير من كتب الإغريق فى الفلسفة والطبيعة والهندسة، وكذلك نقل بعض كتب الهند وفارس فى علم العدد وعلم الفلك، وكان العلماء المسلمون قد قاموا بشرح هذه العلوم والتعليق عليها وإضافة الكثير إليها، وقد شهد ابن الهيثم عصرًا مزدهرًا فى العلوم الفلسفية والعقلية والعلوم التعليمية أيضًا.

وقد انكب ابن الهيثم على الدراسة، فدرس كل ما وقعت عليه يداه من كتب المتقدمين مثل أصول إقليدس، ومقالات أرشميدس، وبطلميوس فى العلوم، كما درس - أيضًا - فلسفة أرسطو، وطب جالينوس.

وأثناء انكبابه على الدرس، كان العالم العربى الشاب يلخص ما يقرأ ويضيف إلى ما يلخصه ملاحظاته وآراءه. وقد بلغ ما صنَّفه ابن الهيثم من تلك حوالى ٤٤ مخطوطًا فى الفلسفة والطبيعة، ٢٥ مخطوطًا تتعلق بالرياضيات، ومخطوطًا واحدًا فى الطب اعتمد فى تصنيفه على كتب جالينوس.

فكرة كتاب المناظر

وكتاب المناظر لابن الهيثم يضم سبع مقالات، هى :

١ - فى كيفية الإبصار بالجملة.

٢ - المعانى التى يدركها البصر وعِلَلها وكيفية إدراكها.

٣ - أغلاط البصر فى ما يدركه على استقامة وعِلَلها.

٤ - كيفية إدراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصقيلة.

٥ - مواضع الخيالات.

٦ - أغلاط البصر فى ما يدركه بالانعكاس وعِلَلها.

٧ - كيفية إدراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشفة المخالفة لشفيف الهواء.

ثلاثة عوامل خلاقة كانت هى اللبنات التى بنى من مادتها علم الضوء، وهى: عامل النظام، وعامل السببية، وعامل المصادفة، وما من عامل منها اختص بالعلم وحده، بيد أنها جميعا لها تطبيقات فى العلم تولدت عن مدركات عامة، رآها العلماء والحكماء فى كل عصر من العصور التى سبقت عصر ابن الهيثم، فابتدعوا نُظُمًا مختلفة لتفسير هذه المدركات، مرتبطة بمفاهيم كل عصر، نظمًا هى من صنع العقل البشرى لا تمثل فى واقعها إلا إيقاعًا فى ملحمة موسيقية تقرع، تلك الملحمة هى ملحمة تاريخ الإنسانية جمعاء.

يسجل لنا علم الضوء هذه المدركات العامة بطريقة سلسة، فله تاريخ يمكن أن نتلمس فيه بسهولة ويسر مراحل نمو هذه المدركات وتطورها، وفضلاً عن ذلك يمكننا بدراسة هذا التاريخ أن نعرف اللحظات الحاسمة ذات الأهمية العظمى، تلك اللحظات التى تعاد فيها صياغات هذه المدركات من جديد، وإحدى هذه اللحظات واحدة من ومضات ابن الهيثم فى تفسير وصياغة قوانين الانعكاس والانعطاف للضوء، بل وتفسير ماهية الضوء نفسه.

تناول ابن الهيثم رءوس موضوعات كثيرة فى علم الضوء سجلها فى كتاب المناظر، وقام بدراستها دراسات مستفيضة ظلت هى المرجع الأساسى لهذا العلم حتى القرن الثامن عشر الميلادى، ووضع نظامًا لكل موضوع لُحمته أحكام شاملة بناها على أساس من التجربة والمشاهدة والاستقراء، وكان فى موقف من يتساءل:

هل الأضواء جميعًا سواء منها المُشرق من الأجسام المضيئة بذاتها أو المشرق من الأجسام المستضيئة بغيرها تمتد فى الجسم المشف الواحد على السموت المستقيمة؟ وإن كان الأمر كذلك، هل من سبيل إلى القول بأن الإبصار يكون بورود الضوء المشرق من المبصر إلى البصر؟ وإن قيل هذا، فإن الضوء الوارد من المبصر إلى البصر يرد من كل نقطة من المبصر إلى جميع سطح البصر، أى إلى جلدية العين.

فكيف يتسنى للبصر أن يدرك المبصر بأجزائه المختلفة وألوانه ونقوشه وتخطيطاته كما عليه فى الواقع المحسوس دون أن يختلط كل ذلك بعضه ببعض؟ وكيف يتسنى إدراك المبصرات المختلفة معًا دون أن تختلط صورها أو تشتبه؟

وإذا كان الإحساس يحدث فى داخل البصر بورود الضوء من المبصر، فكيف يدرك البصر فى مكانه خارج البصر؟ بل كيف يتسنى أن يدرك بعده، وشكله، وتجسمه وما

إلى ذلك؟ وكيف يعرض ما يعرض أحيانًا من الغلط فى إدراك هذه الأمور؟ وكيف يتسنى أن يدل المبصر واحدًا بالنظر إليه بالعينين الاثنتين؟

وأيضًا ـ هل الأضواء جميعًا تنعكس على صفة واحدة؟ وإن كان الأمر كذلك، فما الصفة العامة التى تنعكس عليها الأضواء جميعًا؟ وبعد، هل من سبيل إلى القول بأن إدراك المبصر بالانعكاس هو بورود الضوء المشرق منه إلى العين بعد انعكاسه؟

وإن كان الأمر كذلك، فأين يكون موضع الخيال الذى يُرى، وما صفاته؟ وأيضًا ـ هل الأضواء جميعًا تنعطف على صفة واحد؟ وما هذه الصفة؟ وبعد هل من سبيل إلى القول بأن إدراك المبصر بالانعطاف هو بورود الضوء المشرق منه إلى العين بعد انعطافه؟

وإن كان الأمر كذلك، فأين يكون موضع الخيال، وما صفاته؟

رسم ابن الهيثم خطة للبحث فى هذه القضايا وفى هذه المدركات، قائلاً فى كتابه المناظر:

«نبتدئ فى البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتميز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاد المقدمات، والتحفظ من الغلط فى النتائج، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء».

فى القول الموجز، وضع ابن الهيثم الشرط الأساسى الذى يجب أن يتوافر فى البحث العلمى «استعمال العدل لا اتباع الهوى وطلب الحق لا الميل مع الآراء».

وابن الهيثم يتصفح أحوال المبصرات، ثم يميز خواص الجزئيات التى عن طريقها ينتقل من المجهول إلى المعلوم، أى إلى المعلوم الذى سيصل إليه عن طريق المعرفة باللقاء، أو كما يقول: «فرأيت أننى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية، وصورتها الأمور العقلية». وابن الهيثم يشكك فى المعرفة المتواترة، ويشك فى مقوماتها شكًا قريبًا من شك ديكارت، وإن كان لا يمت إليه فى روحه العامة من حيث إن الباعث على هذا الشك الأخير لم يكن إلا رغبة ديكارت فى أن يقيم اليقين الذى أقامه بعد الشك على أسس ميتافيزيقية، بينما ابن الهيثم يقصد الوصول إلى نوع من «الغربلة» الهدف من ورائها الوصول إلى أحكام قاطعة لكل زمان ومكان، ويقول:

«ولعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق».

وأى حق هو؟

«الذى به يثلج الصدر».

وورث ـ أيضًا ـ فكرة (إمبدوقليس) الفيلسوف اليونانى، فالموجودات فى نظره تتكون من (عناصر) أو أجرام غير متجزئة، ويسود عالم الوجود فى نظره قوتان أو محركان، أحدهما المحبة أو الألفة، والثانى العداوة أو الغلبة أو البغضة، فبعامل المحبة تتجاذب وتتصل تلك العناصر كل مثيل إلى مثيله، وكل نوع إلى نوعه، وبعامل الغلبة تتنافر الأنواع عن غيرها، والأشياء عن أضدادها.

والإدراك بوجه عام فى نظره ـ هو اتصال العناصر فى الموجودات الخارجة بأنواعها فى الإنسان، والإبصار بوجه خاص بخروج عناصر من البصر واتصالها بعناصر من نوعها تخرج من المبصر، وبوقوع الاتصال بين هذه وتلك يحدث الإبصار.

وكذلك ورث مذهب أفلاطون فى الإبصار، ويتلخص مذهبه فى زعمه أن البصر لا يدرك المبصر إلا على النمط التالى:

فمن البصر ينبعث ما عبر عنه الأفلاطونيون (بالنار الإلهية) أو (بالقوة النورية)، وهو ما شاع تسميته عند الإسلاميين بالروح الباصر، فإذا خرجت النار الإلهية من البصر فى ضوء النهار، اتصلت بذلك النور الذى من نوعها، وإذا ما اتصل المثْل بالمثل على هذه الكيفية اندمجا واتحدا وتكون منهما الشعاع الذى به يدرك البصر المبصَر.

وورث ـ أيضًا ـ مذهب أرسطو الذى عارض فيه مذهب أفلاطون، فهو يرى أن الضوء صفة، أو كيفية عارضة تعرض على الوسط أو الجسم المشف الذى يتوسط بين المبصر والبصر، وأنكر أن للضوء وجودًا فى ذاته، فالضياء ليس بجسم نيِّر، فالجسم إذا تحرك فإنما تكون حركته فى زمان والضياء لا يتحرك فى زمان، كما أنكر أن الضوء يقبل الحركة أو أن يكون شيئًا يرد من البصر، وإلا فكيف يتفق أنه يوجد شيئان فى مكان واحد؟

فهو صفة عارضة تعرض على المشف إذا مازالت عنه كانت الظلمة، والظلمة ليست جسمًا فيجب أن يكون الضوء ليس جسمًا، وذلك أن قوة المتضادين واحدة، فإن كان أحدهما عرضًا كان الآخر عرضًا كالسواد والبياض.

فالإبصار فى زعمه انطباع يحدث فى البصر لا من جراء شىء يرد من المبصر إلى البصر، وإنما بفعل المتوسط عن قبوله تلك الصفة العارضة عليه.

ولم يدم رأى أرسطو، فلم يقبله (أبيقور) (٣٤١ - ٢٧٠ق.م)؛ لأنه نحا فى فلسفته المنحى الحسى البحت، وأبطل فيها وجود اللامادى غير المحسوس، لذلك لم يقبل القول بأن المبصر يؤثر فى البصر عن بعد، دون أن يرد منه إلى البصر شىء، فقرر فكرة (الورود). فالمبصرات فى زعمه (أشباح) أو صور هى أخيلة رقيقة على مثال الأجسام المبصرة نفسها تتخلع عنها، وتنبعث منها باتصال واستمرار والإبصار هو بورود هذه الأشباح إلى العين.

وقد ظل مذهب أرسطو المنطوى على عدم ورود شىء من المبصر إلى البصر، ومذهب أبيقور المنطوى على ورود شبح من المبصر إلى البصر يتنازعان آراء الفلاسفة الطبيعيين زمنًا طويلاً، والغريب أنه رغم تناقضهما فقد اندمجا معًا، وتكون منهما مذهب كان مذهب ابن سيناء فى الإبصار!

فابن سيناء قد جمع بين النقيضين ورأى أن الإبصار (باتشاح شبح المبصر) فى البصر بمجرد المحاذاة، دون أن يكون ذلك بورود شىء منه إلى البصر.

أما فلسفة الرواقيين(٥) (٣٣٦ ق.م - ٢٦٤ق.م)، التى سادتها المادية فكل ما هو موجود محسوس فى زعمهم، وفعل الجسم فى الجسم أو تأثيره فيه لا يكون إلا بالاتصال المادى بين الجسمين أو بتماسهما، وكذا الإدراك يتوسط الحواس.

فالإبصار فى زعمهم لا يكون إلا بالاتصال الفعلى أو المادى بين العضو الحارس (العين) وبين المبصر، وكيفية ذلك أن يخرج من العين شعاع على شكل مخروط رأسه عند العين وقاعدته عند سطح المبصر، فإذا ما خرج هذا الشعاع من العين ووقع على المبصر فلمسه حدث الإبصار، فكأن العين وهى العضو الخاص تمتد حتى تلتمس المبصر، وكأن الشعاع بمثابة ما يسميه علماء الحشرات قرون الاستشعار، والقول بالشعاع الخارجى من العين هو المذهب الرياضى فى العصر الإسكندرانى، وأطلق عليهم ابن الهيثم أصحاب الشعاع.

جاء ابن الهيثم فأحدث ثورة علمية فى علم الضوء، وأحدث تحولاً فى النظر إلى الأشياء من فكرة ترى العالم، وكأن أجزاءه تنتظم حسب طبيعتها المثلى إلى فكرة ترى العالم تجرى الأحداث فيه حسب نظام ثابت.

كانت الفكرة القديمة المتوارثة من الأغارقة تتمثل فى أن للموجودات طبائع هى فى أساسها من طبيعة الإنسان، إذ كانوا يؤمنون بوجود نوع من الإرادة الموجهة عند هذه الموجودات، قد تكون إرادة غير واعية، ولكنها على أية حال إرادة حيوانية عنيدة. فالنار تتصاعد إلى أعلى والموجودات الثقيلة تسَّاقط إلى أسفل، والهواء مقدر له أن يتصاعد إلى طبقات الجو، كل يتحرك بدافع من نفسه، ليجد مستقرًا له فى تلك الأماكن، وضوء الشمس ينير العالم دفعة واحدة فلا يصل إلى الأرض فى زمان، والإبصار يكون عن طريق خروج شعاع من العين حين يقع على البصر يسبب الإحساس بالإبصار، شعاع له إرادة موجهة عنيدة تريد مستقرًا.

جاء ابن الهيثم وأثبت أن الضوء هو مجموعة من أحداث، وأن له وجودًا فى ذاته وأنه ينتقل طبقًا لنظام ثابت ذى نموذج آلى مسبق فى كل مكان، والأضواء كلها من جنس واحد، سواء كانت أضواء ذاتية من الشمس أو الكواكب أو أضواء عرضية، أو أضواء صادرة من فتيلة مشتعلة، كلها تخضع لنظام واحد تمتد من المبصر إلى البصر على سموت خطوط مستقيمة. ويقول بلفظه:

«إن امتداد الضوء على سموت خطوط مستقيمة يظهر ظهورًا بينًا من الأضواء التى تدخل من الثقوب إلى البيوت المظلمة، فإن ضوء الشمس وضوء القمر وضوء النار إذا دخل فى ثقب إلى بيت مظلم، وكان فى البيت غبار، أو أُثير فإن الضوء الداخل من الثقب يظهر فى الغبار الممازج للهواء ظهورًا بينًا، ويظهر على وجه الأرض أو حائط البيت المقابل للثقب.

ويوجد الضوء ممتدًا من الثقب إلى الأرض أو إلى الحائط المقابل للثقب على سموت خطوط مستقيمة، وإن اعتبر هذا الضوء الظاهر بعود مستقيم، وجد الضوء ممتدًا على استقامة العود، وإن لم يكن فى الأرض غبار وظهر الضوء على الأرض وعلى الحائط المقابل للثقب، ثم جعل بين الضوء الظاهر وبين الثقب عود مستقيم، أو مد بينهما خيط مدًا شديدًا، ثم، جعل فيما بين الضوء والثقب جسم كثيف ظهر على ذلك الجسم الكثيف، ويطل من الموضع الذى كان يظهر فيه.

ثم إن حُرك الجسم الكثيف فى المسافة الممتدة على استقامة العود وجد الضوء أبدًا يظهر على الجسم الكثيف، فتبين من ذلك:

«أن الضوء يمتد من الثقب إلى الموضع الذى يظهر فيه الضوء على سموت خطوط مستقيمة»».

إن الملكة العلمية الطبيعية فى هذا العقل العبقرى، هى التفسير الذى لا غنى عنه لجميع أعماله واعتباراته، ويتضح من جمع الحوادث المتفرقة فى ظاهرة واحدة، لأنها بنية حية وليست أشتاتًا من الحوادث يمسكها السمط، ولكنها فى نظر ابن الهيثم تؤخذ جانبًا كما تؤخذ الصور من جوانبها المتعددة، وحين تتحرك هذه الصور الساكنة يتولد عنها (فيلم) سينمائى فيه حياة موضوع. هذا هو النظام الذى ارتآه ابن الهيثم للأضواء الذاتية والأضواء العرضية والأضواء الصادرة عن وهج الشموع، نظام يجمع هذا الهرج والمرج فى التغيرات السابقة لهذه الأضواء رغم اختلافها الظاهر، ورغم هذا الاختلاط بينها، فإنه قد تمكن بعد دراستها من أن يستدل على رابطة نشأت عليها.

إن البحوث العلمية لابن الهيثم التى استقرأها واستنبطها عن خواص الأضواء الذاتية وخواص الأضواء العرضية، قد أثبتت أن الخواص واحدة فى الحالين، مما يقوم دليلاً على أن ماهية الأضواء الذاتية، وماهية الأضواء واحدة، فبذلك يصبح مذهب ابن الهيثم فى التوحيد بينهما لا يعوزه برهان، وتصير نظريته فى أن للضوء وجودًا ذاتيًا وأن الإبصار إنما هو بفعل هذا الضوء يشرق من المبصر، وينفذ فى المشف إلى البصر، تصير هذه النظرية وطيدة البنيان، رغم إنكار الكثير من الفلاسفة لها، أما أصحاب التعاليم فإنهم لم يسموا إليها.

وها هو أثير الدين مفضل بن عمرو الأبهرى العالم الإيرانى الفيلسوف الذى توفى عام ١٢٦٣م لا يذكر نظرية ابن الهيثم فى الإبصار رغم مضى أكثر من مائة عام عليها. ففى مخطوطه «هداية الحكمة» الموجود بدار الكتب يقول، إن مذاهب الأبصار ثلاثة:

١ - مذهب الرياضيين

وهو أن الإبصار بخروج شعاع من العينين على هيئة مخروط رأسه عند مركز البصر، وقاعدته عند سطح المبصر، ثم إنهم اختلفوا فيما بينهم، فذهب جماعة إلى أن ذلك المخروط مصمت، وذهب جماعة أخرى إلى أنه مركب من خطوط شعاعية مستقيمة، أطرافها التى تلى البصر مجتمعة عند مركزه ثم تمتد متفرقة إلى المبصر.

فما ينطبق عليه من المبصر أطراف تلك الخطوط أدركه البصر، وما وقع بين أطراف تلك الخطوط لم يدركه، ولذلك يخفى على البصر المسافات التى فى غاية

الدقة فى سطوح المبصرات، وذهب جماعة ثالثة إلى أن الخارج من العينين خط واحد مستقيم، فإذا انتهى إلى المبصر يتحرك على سطحه فى جهتى طوله وعرضه حركة فى غاية السرعة، وتتخيل بحركته هيئة مخروطية.

٢ ـ مذهب الطبيعيين

وهو أن الإبصار بالانطباع، وهو المختار عند أرسطو وأتباعه كالشيخ الرئيس وغيره: قالوا إن مقابلة المبصر الباصرة توجب استعدادًا تفيض به صورته على الجليدية، ولا يكفى فى الإبصار صورته فى جليديتى العينين، بل لابد من تأدِّى الصورة إلى ملتقى العصبيتين المجوفتين، ومنه إلى الحس المشترك. ولم يريدوا بتأدِّى الصورة من الجليدية ومنه إلى الحس المشترك انتقال الغرض الذى هو الصورة، بل أرادوا أن انطباعها فى الجليدية معد بفيضان الصورة على الملتقى، وفيضانها عليه معد لفيضانها على الحس المشترك.

٣ ـ مذهب طائفة الحكماء

وهو أن الإبصار ليس بالانطباع ولا يخرج الشعاع الذى فى البصر، بل إن الهواء المشف الذى بين الرائى والمرئى يتكيف بكيفية الشعاع الذى فى البصر، ويصير بذلك آلة للإبصار.

«وامتداد الضوء فى الأجسام الطبيعية هو خاصة طبيعية لجميع الأضواء، ولا يصح أن يقال إن امتداد الضوء فى جميع الأجسام المشفة على سموت الخطوط المستقيمة هو خاصة تخص الأجسام المشفة.

لأن هذا القول الأخير يفسد عن السبر والاعتبار، والقول الأول هو الصحيح، وذلك أنه لو كان امتداد الضوء فى الجسم المشف هو خاصة الجسم المشف لكان امتداد الضوء لا يكون إلا على سموت مخصوصة، وليس يوجد الأمر كذلك.

بل توجد الأضواء فى الأجسام المشفة على سموت متقاطعة ومتوازية ومتلاقية فى وقت واحد، ومن ضوء جسم واحد.

وذلك أن كل نقطة من الجسم المضىء يمتد منها ضوء على كل خط مستقيم يصح أن يمتد من تلك النقطة، فالأضواء التى تمتد من نقطتين مفترقتين من النقط التى فى الجسم المضىء تكون متقاطعة، أعنى أنه تكون الخطوط الممتدة من إحدى النقطتين فى جميع الجهات متقاطعة للخطوط الممتدة من النقطة الأخرى فى جميع الجهات.

وإذا حضر فى الوقت الواحد عدة من الأجسام المضيئة امتدت الأضواء من كل واحد منها، فتكون الخطوط التى يمتد عليها جميع تلك الأضواء مختلفة الوضع اختلافًا متفاوتًا، ويعرض من ذلك أن يكون امتداد الأضواء فى جهات متضادة إذا كانت الأجسام المضيئة فى جهات متضادة بالقياس إلى الجسم المشف.

فيبطل الاختصاص، ولا يكون فى الجسم المشف سموت مخصوصة تؤدى الضوء، ومع ذلك فإن الحركات الطبيعية لا تكون فى جهات متضادة، فلو كانت الصورة المؤدية للضوء التى فى الجسم المشف تؤدى الضوء على سموت مستقيمة بخاصة تخصها، لكانت لا تؤدى الضوء على سموت واحدة بأعيانها فى جهتين متضادتين.

وإذا كانت الأضواء تمتد فى الجسم الواحد المشف على سموت واحدة بأعيانها فى جهتين متضادتين، فليس امتداد الضوء فى الأجسام المشفة على سموت للخطوط المستقيمة بخاصة تخص الأجسام المشفة، وإذا كان الضوء لا يمتد إلا فى الأجسام المشفة ولا يمتد فى الأجسام المشفة إلا على سموت خطوط مستقيمة، وكان الامتداد على الخطوط المستقيمة ليس بخاصة تخص الأجسام المشفة، فليس امتداد الضوء على سموت الخطوط المستقيمة إلا بخاصة تخص الضوء، فخاصة الضوء أن يمتد على سموت خطوط مستقيمة، وخاصة الشفيف أن لا يمنع نفوذ الأضواء فى الأجسام المشفة، والضوء الممتد فى الأجسام المشفة على سموت الخطوط المستقيمة هو الذى يسمى شعاعًا.

فالشعاع هو الضوء الممتد من الجسم المضىء فى الجسم المشف على سموت خطوط مستقيمة، والخطوط المستقيمة التى يمتد عليها الضوء هى خطوط متوهمة لا محسوسة، والخطوط المتوهمة مع الضوء الممتد عليها لمجموعها هو الذى يسمى الشعاع.

فالشعاع صورة جوهرية ممتدة على خطوط مستقيمة، وإنما يسمى أصحاب التعاليم شعاع البصر شعاعًا لشبهها بشعاع الشمس وشعاع النهار».

وهنا يقرر ابن الهيثم قرارًا جازمًا بأن الضوء وامتداده، ومن ثم الإبصار، ليس بخاصة تخص الأجسام المشفة، ولا يتكيف الهواء وهو الشفيف بكيفية خاصة فتصيره آلة للإبصار، إنما الضوء له كيان بذاته يمتد فى الأجسام المشفة، سواء كانت هواء أو ماء أو زجاجًا بصفة واحدة وكيفية على سموت الخطوط المستقيمة.

هذا نظام قد خططه ابن الهيثم واستقر رأيه عليه نهائيًا، نظام استقصى البحث فيه من الناحيتين: العملية والتجريبية، نظام يشترك فيه جميع الأضواء ذاتيها وعرضيها، وأنه طبيعة ثابتة للضوء بما هو ضوء، وليست صفة عارضة تعرض فى بعض الأحوال، وتزول فى بعض الأحوال، وإن امتداد الضوء على السموت المستقيمة ليس من لواحق الجسم المضىء الذى يشرق منه الضوء، بل إنه لازمة لا تنفك عن الضوء، حتى إذا انعكس عن سطح الصقيل إلى جهة أو انعطف فى مشف آخر أو خرج نافذًا منه.

وتجاربه فى هذا الصدد من البساطة بمكان، فهى لا تختلف كثيرًا عما نجده فى كتب الدراسة الأولية فى الوقت الحاضر، فضوء الشمس إذا دخل بيتًا مظلمًا من ثقب، وكان الهواء الذى فى البيت كدرًا بغبار أو دخان، فإن الضوء يظهر ممتدًا على استقامة من الثقب الذى يدخل منه الضوء إلى الموضع الذى ينتهى إليه ذلك الضوء من أرض البيت أو جدرانه.

وإذا كان الهواء صافيًا نقيًا، ولم يظهر امتداد الضوء للحس، وأخذ المعتبر جسمًا مكثفًا وقطع به السمت المستقيم بين الثقب وموضع الضوء عند أية نقطة كانت، وجد الضوء يظهر على ذلك الجسم المكثف، ويبطل من الموضع الذى يظهر فيه من أرض البيت أو جدرانه.

ويقول ابن الهيثم فى المقالة الأولى من المناظر :

«وإذا اعتبر المعتبر أى مسافة شاء من المسافات المتعرجة والمنحنية والمقوسة التى بين الثقب وبين الوضع الذى يظهر فيه الضوء فقطعها بالجسم، لم يظهر فيها شىء من ذلك الضوء».

وهو يتخذ ظاهرة الإظلال دليلاً على امتداد الأضواء على السموت المستقيمة، ويقول بلفظه: «وقد يظهر هذا المعنى أيضًا فى جميع الأضواء من الإظلال، فإن الأشخاص المنتصبة الكثيفة إذا أشرق عليها الضوء. وظهرت أظلالها على الأرض وعلى ما يقابلها من الأجسام الكثيفة، توجد الأظلال أبدًا ممتدة على استقامة، وتوجد المواضع التى استظلت هى المواضع التى قطعت الأشخاص المظلة المسافات المستقيمة التى بينها وبين الجرم المضىء الذى انقطع ضوؤه عن تلك المواضع».

ومن خواص الضوء ما نعبر عنه فى الوقت الحاضر بالحزمة الضوئية التى تخرج من الجسم المضىء على هيئة مخروط، فضوء الشمس إذا نفذ من ثقب ضيق يوجد

أبدًا منخرطًا انخراطًا محسوسًا، بحيث إذا وقع على جسم يقابل الثقب وجدت المسافة المستضيئة به أوسع من الثقب أضعافًا، ويستدل من هذه المشاهدة على أن ضوء الشمس حتمًا يشرق من جميع أجزائها إلى الثقب الضيق على سموت خطوط مستقيمة، يلتئم منها شكل مخروطى، ثم يمتد الضوء بعد ذلك على سموت الخطوط المستقيمة نفسها، فيحدُث مخروط آخر مقابل للمخروط الأول.

ويستدل ابن الهيثم على أن الضوء يشرق من الجسم المضىء سواء كان شمسًا أو قمرًا أو ذُبالةً من جميع أجزاء الجسم، وأنه يمتد على السموت المستقيمة.

ولعل من أجدر تجاربه بالذكر فى هذا الصدد تجربة أوردها فى مقاله فى ضوء القمر، بين بها أن جرم القمر إذا أشرق عليه ضوء الشمس وصار شيئًا، فإن ضوءَه يشرق من كل نقطة من سطحه على كل نقطة تقابلها كما تشرق الأضواء الأولى من الأجسام المضيئة بذواتها.

ولا يقتنع ابن الهيثم بالتجارب المباشرة، بل يمضى فى تحقيق الامتداد على السموت المستقيمة فى الأضواء المنعكسة، وفى الأضواء النافذة من الأجسام المشفة، ويصف لذلك تجارب كثيرة، ويتلخص بعضها فى أن يؤتى بجسم كثيف تقطع به المسافة المستقيمة بين السطح الصقيل العاكس، وبين موقع الضوء الذى ينعكس عنه، أو بين الجسم المشف وبين الضوء النافذ منه، الذى هو منه بمثابة الظل، حيث يتبين فى جميع الأحوال أن الامتداد هو فعلاً على السموت المستقيمة.

ويستعين أيضًا فى بعض تجاربه لبيان امتداد الأضواء المنعكسة على السموت المستقيمة بظاهرة الظلال، حيث إذا استقبل الضوء المنعكس على جسم مكثف أبيض يوضع بالقرب من السطح العاكس، ودخل فى المسافة المستقيمة بينهما ميل دقيق أو خلاله، لوحظ ظهور ضوء منعكس على الميل نفسه، وظهور ظل الميل على الجسم الكثيف الأبيض.

وهو يَعنى فى بحوثه فى الانعطاف أن الضوء عند نفوذه من وسط مشف كالهواء إلى آخر مشف يَختلِف شفيفه عن شفيف الأول كالماء أو الزجاج، فإنه يمتد فى المشف الثانى أيضًا على السموت المستقيمة، سواء كان نفوذه فيه مقرونًا بالانعطاف أو غير مقرون.

ولقد أفرد ابن الهيثم للإظلال مقالة خاصة هى «مقالة فى الإظلال» تناول فيها أمورًا كثيرة، ذلك لأن ظاهرة الإظلال لها شأن كبير فى علم الفلك، وهى ـ كما يقول ابن الهيثم فى مقدمة مقالته ـ أحد الأصول المعتمد عليها فى علم البيئة، فالخسوفات بأنواعها المختلفة تحدث عن الإظلال، وتحقيق مقادير الخسوفات وأزمانها لا يتأتى إلا بدراسة أشكالها.

ويستفاد من مقالة ابن الهيثم أن الذين تناولوا هذه الظاهرة بالبحث من قبله، لم يستوفوا بحثها ولم يبينوا أشكال الإظلال المختلفة، ولم يميزوا بين ما نسميه (الظل) وما نسميه (شبه الظل) فى الوقت الحاضر، واقتصرت أقوالهم على ناحية واحدة من نواحيها.

وأجرى بعض التجارب الأرضية، إذ استخدم (سراجًا ذا فتيلة غليظة) وجعله على مسرجة مرتفعة عن الأرض فى بيت لا يدخله الضوء، وجعل بُعد السراج عن الحائط نحو ذراعين أو أقل، وأعد عودًا دقيقًا قابل به السراج، ومد العود فيما بين السراج والحائط.

فإذا تأمل المعتبر ما يظهر على الحائط فى مثل هذه الحالة، وجد ظلاً عريضًا أعرض كثيرًا من العود، وإذا قدم العود إلى السراج، اتسع عرض الظل، وإذا أبعده عنه وقربه نحو الحائط ضاق عرض الظل.

ودرس ابن الهيثم الظواهر المتعددة فى الخزانة ذات الثقب، وأجرى الكثير من التجارب والبحوث، فتوصل إلى دراسة كسوف الشمس، والمقارنة بين صورة كسوف الشمس وصورة هلال القمر.

واستنتج ـ بالاستعانة ببراهين هندسية ـ أن نسبة بُعد الشمس عن مركز الأرض إلى قطر الشمس كنسبة ١١٥:١، وهى نسبة قريبة جدًا مما نعرفه اليوم.

إن نسبة فضل الكشف عن ظاهرة تكون صور المرئيات بواسطة الثقوب الضيقة إلى (دلأبورتا) كما هو الشائع المتواتر، أو إلى (روجر باكون) أو إلى (فيتلو) أو إلى (ليوناردو دافنشى) أو غيرهم من المتأخرين عن ابن الهيثم، لا يكون مشكوكًا فيها وحَسْب، بل تكون قطعًا غير متفقة والواقع، فقد سبق ابن الهيثم كل هؤلاء ولزم علينا أن نؤكدها وننشرها(٦).

يرى ابن الهيثم فى جميع ظواهر الضوء مجموعة من الحوادث العلمية، التى تخضع لمجموعة من القوانين العلية، ومعنى الحوادث هنا قريب جدًا من المعنى الذى استعملها فيه متكلمو السنة، حين أطلقوا كلمة الحوادث ومفردها: حَدَث، وليس حادثة، على الأعراض أو صفات المادة التى لا تدوم، فالحوادث وحدات صغيرة جدًا ليس لها حيز فى المكان أو اتصال فى الزمان.

فمهما كان سطح الصقيل، مسطحًا كان أو محدبًا أو مقعرًا أو أسطوانيًا، فإن الضوء ينعكس فوق سطحه طبقًا لقوانين علية هى قوانين الانعكاس، أى زاوية السقوط تساوى زاوية الانعكاس، والشعاع الساقط والشعاع المنعكس والعمود على السطح عند نقطة السقوط تقع كلها فى مستوى واحد.

ومهما كان سطح الشفيف دائريًا أو مسطحًا أو غير ذلك، فإن الضوء حين ينفذ من شفيف إلى شفيف آخر فإنه يخضع لأحكام وقوانين علية ثابتة، والأجسام المشفة يختلف شفيفها، وكل نوع من أنواعها يختلف شفيفه ما سوى جسم الفلك، وذلك أن الهواء يختلف شفيفه: فمنه غليظ ومنه لطيف، والغليظ كالضباب والدخان، وما خالطه غبار أو دخان، ومنه لطيف كالأهوية التى بين الجدران والهواء القريب من الفلك.

الضوء بحسب مذهب ابن الهيثم ليس بجوهر وليس بمادة، بل هو شىء موجود بذاته، وهو مجموعة من حوادث، تشرق الشمس فينتقل الضوء فى زمان، وينتقل فى شفيف الفلك ثم ينعطف فى شفيف الهواء. فنرى الكواكب فى وضع ظاهرى يدرسه ابن الهيثم ثم ينعكس فوق السطوح التى تعترضه وينعطف فى الماء، وهكذا فهو مجموعة من حوادث تخضع لقوانين علية كما تخضع الموجودات والأجرام السماوية إلى قانون علّىّ هو قانون الجاذبية.

وعلى هذا الأساس درس ابن الهيثم الحوادث التالية:

تعيين نقطة الانعكاس عن المرآة الكرية ـ وتعيين نقطة الانعكاس عن المرآة الأسطوانية ـ وتعيين نقطة الانعكاس عن المرآة المخروطة ـ والخيالات التى تُرى بالانعكاس، وتفصيل أحوال الخيالات التى ترى فى المرايا الكرية، وأحكام الانعطاف وما يتعلق بالانعطاف عن السطوح المستوية ـ وخيال النقطة المبصرة الذى يرى بالانعطاف ـ وخيالات المبصرات المدركة بالانعطاف عند السطح المستوى ـ والانعطاف عند السطوح

الكرية وما يترتب على الانعطاف من الظواهر الجوية - والخيالات التى ترى بانعطاف عن السطوح الكرية - درس كل هذا دراسة مستفيضة ووضع لها نظمًا، كانت المرجع الأساسى فى عصر التنوير وعصر النهضة بأوروبا. بل إن الأشكال الهندسية التى جعلها كوسائل إيضاح قد نقلت بحرفها عند (تيودوريك)، و(روجر باكون)، و (روبرت جروستست)، و (فيلتو)، و (ديكارت).

هذا بعض ما أنتجه (ابن الهيثم) من خلال كتابه الرائد «المناظر» ويتجلى للقارئ منه: الخدمات الجليلة التى أسداها إلى هذه العلوم، والمآثر التى أورثها إلى الأجيال، والتراث النفيس الذى خلفه للعلماء والباحثين، مما ساعد كثيرًا على تقدم علم الضوء الذى يشغل فراغًا كبيرًا فى الطبيعة، والذى له اتصال وثيق بكثير من المخترعات والمكتشفات، والذى لولاه ما تقدم علمًا الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب. وهو تقدم مكّن الإنسان من الوقوف على بعض أسرار المادة فى دقائقها وجواهرها، ومن الاطلاع على ما يجرى فى الأجرام السماوية من مدهشات ومحيرات!

التصريف لمن عجز عن التأليف

الكتاب الذى كان له أعظم الأثر

فى النهضة الأوروبية على مدى خمسة قرون

الزهـراوى

(١٠٠٣ م)

من الأطباء العرب الجراحين

أبو القاسم الزهراوى

(٩٣٦ - ١٠١٣م)

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى أول من نبغ فى الجراحة بين العرب، بل هو فخر الجراحة العربية، ثالث ثلاثة من نوابغ الأطباء العرب، وهم: الرازى، وابن سينا والزهراوى - كانوا بمثابة المصابيح التى أضاءت منها أوروبا قناديلها فى العلوم الطبية.

ولد أبو القاسم فى سنة ٣١٤ هجرية، فى مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر فى ضاحية قرطبة لإحدى زوجاته وسماها باسمها.

كان عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ذروة عصر الازدهار فى الأندلس، فبعد أن خمدت الفتن فى بداية خلافته واستقر الأمن فى البلاد، ازدهرت الأندلس ازدهارًا اقتصاديًا عمرانيًا وثقافيًا لم تبلغه فى العصور الماضية. ولم يكتف الناصر بما حققه من تقدم حضارى وفكرى شامل فى البلاد فأنشأ (الزهراء)، وجعلها مفخرة العمارة وآية الجمال ونافس بها مدن الأندلس - آنذاك - وجعلها تفوقها حسنًا وجمالاً. ولسعة علمه وعمق ثقافته وشعوره العميق بضرورة نشر العلم بذل الكثير فى اقتناء الكتب وجمعها؛ حتى ضاقت المكتبة بمحتوياتها. وقد كان يصل العلماء والأدباء صلات طيبة ويجرى لهم جرايات كبيرة فأغناهم همّ طلب الرزق وصرفهم إلى التفرغ لعملهم، فازداد إنتاجهم وارتفع شأنهم وعظمت مكانة العلم والأدب فى عهده.

فى مثل هذه الظروف المواتية نشأ الزهراوى (نسبةً إلى مدينة الزهراء) فوجد من الكتب القيّمة ما يرضى رغبته للتزود منها، ومن فطاحل الأعلام ما يكفل توجيه معلوماته وتنميتها، وساعد ذكاؤه الحاد ودقة نظرته على نبوغه وذيوع صيته.

ولعل الصدف خدمت أبا القاسم فى أن يكون الحكم الثانى ابن عبد الرحمن الناصر الخليفة بعد أبيه، فقد كان الحكم الثانى أكثر ولعًا بالعلم وبالعلماء من أبيه. وقد عرف الناس هذا الولع عنه فذاع، حتى إن أحد ملوك الروم ـ آنذاك ـ بعث له بكتابين أحدهما لـ (جالينوس)، والآخر لـ (أبقرط) تلقاهما الحكم بسرور.. ولما ضاقت المكتبة فى قصره بمحتوياتها أنشأ لها بناية مستقلة كانت غاية فى الإبداع؛ فيسر للعامة من الناس الدراسة والاستفادة من كنزها. ويقال إن أمين المكتبة أخبره أن فهارس الكتب قد بلغت أربعة وأربعين مجلدًا فى كل مجلد خمسون ورقة. وقد عددها بحوالى ستمائة ألف مجلد.

كان أبو القاسم والوزير عيسى بن إسحق الطبيبين الخاصين بالأمير عبد الكريم، ثم اختص أبو القاسم بالحكم الثانى وعده طبيبه الخاص، وكان بيت أبى القاسم مفتوحًا لطلاب العلم وطلاب التداوى ليلاً ونهارًا.

كان الزهراوى طبيبًا عظيم القدر مبرزًا فى صناعة الطب والعلاج وتميز على معاصريه بممارسته فى الجراحة وارتفع به صبره إلى صناعة مرموقة، وكان أعظم جراحى العرب فى العصور الوسطى ومدرسة عصر النهضة فى أوروبا وكان خصب الإنتاج مجددًا فى صناعته ومبتكرًا، ويثبت هذا فى كتابه «التصرف لمن عجز عن التأليف». وهو موسوعة طبية فى ثلاثين قسمًا، القسم الأول منها يبحث فى الأدوية وتركيبها وفوائدها والأمراض الباطنية عامة، وأفرد القسم الثانى للجراحة وأخرجه منفصلاً. وهذا القسم يحتوى على ثلاثة أبواب :

البـــاب الأول : خاص بالكَىّ ويقع فى ستة وخمسين فصلاً، ويمتاز بوفرة الشرح والرسوم.

الباب الثانى: يحتوى على سبعة وتسعين فصلاً فى الشق والبسط والفصد، وفيه وصف لعمليات استخراج حصاة المثانة بالشق والتفتيت. وفصل عن البتر فى حالات الغنغرينا ومعالجة الصديدية.

والبـاب الثـالث : خاص بالكسور وخلع المفاصل ويقع فى خمسة وثلاثين فصلاً، وفيه وصف للشلل الناشئ عن كسر فقرات الظهر. وفصل عن كسر الحوض، وفيه أيضًا فصول فى تعليم القوابل وإخراج الجنين الميت وصور الآلات التى يُحتاج إليها فى إخراجه.

وامتاز هذا المؤلف بحسن الترتيب ووضوح الأسلوب وبراعة التفسير وكان له أثر واضح على الجراحة لعدة قرون، فقد اقتبس منه (شولياك)[1] فى القرن الرابع عشر واستشهد به أكثر من مائتى مرة، كما نقل عنه كثير من جراحى العرب بعد عصره بعدة قرون.

وشعار أبى القاسم فى عمله يظهر جليًا فى عبارته هذه:

«ينبغى لكم أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم قسمين: عمل تصحبه السلامة، وعمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات. وقد نبهت فى كل مكان يأتى من هذا الكتاب على العمل الذى فيه الغرور والخوف فينبغى أن ترفضوه وتحذروه؛ لئلا يجد الجاهل السبيل إلى القول والطعن، فخذوه لأنفسكم بالحزم والحياطة، ولمرضاكم بالرفق والتثبيت. واستعملوا الطريق الأفضل المؤدى إلى السلامة والعاقبة المحمودة، وتنكّبوا الأمراض الخطرة العسرة البرء، ونزّهوا أنفسكم عما تخافون أن يُدْخل عليكم الشبهة فى دينكم. فهو أبقى لجاهلكم وأرفع فى الدنيا والآخرة لأقداركم».

وفى القسم الثانى من كتاب التصريف يشرح الآلات الجراحية ويرسمها لأول مرة فى التاريخ ويصبح هذا تقليدًا إلى يومنا هذا.

كما أنه أوصى فى مقدمة هذا القسم بضرورة معرفة التشريح، لأنه القاعدة الأولى للجراحة. وقال: إن جهل التشريح جر إلى نتائج وخيمة.

وسيأتى شرح ذلك فى مقدمة المقالة الثلاثين من كتاب التصريف الذى نحن بصدده.

وأهم أجزاء كتاب التصنيف للزهراوى (المقالة الثلاثون)، وقد أفرد هذه المقالة للجراحة، ولأهمية هذه المقالة نعرض فصولها بوضوح.

يبدأ الزهراوى هذا الجزء بمقدمه توضح حال الجراحة ومنزلتها فى أيامه يقول فيها: «ولما حملت لكم، يا بنى، هذا الكتاب الذى هو جزء من العلم بالطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه رأيت أن أحمله لهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد، لأن العمل باليد فى بلادنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره، وإنما بقيت منه رسوم يسيرة فى كتب الأوائل قد صحّفته الأيدى وواقعه الخطأ والتدريس حتى استغلقت معانيه وبعدت فائدته فرأيت أن أحييه وأؤلف فيه المقالة عن

طريق الشرح والبيان والاختصار وأن آتى بصور جديدة للكى وسائر الآلات للعمل باليد؛ إذ هو من زيادات البيان ومن وكيد ما يحتاج اليه. والسبب الذى لا يوجد صانع محسن بيده فى زماننا هذا؛ لأن صناعة الطب طويلة وينبغى لصاحبها أن يرتاض من قبل ذلك فى التشريح الذى وضعه جالينوس حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئاتها ودرجاتها واتصالها وانفصالها ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخرجها. وقال الفاضل (أبقراط) إن الأطباء بالاسم كثيرون وبالفعل قليلون ولاسيما فى صناعة اليد (الجراحة)، وقد ذكرنا نحن من ذلك طرفًا فى المدخل من هذا الكتاب لأنه من لم يكن عالمًا بما ذكرنا من التشريح لما يخل أن يقع فى خطأ، كما قد شاهدت كثيرًا ممن تصدر فى حال العلم وادعاه بغير علم ولا دراية؛ ولهذا لكم أن تعلموا أن العمل باليد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تصحبة السلامة، والثانى: عمل يكون معه العطب فى أكثر الحالات.

تنقسم هذه المقالة إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول: يختص بالكى وهو مقسم إلى ٥٦ فصلاً.

الباب الثانى: يختص بالشق والبط والفصد وسائر العمليات الجراحية وبه جزء من أمراض النساء والولادة والعيون والأنف والحلق وهو مقسم الى ١٠٠ فصل.

الباب الثالث: يختص بالكسور والخلوع.

وسنكتفى بإلقاء الضوء على البابين: الأول والثانى، فمن خلالهما يتبين لنا كيف كان الزهراوى جراحًا عظيمًا.

الباب الأول : الكَىُّ

علاج الأمراض بالكى بالنار طريقة قديمة جدًا، والنظرية فى ذلك أن الأقدمين كانوا يظنون أن بعض الأوجاع والأمراض سببها رطوبات فاسدة، لذلك كان علاجها الشافى هو النار وهى الحار اليابس.

ولم يكن الزهراوى أول من استعمل الكى، غير أنه وصل به إلى حد يقرب من الكمال وابتدع له كثيرًا من الأدوات وطرق الصناعة. وفى ٥٦ فصلاً يصف الزهراوى طريقة الكى فى الأمراض المختلفة من الرأس إلى القدم.

الباب الثانى: فى الشق والفصد والخراجات ونحوها

وفى الفصل الأول: يشرح مرض تجمع الماء فى رءوس الصبيان، ونجده يفرق بين حالتين:

(أ) نوع تتجمع فيه الرطوبة بين الجلد والعظم.

(ب) نوع تتجمع فيه الرطوبة تحت العظم، وعلامته أن نرى خياطات الرأس مفتوحة من كل جهة.

ونجده يقول: «إن هذه العلة تسرع إلى الموت»، ولذلك رأى ترك العمل به.

وفى الفصل السابع والعشرين: يصف الأورام الصغار ويسميها (العقد) التى تعرض لكثير من الناس داخل شفاههم، ويشبه بعضها (حب الكرسنة) وبعضها أصغر «فينبغى أن تقلب الشفة وتشق على كل عقدة ثم تحشو الموضع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ثم يتمضمض بالخل».

وفى الفصل الرابع والعشرين: يتكلم عن قطع الرباط الذى يعرض تحت اللسان فيمنع الكلام، فيقول: «قد يكون هذا الرباط الذى يعرض تحت اللسان إما طبيعيًا يولد به الإنسان، وإما أن يكون جرحًا قد اندمل. والعمل فيه أن تفتح فم العليل ورأسه فى حجرك وترفع لسانه ثم تقطع ذلك الرباط بالعرض حتى ينطلق اللسان من إمساكه فإن فيه بعض الصلابة والتعقد وكان ذلك من اندمال جرح فألق السنارة فيه وشقه شقًا بالعرض حتى يبرأ الرباط واحذر أن يكون الشق فى عمق اللحم فيقطع شريانًا هناك فيعرض النزف، ثم يتمضمض العليل فى إثر القطع بماء الورد والخل وبالماء البارد، ثم يضع تحت اللسان فتيلة كتان يمسكها العليل فى كل ليلة لئلا تلتحم ثانية».

وفى الفصل الخامس والثلاثين: يتحدث عن إخراج الضفدع المتولد تحت اللسان، فيقول: «قد يحدث تحت اللسان ورم يشبه بالضفدع الصغير يمنع اللسان عن فعله الطبيعى، وربما عظم حتى يملأ الفم. والعمل فيه أن يفتح فمه إزاء الشمس وتنظر الورم، فإن رأيته كمد اللون أو أسود صلبًا ولم يجد له العليل حسًا فلا تعرض له. فإنه سرطان، وإن كان مائلاً إلى البياض فيه رطوبة، فألق فيه السنارة وشق بمبضع لطيف من كل جهة، فإن غلبك الدم فى حين عملك فضع عليه زاجًا مسحوقًا حتى ينقطع الدم، ثم عد إلى عملك حتى تخرجه بكماله ثم تمضمض بالخل والملح». وهذا الكلام مازال صحيحًا حتى يومنا هذا!!

وفى الفصل الأربعين: يتكلم عن (بط الأورام وشقها). وهو يعنى الالتهابات والخراجات، فيقول: «إن أنواعها كثيرة، وهى تختلف فى بطها وشقها من وجهين. أحدهما نوع الورم نفسه وما يحوى من الرطوبات، والنوع الثانى من قبل المواضع التى فيها من البدن، لأن الورم الحادث فى مفصل، لكل واحد منهما حكم من العمل».

«ومن الأورام ما لا ينبغى أن يبط إلا بعد نضج القيح فيها وكماله، ومنها ما ينبغى أن تبط وهى نية لم تنضج على التمام» ويعطى مثلاً لذلك الخراج الحادث بقرب المقعدة؛ لئلا يعفن فينفذ إلى داخل المقعدة ناصورًا. وهو رأى صحيح لايزال متبعًا حتى الآن!!

وينبغى أن يوقع البط فى أسفل موضع من الورم إن أمكن ذلك ليكون أسهل لسيلان المادة إلى أسفل. وفى أرق موضع من الورم وأشده نتوءًا، وليكن البط ذاهبًا فى طول البدن إن كانت الأورام فى نحو اليدين أو الرجلين ومواضع العضلات والأوتاد والعصب والشريانات.. «وهذه نصيحة لا نستطيع أن نزيد عليها فى الوقت الحاضر».

يقول د. عامر النجار فى كتابه «تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية»:

«وإن كان الورم قد قطع من الجلد بعضه أو قوّره، فينبغى أن تحشوه بالقطن أو بهدب الكتان من غير رطوبة وتشده إلى اليوم الثالث ثم تنزعه وتعالج بما ينبغى من المراهم».

وفى الفصل الحادى والعشرين: يتحدث عن الشق على الأورام التى تعرض فى جلد الرأس، فيقول: «يعرض فى جلد الرأس أورام صغار وهى من أنواع السلع(٢) وتحويها صفاقات كأنها حويصلة الدجاجة وأنواعها كثيرة، فمنها شحمية ومنها ما تحتوى رطوبة تشبه الحماة(٣) ومنها ما هى متحجرة وصلبة».

«والعمل فى شقها أن تختبرها أولاً بآلة المدس(٤)؛ حتى تعلم ما تحوى، فإن كان الذى تحوى رطوبة فشقها على الطول. فإذا انفجرت الرطوبة فاسلخ الكيس الذى كان يحوى تلك الرطوبة واقطعه جميعه ولا تترك شيئًا ألبتة، فكثيرًا ما يعود إذا بقى شىء منه» (وهذه الطريقة مازالت تُستعمل حتى الآن لإزالة الكيس الزهمى)(٩).

وإن كان الورم يحتوى سلعة شحمية فشُق عليها شقًا مصلبًا، وارم الصنانير فى الجرح، وابذل جهدك فى إخراج الصفاق الذى يحويها، فإن اعترضك شريان، فاصنع ما وصفنا لك.

والشق على الورم المتحجر أسهل، لأنه قليل الدم والرطوبة».

وفى الفصل الثالث والأربعين: يقول فى علاج «الورم الذى يحدث فى الحنجرة ويسد حلق العليل حتى يشرف على الموت ويهم نَفَسُه أن ينقطع، إن الاطباء الأوائل كانوا يعمدون إلى شق الحنجرة ليتنفس العليل من موضع الجرح بعض التنفس ويسلم من الموت».. «وأمروا بترك الجرح مفتوحًا حتى تنقضى سورة المرض وتكون سورته ثلاثة أيام ونحوها، وحينئذ أمروا بخياطة الجرح».

وأما خبرته هو، فيحكيها كما يلى: «الذى شاهدته بنفسى أن خادمًا أخذت سكينًا فأرسلته على حلقها فقطعت بعض قصبة الرئة، فدعيت إلى علاجها فوجدتها تخور كما يخور من أشرف على الموت. فكشفت عن الجرح فوجدت الدم الذى خرج من الجرح يسيرًا فأيقنت أنها لم تقطع عرقًا ولا ودجًا، والريح تخرج من الجرح فخيطت الجرح وعالجته حتى برئ ولم يعرض للخادم إلا بح فى الصوت وعادت بعد أيام إلى أفضل أحوالها، فمن ها هنا أقول إن جرح الحنجرة لا خطر فيه إن شاء الله تعالى».

والفصل السادس والعشرون: يحتوى على صور الآلات ووصفها، وهذا الباب يميز كتاب الزهراوى عن كتب من سبقوه.

وفى الفصل الثانى والخمسين: علاج الفتق السرى كما يلى :

«ينبغى أن تأمر العليل أن يمسك نفسه ويقف واقفًا ممتدًا، ثم تعلم بالمداد حول السرة كلها، ثم تأمره أن يستلقى على ظهره بين يديك ثم تجز بمبضع عريض حول السرة على الموضع الذى علمت بالمداد، ثم تمد وسط الورم إلى فوق بصنارة كبيرة ثم تضبط موضع الجز بخيط قوى أو بوتر حرير ربطًا رقيقًا ويكون عقد الرباط أنشوطة ثم تفتح وسطًا للورم الممدود فوق الرباط وتدخل فيه إصبعك السبابة وتطلب المعى، فإن وجدتها قد أخذها الرباط فأرخ الأنشوطة وادفع المعى داخل البطن، وإن وجدته ثربًا فمده بصنارة واقطع فضله.. وخذ إبرتين فأدخل خيطين قويين وتدخل الإبرتين فى الجزء الذى صنعت حول الورم مصلبين قد أنفذتهما ثم تشد الورم فى أربعة مواضع على الإبر».

وفى الفصل الثالث والخمسين: يتحدث عن علاج السرطان، فيقول: «متى كان السرطان فى موضع يمكن استئصاله كله كالسرطان الذى يكون فى الثدى أو الفخذ

ونحوهما من الأعضاء الممكن إخراجه منها بجملته، لا سيما إن كان مبتدئًا فافعل. وأما متى ورم وكان عظيمًا فلا ينبغى أن نقربه فإنى ما استطعت أن أبرئ أحدًا منه، ولا رأيت قبلى من وصل إلى ذلك الحد والعمل فيه إذا كان متمكنًا». ويصف طريقة استئصاله: «ثم نلقى فى السرطان الصنانير التى تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا تبقى شيئًا من أصوله.. فإن اعترضك فى العمل نزف دم عظيم من قطع شريان أو وريد، فاكو العروق حتى ينقطع الدم».

وفى الفصل الثامن والخمسين: يتكلم عن علاج البول المحتبس فى المثانة، فيقول: «البول المحتبس فى المثانة يكون عن سدة من حصاة أو دم جامد أو قيح أو لحم نابت أو نحو ذلك، وإذا فشل العلاج ولم ينطلق البول ورأيت أن احتباسه من قبيل حصاة قد صارت فى عنق المثانة.. واشتد الأمر على العليل، فينبغى أن يستعجل إخراجه بالآلة التى تسمى قساطير، وهى تصنع من فضة وتكون رقيقة وملساء مجوفة كأنبوبة ريش الطير فى دقة الميل، طويلة فى نحو شبر، ونصفها قمع لطيف فى آخرها وهو رأسها.

ووجه جذب البول بها أن تأخذ خيطًا وتربط فى طرفه صوفة أو قطنة ربطًا جيدًا وتدخل طرف الخيط فى أسفل القساطير وتقرض بالمقراض إن فضل شىء من الصوفة لكى تدخل فى الأنبوبة كالزر، ثم تدهن القساطير بزيت أو بزيد أو بياض البيض، ويجلس العليل على كرسى وتتطل مثانته وإحليله بالأدهان الرطبة أو الزيت أو الماء الفاتر ثم تدخل القساطير فى الإحليل برفق حتى تصل إلى أصل الإحليل ثم تحنى الإحليل إلى فوق ناحية السرة ثم تدفع القساطير إلى الداخل حتى إذا وصلت قريبًا من المقعدة فميِّل الذكر إلى أسفل فى داخله، ثم تدفعها حتى تصل المثانة ويحس بها العليل الذى يسلك فيه تعويج ثم تجتذب بالصوفة قليلاً، فإن البول يتبع الصوفة ثم تخرجها ويخرج البول». ولا تزال هذه الطريقة متبعة حتى الآن فى إدخال القساطير والممدات ومنظار المثانة.

وفى الفصل التاسع والخمسين: يصف «كيف تحقن المثانة بالزراقة وصورة الآلات التى تصلح لذلك، فيقول: «إذا عرض فى المثانة قرحة أو جمد فيها دم، أو احتقن فيها فتح، وأردت أن تقطر فيها الماء والأدوية، يكون ذلك بآلة تسمى الزراقة» وهذه الآلة تشبه حقنة المثانة التى تستعمل الآن.

وفى الفصل الستين: يتكلم عن (إخراج الحصاة) فيفرق بين حصاة الكلية والمثانة، ويقول إن الشق يكون فقط على حصاة المثانة أو قناة مجرى البول.

ومن ذلك كله يتبين لنا كيف كان الزهراوى جراحًا عظيمًا نفخر به دائمًا كرائد من رواد الجراحة فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية. وكتابه «التصريف»، وبخاصة الجزء الثلاثون، يعد مفخرة الطب والجراحة فى الدولة الإسلامية ؛ لأنه يتضمن سائر النواحى الجراحية المعروفة فى عصره وقد عرضها بأسلوب علمى فريد، بالإضافة إلى ما تضمنه من صور وأشكال موضحة للجراحة والأدوات المستخدمة فيها. وفى كتابه هذا رفع من شأن الجراحة رفعة هائلة بما قدمه من معلومات مفيدة للعاملين فى هذا المجال. وكان من أبرز من فرقوا بين الجراحة وغيرها من فروع الطب وجعل الجراحة تؤسس على علم التشريح وبين أهمية معرفة وظائف الأعضاء. ولهذا نلاحظ أنه ليس من الغريب أن يصبح كتاب «التصريف» الكتاب الأساسى لجراحى الغرب حتى القرن السابع عشر. وظل المرجع الكبير لدارسى الطب فى بعض جامعات أوروبا مثل جامعة (ساليرنو) و (مونبلييه) فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، والحقيقة التى ينبغى ألا تغفل أن الجراحين الذين عرفوا فى إيطاليا فى عصر النهضة وما تلاه اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على كتاب «التصريف» للزهراوى.

كتاب الزهراوى بين أيدى أطباء أوروبا

فى كتاب تاريخ الأدب فى فرنسا جاء «إن فى تاريخ الجراحة فى القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر أمرًا يستدعى الاهتمام، وهو أن الأطباء الإيطاليين الذين غادروا وطنهم وجاءوا إلى فرنسا، جلبوا معهم مؤلفات الزهراوى الطبيب الأندلسى والذى يعد الزعيم الأكبر للعلوم الطبية».

وظهرت أهمية الزهراوى عند وصول الحكيم الإيطالى «روجره برم» من مدرسة (ساليرنو) ومعه كتب الزهراوى. ثم أعقبه كثيرون منهم (لافرانك) الذى وصل باريس سنة ١٢٩٠م، والذى وصف حال الجراحة مقارنًا مع جراحة الزهراوى فقال: «لقد كان جراحو فرنسا كلهم على وجه التقريب جهلاء لا تكاد تفهم لغتهم.. أغبياء لدرجة أنك لا تجد جراحًا يطبق أصول الصناعة». وأضاف: «إننا لا تعترينا الدهشة عندما نجد الأطباء بعد أن عرفوا الزهراوى يضعونه بصف واحد مع جالينوس».

وقد اعترف المؤرخون بهذا الرجل وبمؤلفاته وإنه كان عمدة نجاح هذا الفن، فقد ذكره شولياك أكثر من (مائتى) مره فى كتابه. وقال فبريس دى كابندانتى: «إنه المثل الأعلى للعلم». وقال فرند: «إنه محيى الجراحة».

وقد اقتبس منه ابن البيطار كثيرًا وأبلغ هذه الاقتباسات كيفية صنع الخبز المركب من أحسن أنواع القمح الذى يخمر ويكون خاليًا من الشوائب. ونقل عنه أيضًا فى كتابه «المفردات» كيفية استخراج الزيوت.

وأخذ (دى كلوديس) من أطباء القرن الرابع عشر الميلادى من كتاب الزهراوى ما يعد أساسًا لما كتبه فى الجراحة، وأشار إلى اسمه فيما اقتبسه عنه.

واستشهد الطبيب الإيطالى (فرارى) فى القرن الخامس عشر بكتاب الزهراوى الخاص بالأطعمة.

وفى القرن نفسه، نشر الطبيب الإيطالى (سندس دى أردويرس بيزارو) كتابًا خاصًا بالسموم وذكر فى صفحة منه اسم أبى القاسم، وأشار إلى أنه اقتبس منه الأجزاء (٢، ٣، ٥، ٧، ١٣، ١٥، ١٧، ١٨، ٢٤، ٢٥، ٢٨، ٣٠) مواد بحثه.

ولابن السموم كتابٌ فى الفلاحة الأندلسية قال فيه: «إنه ليس أحسن من طريقة الزهراوى فى استخراج ماء الورد».

لقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية (جيراردو دى كريمونا)، وله ترجمات أخرى إلى لهجة البروفانس وإلى العبرية. وهناك ترجمة لاتينية غير كاملة لجزء من كتاب تحت عنوان: «كتاب النظر والعمل»، ترجمها (س.كرم) سنة ١٥١٩.

وترجم سيمون الجنوى وإبراهيم اليهودى القسم الخاص بالصيدلة فى مدينة البندقية سنة ١٤٧١، تحت عنوان: «كتاب الخدمة».

ويوجد القسم الخاص بالجراحة بطبعة (كاى دى شولياك) سنة ١٤٩٧ فى فينيسيا.

وكذلك فى طبعة (بازل) اللاتينية تحت عنوان: «طرق أبى القاسم فى استعمال الآلات الجراحية» ومعها كثير من الصور. ومن هذه الطبعة توجد طبعات أحدث بعنوان: «جراحة أبى القاسم» لـ (جون جاننج) طبعت فى أكسفورد سنة ١٧٧٨.

وهناك ترجمة فرنسية حديثة لقسم من كتاب «التصريف» بعنوان: «جراحة أبى القاسم» (لوسين لاكلاوك) طبعت فى باريس سنة ١٨٦١.

وكان طلبة الطب آنذاك فى أمس الحاجة إلى كتاب الزهراوى، حتى إن الجراح الفرنسى الشهير (كاى دو شولياك) ارتأى أن يضيف الترجمة اللاتينية لكتاب الزهراوى إلى ما ألفه حول علم الجراحة. وحسبك كتاب ظل طوال خمسة قرون مقررًا ضمن برامج تدريس الجراحة بجامعة (ساليرنو) الإيطالية وجامعة (مونبلييه) بفرنسا بأوائل كليات الطب الأخرى فى أوروبا.

فقد أسدى الزهراوى الطبيب الجراح جليل الخدمات للإنسانية جمعاء خلال بحوثه وابتكاراته العديدة التى ساهمت فى إرساء أسس علم الجراحة المعاصرة.

هذا هو أبو القاسم الذى يعرفه عالم الغرب منذ مئات السنين. أما بنو جلدته، فالذين يعرفونه هم أقل من القليل!

الرحلة حول العالم

الرحلة التى برهنت على كروية الأرض

ماجلاًن

(١٥٢٠ م)

عصر الكشوف البحرية

من الرواد الذين شقوا طرق البحار للبرتغال، المغامر (ماجلان) الذى أراد أن يثبت كروية الأرض فأثبتها، ومهد لبلاده فى آن واحد سبيل التوسع وراء المحيطات ثم انتقل إلى خدمة إسبانيا، ومهد لها سبيل التوسع والسيطرة.

فهو أول من طاف حول الأرض، وخط سير الملاحة من الغرب إلى الشرق بطريق العالم الجديد الذى سبقه إليه (كولومبوس)، وقد مات قبل أن يعود إلى وطنه.

وحياة (ماجلان) صفحة من تاريخ كفاح الإنسان ضد الطبيعة، ومثل رائع للإرادة الصلبة، والشجاعة النادرة، والصبر على المكاره. ويجمل بقراء العربية أن يطالعوا قصة (ماجلان)، ويستمدوا منها الفوائد والدروس والعبر، فى هذا الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين الشعوب التى أدركها الوعى القومى بعد سبات طويل، والدول التى سيطرت عليها، واستعمرت أرضها خلال القرون الماضية، ومنها دولة البرتغال التى ينتمى إليها قاهر البحار (ماجلان)، ودولة إسبانيا التى تبنته.

كانت التوابل هى الهدف الأول للرحلات الشاقة الطويلة التى يقوم بها التجار الغربيون إلى الشرق، فمنذ ذاق الرومانيون فى أثناء غزواتهم طعم التوابل الشرقية المختلفة بين حارة ومخدرة، ولاذعة ومسكرة، أخذ استعمال هذه التوابل فى إعداد الطعام ينتشر بين أهل الغرب حتى صار ذلك عادة متمكنة يصعب إقلاعهم عنها.

وكان الأوروبيون فى القرون الوسطى يجهلون الليمون الحامض، وكان كبارهم وأغنياؤهم يرون أن لذة الطعام فى الإكثار منه، ثم تبين لهم فجأة أن نزرًا يسيرًا من البهار أو القرفة أو الزنجبيل... أو غيرها من التوابل يكفى لإكساب الطعام نكهة لذيذة

لا عهد لهم بها من قبل. فأصبحوا لا يقبلون على غذاء ما لم يمزجوه بالتوابل الشرقية، بل صاروا يخلطون شرابهم بها أيضًا!!

وكان ثمة هدف آخر لتلك الرحلات، وهو الحصول بجانب تلك التوابل اللازمة للطعام على أنواع العطور العربية الجديدة من المسك والعنبر وماء الورد وغيرها، مما تشتد إليه حاجة النساء فى ذلك العصر، بل شاركتهم الكنائس فى الحاجة إلى تلك المنتجات الشرقية، بحكم استهلاك كميات كبيرة من أنواع البخور التى تجلب من بلاد العرب بالطرق البحرية أو البرية الطويلة.

وكذلك كان الصيادلة الأوروبيون فى حاجة إلى (العقاقير الهندية) كالأفيون والكافور والصمغ، وقد علمتهم التجارب من زمن بعيد أن عملاءهم قد يشكون فى فائدة أى بلسم أو دواء، لا تكتب على زجاجته بالحروف الزرقاء عبارة (وارد من الهند) أو (وارد من بلاد العرب)؛ ذلك لأن كل ما هو شرقى فى ذلك الحين كان خليقًا أن يبهر عقول الأوروبيين ويعمل فى نفوسهم عمل السحر، إما لبعد الشقة بينهم وبينه، وإما لندرة ذلك الشىء الشرقى وغرابته عندهم، وقد يكون ذلك أيضًا لارتفاع ثمنه.

كانت (البرتغال) فى ذلك العصر حديثة عهد بالاستقلال، وقد ظفرت به بعد طول جهاد ونضال، ثم انطلقت تبحث عن منفذ لنشاطها.

ولم يكن فى وسع البرتغال، وهى بلاد صغيرة فقيرة، أن توسع حدودها البرية إذ كانت هذه الحدود مشتركة مع جارتها إسبانيا. فلم يبق إلا أن تتوسع من ناحية البحر، بالتجارة الأوروبية، وذلك لوقوعها على ساحل المحيط الأطلنطى، الذى ساد الاعتقاد حينذاك - طبقًا لنظرية بطلميوس - بأنه خضم من الماء لا نهاية له ولا سبيل لعبوره!! كما أن الطريق إلى الجنوب كانت تبدو مغلقة، طبقًا للنظرية نفسها، لتعذر طواف السفن على طول السواحل الأفريقية الخالية من السكان والتى تمتد حتى القطب الجنوبى دون أن يكون فيها أى منفذ لمرور السفن!

على أن أميرًا عبقريًا من أمراء البرتغال، سمت به همته إلى التفكير فى إخضاع المستحيل وجعله ممكنًا، فقد انتهى التفكير بذلك الأمير إلى الشك فى صحة نظرية بطلميوس، وزاد فى شكّه هذا أن أمواج المحيط الأطلنطى كانت تحمل أحيانًا من الغرب إلى سواحل البرتغال قطعًا غريبة من الخشب فرأى أنها لابد أن تكون آتية من بلاد مجهولة لم تستكشف بعد، ولاح له أن أفريقيا قد تكون آهلة بالسكان، وقد يمكن من

طريقها بلوغ المحيط الهندى، فبلوغ الهند والحصول على سلعها التى تدر الأرباح الطائلة !

وعلى أساس هذه الفكرة، وقف الأمير (هنريك)، ابن ملك البرتغال وابن أخت ملك إنجلترا، كل جهوده لاستكشاف ذلك الطريق الجديد إلى الهند عبر المحيط الأطلنطى.

وقد أطلق التاريخ على هذا الأمير لقب (الملاح)، مع أنه لم يركب البحر إلا مرة واحدة فى حملة عسكرية على مدينة سبتة، سنة ١٤١٢. ولكنه خصص ثروته كلها للملاحة والملاحين، وزهد فى أرفع المراتب التى تؤهله لها مكانته، مؤثرًا العزلة فى (رأس سكريز) حيث بقى خمسين سنة يعد العدة لتلك الرحلة الأولى من نوعها فى العالم كله!

ولا يدرى أحد على التحقيق كيف نبتت هذه الفكرة فى ذهن ذلك الأمير المغامر الجرىء، ولا كيف اعتقد عكس ما كان يدعيه علماء الجغرافيا فى ذلك العهد من أن أفريقيا ملتصقة بالقطب الجنوبى ولا يمكن الطواف حولها.

وقد كانت هناك رواية تاريخية رائجة فى عصره ؛ قرأها الناس فى مؤلفات هيرودوت وسترابون - مؤداها أن عمارة من السفن الفينيقية هبطت جنوبًا فى البحر الأحمر فى عهد الفراعنة، ثم عادت بعد سنتين بطريق أعمدة هرقل[١].

وقد يكون الأمير البرتغالى قد سمع من تاجر مغربى أن وراء البادية الليبية والصحارى الرملية تمتد (بلاد الغنى)، فإن بلاد (غينيا) قد ذكرت بهذا الاسم وبالتدقيق فى خريطة جغرافى عربى سنة ١١٥٠؛ إجابة لرغبة الملك (روجيه الثانى النورماندى). وعلى هذا؛ قد يكون الأمير هنريك أوسع اطلاعًا على جغرافية أفريقيا بفضل المعلومات التى جمعها من أولئك الجغرافيين الرسميين الذين يؤمنون بصحة نظريات بطلميوس؛ ويصفون مؤلفات (ماركو بولو) و (ابن بطوطة)، بأنها مجموعة أكاذيب!

ولم يبق من القصر الذى شيده (هنريك) [٢] فى (رأس سكريز) غير جدران متداعية. وإنه ليصعب معرفة الطريقة التى اتبعها الأمير فى إعداد خطط فتوحاته وأسفاره التى حققها غيره فيما بعد، من المعلومات القليلة التى وصلت إلينا، ويغلب على الظن أنه جمع طائفة من الكتب والخرائط من جميع أنحاء العالم. ودعا إليه جماعة من

العلماء والجغرافيين العرب وكان يسأل كل ربان وكل بحار عائد من سفره، ثم أفرغت تلك المعلومات كلها فى ملفات خاصة. وبعد أن نظم الأمير رحلات متوالية، انصرف إلى تحسين صناعة السفن. وفى بضع سنوات، شغلت مكان القوارب الصغيرة - التى كانت شائعة حينذاك - مراكب متينة حمولتها ثمانون طنًا أو مائة طن؛ أى فى وسعها اقتحام البحر فى اضطرابه. ولما كان هذا النوع الجديد من السفن يتطلب بحارة من نوع جديد كذلك، فقد أعد هنريك إخصائيين فى فن الملاحة. وهكذا دعم الأمير الناحية النظرية بالناحية العملية، فظهر جيل جديد من الملاحين والمستكشفين، دلت البوادر على أن مستقبلهم سيكون عظيمًا، وكما أن (فيليب المقدونى) قد ترك لابنه الإسكندر جيشه الذى لا يقهر ليفتح به العالم، فإن هنريك قد ترك للبرتغال أسطولاً حديثًا، هو خير الأساطيل فى ذلك العهد، يعمل عليه ملاحون مهرة متحفزون لقهر المحيط!

ولكن الأقدار تشاء دائمًا أن يموت السابقون وهم على أبواب أرض الميعاد قبل أن يروها، فإن هنريك لم يشاهد اكتشافًا واحدًا من تلك الاكتشافات التى اشتهر بها وطنه، ففى السنة التى مات فيها - أى فى سنة ١٤٦٠ - لم تكن قد ظهرت بعد نتيجة واحدة عملية فى ميدان الجغرافيا. ولم يكن اكتشاف جزر (آسور) و (ماديرا) غير تجديد اكتشاف سابق، فقد أشار (لورنتيو) سنة ١٣١٥ إلى وجود هذه الجزر، وإذا كانت القوارب المعروفة قد تقدمت على سواحل أفريقيا الغربية، فإنها لم تصل - فى نصف قرن - إلى خط الاستواء.

غير أن النتيجة الحاسمة قد تحققت فعلاً. فإن تقدم الملاحة البرتغالية لا يقدر بنسبة المسافات التى اجتازتها، بل الأثر الأدبى الذى أحدثه ذلك التقدم، واشتداد الميل إلى الأعمال العظيمة، والقضاء على خرافة خطرة. فقد تناقل رجال البحر خلال الأجيال السابقة، أن الملاحة مستحيلة بعد رأس (نون) الذى يبدأ عنده (بحر الظلمات الأخضر)[٣]، والويل للسفينة التى تجازف بمواصلة السير إلى تلك المجاهل المميتة، فهناك تشتد حرارة الشمس حتى تغلى المياه وتندلع النار بجوانب السفينة وأشرعتها. والمسيحى الذى يجرؤ على دخول (بلاد الشيطان) يمسخ فى الحال فيصبح زنجيًا!! وقد تدخل البابا فى الأمر فدعا الناس إلى العمل مع هنريك.

وياله من ظفر، يوم أقدم جيل (أيانس) سنة ١٤٣٤، على اجتياز (رأس نون) وكتب يقول: «إن العالم بطلميوس مخرف عجوز، إن الملاحة فى مياه غينيا سهلة، والبلاد

جميلة فائقة الثراء». وهكذا تم تجاوز (النقطة الميتة)، ولم تعد البرتغال فى حاجة إلى بذل الجهود للحصول على بحارة لها. فقد توافد عليها هواة المخاطرات والمغامرون من جميع البلدان، ووضعوا أنفسهم فى خدمتها، وكانت كل رحلة جديدة ناجحة تشجع الملاحين، فوجد جيل من الشبان الذين امتلئوا إقدامًا وحبًا فى المغامرة.

ولهذا، فإن موت هنريك لم يكن غير وقفة قصيرة قبيل الوثبة الكبرى، فما إن تبوأ الملك (جوان الثانى) العرش، حتى بدأ نهضة جديدة فاقت كل الآمال. فالعمل الذى كان يسير بطيئًا من قبل، أصبح الآن يخطو خطوات الجبابرة.

ففى سنة ١٤٧١، وصلت سفن البرتغال إلى خط الاستواء، وفى سنة ١٤٨٤ نزل (ديجوكام) عند مصب نهر الكونغو. وفى سنة ١٤٨٦، تحقق حلم هنريك فوصل البرتغالى (برثولوميو دياز) إلى طريق أفريقيا الجنوبى (رأس الرجاء الصالح)، الذى أطلق عليه اسم (رأس الزوابع).

وعلى الرغم من أن الزوابع مزقت أشرعته، فإن الفاتح المقدام قد واصل طريقه حتى بلغ الساحل الشرقى، حيث كان يأمل أن يرشده الربابنة المسلمون إلى طريق الهند ولكن رجاله ثاروا عليه، وصاحوا قائلين: «حسبنا ما قطعناه هذه المرة» فاضطر (دياز) أن يعود أدراجه دامى القلب تاركًا لأوروبى آخر شرف الطريق إلى الهند، وهذا ما فعله فيما بعد البرتغالى (فاسكو دى جاما).[٤]

وللمرة الأولى، وضحت معالم أفريقيا الجغرافية، وثبت أن بطلميوس غير صادق فإن هناك طريقًا بحريًا يوصل إلى الهند، وهكذا حقق تلاميذ هنريك الحلم الذى داعبه فى حياته، بعد موته بست وعشرين سنة.

وتطلع العالم بعين الدهشة والحسد إلى ذلك الشعب الصغير، القابع فى طرف أوروبا الذى أصبح بين يوم وليلة أول دولة بحرية فى العالم، وكسب نشاطه أقاليم جديدة، بل قارات كاملة. ولن تمر عشرة أعوام، حتى تكون أصغر دولة فى أوروبا قد بسطت سلطانها على مساحات أوسع مما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية فى أوج سلطانها!!

وبات الجميع يرقبون آخر الأنباء الصادرة عن لشبونة، عاصمة البرتغال. وأدركت أوروبا أن الاكتشافات الجديدة ستغير معالم الكون أكثر مما فعلت الحروب والمدافع، وأن عهود العصور الوسطى قد ولت. وبدأ عهد جديد سيفكر وينشئ فى نطاق أوسع!!

ولكن حادثًا مقلقًا طرأ فجأة، فوقف ذلك الزحف الظافر. فإن طريق (الدنيا الجديدة) قد أصبحت مفتوحة من الشرق، وخيل للملك جوان أن عرش الهند وكنوزه قد غدت ملكًا له، ومنذ اليوم الذى تجاوز فيه البرتغاليون رأس الرجاء الصالح لم يعد فى وسع أحد أن يسبقهم أو يلحق بهم فى الطريق الذى سلكوه، فالأمير هنريك قد احتاط للأمر، وحصل من البابا على مرسوم بتمليكه جميع القارات والبحار والجزر التى يكتشفها البرتغاليون فيما وراء (رأس بوجادور)، وأقر هذا المرسوم ثلاثة بابوات أُخَر ووافقوا على تلك الهبة العجيبة، التى جعلت بيت الملك البرتغالى إلى صاحب الشرق المجهول وملايين السكان الذين فيه(٥).

وذلك هو الضمان الذى كان الملك جوان يحمله. ولهذا، فإنه أحجم عن المغامرات الجديدة وأعرض عن ذلك الرجل المجهول الذى جاء من جنوا يطلب عمارة من السفن للبحث عن طريق الهند من الغرب! نعم، لقد استقبل الملك ذلك الرجل ـ خريستو فورو كولومبو ـ ولم يرفض طَلَبه بجفاء، ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد فالناس كانوا يذكرون أن جميع المحاولات التى بُذلت للوصول إلى جزر أنتيل وإلى البرازيل ـ التى لابد أن تكون واقعة فى مكان ما إلى الغرب، بين أوروبا والهند ـ قد أسفرت عن فشل ذريع، ثم ما الداعى إلى المغامرة بالأموال البرتغالية فى البحث عن طريق الهند من الغرب، مادامت الطريق من الشرق قد فتحت، ومادامت مصانع السفن فى نهر تيجو تجهز العمارة التى ستبحر قريبًا إلى الهند مباشرة بطريق رأس الرجاء الصالح.

ولهذا، فإن الخبر الذى أذيع فجأة، بأن كولومبو قد اجتاز بحر الظلمات لحساب إسبانيا، وبلغ اليابسة من الغرب بعد رحلة لم تدم أكثر من ثلاثة أسابيع ـ كان له فى قصر الملك جوان وقع الصاعقة.

إذن، لقد جاء اليوم الذى مزق فيه الستار عن سر المحيط! نعم، إن كولومبو لم يدرك أنه اكتشف دنيا جديدة. وقد ظل هذا الرجل الغريب العنيد حتى آخر ساعة من حياته، يؤكد أنه نزل فى أرض آسيا، وأنه إذا واصل السير فإنه سيبلغ نهر الكنج بالهند! ذلك ما بعث الرعب فى نفوس البرتغاليين. فأية فائدة بعد الآن لمرسوم البابا الذى منح البرتغال جميع البلدان الواقعة فى طريق الهند من الشرق، إذا كانت إسبانيا قد سبقتها من الغرب، وانتزعت منها الهند؟ إذن، لابد من الالتجاء إلى السلاح للاحتفاظ بحقوق البرتغال فى الهند، ومنع تدخل الجارة المزاحمة فى الأمر!!

لكن البابا حال بين الفريقين والحرب. ولما كانت الدولتان - إسبانيا والبرتغال - أحب الدول إلى قلبه لأنهما أكثر الدول طاعة له، فقد قسم بينهما مناصفة جميع بلدان العالم المجهولة!

لقد شطر البابا الكرة الأرضية شطرين متساويين بالمرسوم الصادر فى ٤ من مايو ١٤٩٣، فجميع البلدان الواقعة فى غربى الجزر الخضراء تخص إسبانيا، وجميع البلدان الواقعة فى شرقيها تخص البرتغال، ورضيت الدولتان بهذا التقسيم بادئ الأمر، ولكن البرتغال عادت فطلبت تعديله، بحيث يميل خط التقسيم إلى الغرب، ووافق البابا على هذا، وكانت النتيجة أن أصبحت بلاد البرازيل عندما اكتشفت من نصيب البرتغال!

ومهما يكن هذا الحال سخيفًا، لأنه يقسم العالم كله بين دولتين فقط، إلا أنه حال دون نشوب حرب بين إسبانيا والبرتغال بضعة قرون!

ولكن، أين الجزر التى تنتج التوابل، والتى يتوق المكتشفون إلى العثور عليها؟ أهى واقعة فى غرب خط التقسيم أم فى شرقيه؟! أهى من نصيب إسبانيا! هذا ما يجهله الجميع: البابا، والملوك، والعلماء. وفى انتظار نتيجة البحث، انصرفت إسبانيا إلى ابتلاع أمريكا، والبرتغال إلى ابتلاع أفريقيا والهند!

أثار نجاح كولومبو دهشة لا حد لها فى أوروبا، واستولى على الناس ميل جنونى إلى المغامرة، فإن نجاح شخص واحد يثير دائمًا بشجاعة معاصريه، فجميع الناس يريدون الآن الذهاب إلى العالم الجديد، وأخذ الحكام والتجار يجهزون السفن. وقد كان هنريك من قبل يلجأ إلى البابا لحث البحارة على العمل فى سفنه، أما الآن فإن سكان القرى يزحفون جميعًا على الموانى، والرحلات البحرية تتتابع بلا انقطاع وفى خلال عشرين أو ثلاثين سنة ستكتشف السفن الصغيرة التى أقلعت من قادش، وبالوس ولشبونة ما لم تكتشفه البشرية فى العصور الخوالى.

وما أعجب تقويم تلك الحقبة من الزمن، ففى سنة ١٤٩٨ بلغ (فاسكو دى جاما) أرض الهند ونزل فى (كاليكوت)[٦] باسم ماك البرتغال، وفى السنة ذاتها وصل كابو القائم بخدمة ملك إنجلترا إلى جزيرة الأرض الجديدة، وبلغ الساحل الأمريكى. وفى السنة التالية، اكتشف (بنزون) لحساب إسبانيا، و (كبرال) لحساب أرض البرازيل، واكتشف (كورترال) أرض (لا برادور) من جديد.

وفى السنوات الأولى من القرن التالى تتابعت الفتوحات، إذ هبطت حملتان برتغاليتان بمحاذاة ساحل أمريكا الجنوبية حتى (ريو دى لابلاتا). واكتشف البرتغاليون جزيرة ساحل مدغشقر فى سنة ١٥٠٦، وجزيرة موريس فى سنة ١٥٠٧، وفى سنة ١٥٠٩ بلغوا مالقة واستولوا عليها فى سنة ١٥١١. وبذلك قبضوا على مفتاح جزر الهند الشرقية. وفى سنة ١٥١٢، دخل (يونس دى ليون) شبه جزيرة (فلوريدا). وفى سنة ١٥١٥، كان (ثونيننز دى بلباو) أول أوروبى أطل على المحيط الهادئ من أعالى (داريان). ومنذ ذلك الحين عرفت البشرية جميع البحار.

وفى سنة ١٤١٨، فى عهد هنريك، أثار بلوغ القوارب جزيرة (ماديرا) دهشة عظيمة. وأما فى سنة ١٥١٨، أى بعد مائة سنة فإن السفن البرتغالية تلقى مراسيها فى (كنتون) واليابان. ويغدو السفر إلى الهند أقل خطرًا مما كان عليه السفر إلى (رأس بوجادور)، فقد أخذ وجه العالم يتغير سنة بعد سنة، وشهرًا بعد آخر. فما يكاد علماء الجغرافيا والرسامون ينتهون من خريطة جديدة، حتى يطرأ ما يدعو إلى تصحيحها، بسبب اكتشاف جديد. وفى خمسين سنة، وضعت القواعد الأساسية لجغرافية العالم وشكل الأرض، لأن البشرية اكتشفت أخيرًا الكرة التى عاشت عليها منذ الأزل! وقد كان هذا العمل الهائل من صنع جيل واحد من الناس، فإن بحارة ذلك الجيل قد تغلبوا على جميع الصعاب حتى شقوا الطريق لمن جاءوا بعدهم، وفتح مغامروه القارات والبحار. وحل أبطاله كل العقد أو جُلَّها. ولم يبق غير عمل واحد لم يتم، وهو الطواف حول العالم فى سفينة واحدة، وإثبات كروية الأرض. وهذا كان هدف ماجلان!!

كانت رحلة ماجلان حول العالم - ولا تزال - أسطورة بالغة الروعة لشجاعة الإنسان وضعفه، إلهام القائد وسقطاته، وتعاون الجماعة وتنابذها. وهى قصة لكفاح هذه الجماعة فى رحلة طويلة تمر بمراحل متنوعة من الأمل واليأس، وهى قبل كل شىء رواية لانتصار إنسانى غير مسبوق. ويرجع الفضل فى حفظ هذه الرواية بتفاصيلها الحية وأحداثها اليومية إلى كتابة شاهد عيان هو (أنطونيو بيجافيتا)، هذا الشاب الإيطالى الذى رافق ماجلان وكتب أحداث الرحلة بدقة كبيرة، والذى يدين له ماجلان بالفضل على هذا السجل الرائع للرحلة، الذى أذاع صيته وخلد عمله، إذ ما جدوى العمل الخالد إذا لم يتناقله الرواة؟!

وما نسميه نحن (التاريخ) ليس الحوادث التى تتابعت فى الزمان والمكان؛ بل هو ما ذكر فقط من مؤلفات العلماء والشعراء. ولو لم يوجد المؤرخ الذى يروى، والفنان الذى يخلد الذكرى، لطوى الظلام مشاهير الأبطال، ولاندثرت أعظم الأعمال روعة. ومن ناحية أخرى يدين (بيجافيتا) لماجلان ورحلته، فإن هذا الإنسان المغمور قد أصبح بهذه الرواية مصدرًا تعود إليه الأجيال المتعاقبة كلما تحدثت عن الرحلة الخالدة. ويكفيه فخرًا أن شكسبير قد استعان فيما بعد بالصفحات التى كتبها فى وصف ثورة البحر واضطرابه، فأدخلها الشاعر الكبير كمشهد فى مسرحيته المعروفة العاصفة.

فرديناند ماجلان

ولد ماجلان عام ١٤٨٠ من أسرة من طبقة النبلاء فى البرتغال؛ ونشأ فى عصر كان يموج بأنباء الفتوحات البحرية العظيمة؛ ويثير فى نفوس الشباب الرغبة إلى الأسفار البعيدة.

وكان لهذا أثره على (ماجلان)، فقرر أن يشارك فى هذه المغامرات فى أول فرصة تسنح له. وعندما بلغ الرابعة والعشرين، كانت البرتغال تجهز حملة عظيمة مكونة من عشرين سفينة ضخمة وألف وخمسمائه رجل بقيادة الأميرال (الميدة). وكانت المهمة الموكلة لهذا الأسطول هى السيطرة على جميع مراكز التجارة فى الطريق إلى الهند، والتحكم فى المضايق البحرية من جبل طارق إلى سنغافورة واحتكار التجارة البحرية فى المحيط الهندى لصالح البرتغال وحدها. غادر ماجلان البرتغال مع هذه الحملة فى مارس ١٥٠٥ وجرح فى إحدى المعارك بالهند بعد عام واحد فنقل إلى أفريقيا، ومنها عاد إلى البرتغال فى عام ١٥٠٧.

وجاءت المهمة الثانية لماجلان فى مالقة، هذه المدينة الزهراء الواقعة على المضيق المؤدى إلى جزر التوابل والتى كانت معبرًا للتجارة بين الصين والهند وملتقى السفن من بلاد الشرق الأقصى. وكانت البرتغال قد استقرت فى الهند ولكنها كانت تطمع فى جزر التوابل فى الشرق، فأرسلت عام ١٥٠٩ عمارة من أربع سفن تحت ستار الرغبة فى التجارة كى تتجسس على هذه المدينة. ولكن حاكم المدينة - وقد راعته قوة السفن وتسليحها - دبر مكيدة خسر فيها البرتغاليون ثلث رجالهم. وأبلى (ماجلان) الذى كان بين رجال هذه السفن، بلاء حسنًا لفت أنظار قادته فعين ضابطًا فى الأسطول الذى

عهد إليه بالثأر لهذه الهزيمة. وفى عام ١٥١١، عاد (ماجلان) مرة ثانية إلى مالقة وشارك فى المعركة التى انتهت بالاستيلاء عليها.

وفى العام التالى عاد (ماجلان) إلى البرتغال ليجد لشبونة وقد تغيرت تمامًا خلال السنوات التى قضاها فى الهند بفضل الثروة التى هبطت عليها من مستعمراتها الجديدة. أما هو فلم يخرج من غبار الكفاح إلا بآثار جراحه وعبد اشتراه فى مالقة. ولكن خيرًا من هذا كله أنه كسب صديقًا من زملاء السلاح هو (فرنتشسكو سراو) الذى استوطن جزر التوابل تاركًا نفسه لحياة الدعة فى هذا الفردوس الأرضى. فقد استمر الصديقان يتبادلان الكتابة، وأغلب الظن أن تعلق (ماجلان) بجزر التوابل، وربما فكرة البحث عنهما بالإبحار غربيًا قد نمت وترعرعت فى نفس ماجلان كنتيجة لهذه الرسائل.

وفى عام ١٥١٣، اشترك ماجلان فى حملة تاديبية على المغرب، وأصيب بجرح جعل قدمه اليسرى شبه مشلولة. ولكنه رفض اعتزال الخدمة، فعهد إليه بحراسة قطعان الماشية التى نهبها البرتغاليون، وحدث أن هربت بعض هذه المواشى وثارت حول أمانته الشائعات ولكن أحدًا لم يجرؤ على اتهامه علنًا. فغضب لكرامته وعاد إلى البرتغال دون إذن من رئاسته لمقابلة الملك ليلتمس تعيينه فى وظيفة تليق بخبرته؛ ولكن الملك يرفض المقابلة ويطلب منه العودة إلى مقر عمله، فيمتثل للأمر ثم يعتزل الخدمة ومعه شهادة تثبت براءته وحسن بلائه. عاد ماجلان يطلب مقابلة الملك؛ لينفى عن نفسه التهمة التى لصقت به ويطلب رفع مرتبه بسبب جراحه التى تركته عاجزًا عن مواصلة الخدمة. ولكن الملك يرفض ببرود مما يدفع ماجلان إلى التماس الإذن بالعمل فى خدمة أية دولة أجنبية قد يجد لديها متسعًا لطموحه؛ فيوافق الملك على الفور دون مبالاة.

أمضى ماجلان هذ الفترة من حياته فى دراسة جادة للمشروع الذى يختمر فى ذهنه، فهو يقابل البحارة العائدين من الأصقاع البعيدة ويتردد على المكتبات لمطالعة الكتب والتقارير عن الرحلات المعاصرة وفحص الخرائط الملاحية الجديدة. والتقى أثناء هذا النشاط بفلكىٍ حاذق هو (روى فاليرو) وتوثقت علاقته به. فقد كان فاليرو خبيرًا فى رسم الخرائط وله معرفة عريضة بجغرافية البحار، وإن كانت تنقصه الخبرة العملية بالملاحة. وجد الصديقان أن كلاً منهما يكمل الآخر من حيث الخبرة

والتخصص، كما يجمع بينهما نقمتهما المشتركة على الملك: فقد حرم فاليرو أيضًا من وظيفة فلكى البلاط، وهى وظيفة كان أحق بها من غيره. ولكن هذه الصداقة من ناحية أخرى كانت تعتمد على أساس ضعيف بسبب التناقض العجيب بين شخصيتهما، فماجلان يمتاز بهدوء مثير يشوبه كثير من الغموض، أما فاليرو فإنه سريع الانفعال عصبى المزاج متكبر ومشاكس. وتحت هذه الظروف اجتمع الصديقان ونما خلال نقاشهما مشروع الوصول إلى جزر التوابل بالدوران حول الكرة الأرضية فى اتجاه الغرب.

ولم يكن لدى ماجلان وفاليرو أى أمل فى تنفيذ مشروعهما بمعرفة البلاط أو الأثرياء البرتغاليين وكلاهما مغضوب عليه من الملك. ومن ناحية أخرى، فإن خطتهما تعتمد على الإبحار إلى الغرب من خط التقسيم أى فى المنطقة الإسبانية، بل إن فاليرو بخبرته الجغرافية أكد أن جزر (مولوكا) المنتجة للتوابل تقع فعلاً فى نطاق القسم المخصص لإسبانيا. لهذا كان طبيعيًا أن يتجه الصديقان إلى إسبانيا، وفى عام ١٥١٧ عبر ماجلان الحدود مع عبده (هنريك) إلى إسبانيا وهناك قابل (ديوجو باربوزا)، وهو برتغالى لجأ إلى إسبانيا منذ مدة طويلة وترقى حتى بلغ منصب مدير مستودع الأسلحة، وكان له ولع خاص بالأسفار البحرية، وسرعان ما توثقت بينهما عرى الصداقة حتى تزوج ماجلان ابنته. استطاع باربوزا أن يقدم ماجلان إلى (بيت الهند)، وهو المؤسسة المخصصة لتمويل مثل هذه المشروعات ولكن مديرى المؤسسة رفضوا تمويل مشروعه. وعاد الأمل يراود ماجلان مرة أخرى عندما تقدم أحد هؤلاء المديرين يعرض على ماجلان الاشتراك فى تمويل المشروع والتوصية به لدى البلاط. أرسل ماجلان يدعو فاليرو للحاق به ووقف الاثنان يشرحان مشروعهما أمام مجلس البلاط الذى اتضح له أن المشروع ليس ضربًا من الخيال، بل يعتمد على فكرة معقولة تقول إن الطريق إلى جزر التوابل من الغرب أقصر إليها من الشرق، وإن هناك ممرًا مائيًا بين المحيط الأطلنطى والمحيط الهادئ.

لسنا نعرف الآن على وجه التحقيق ما إذا كان ماجلان يعلم يقينًا بوجود هذا الممر. فقد كانت الفكرة الشائعة أن أمريكا الجنوبية تمتد حتى القطب الجنوبى وتفصل تمامًا بين المحيطين. أسبق أحد ماجلان إلى رؤية هذا الممر المائى؟ أم أنه أخذ مصب نهر (لابلاتا) الذى يقع على الخرائط إلى الشمال من مضيق ماجلان على أنه الممر المنشود؟

ومما يذكر أن بعض البحارة كانوا قد وصلوا إلى مصب هذا النهر الضخم وتوغلوا فيه ظنًا منهم أنه مضيق بحرى؛ ولكنهم ارتدوا على أعقابهم أمام عنف التيار.. وإذا كان هذا الفرض صحيحًا، فإن ماجلان يكون قد أسس مشروعه على فكرة خاطئة والأقرب إلى التصديق هو أن أحدًا لم يسبق ماجلان إلى هذا المضيق الذى يعرف باسمه، ولكنه كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بوجوده، ولولا هذا ما وافق البلاط الإسبانى على تسليمه قيادة هذه البعثة. ففى ٢٢ من مارس ١٥١٨، وقع شارل الخامس ملك إسبانيا على عقد يعطى ماجلان وفاليرو الحق فى خمس سفن مجهزة، ومؤونة لمدة عامين، ونصيب وافر من الأرباح، وتعطينا التعليمات الصادرة لماجلان مدى الاحترام لخط التقسيم بين إسبانيا والبرتغال، وتقول التعليمات: عليك أولاً أن تذهب مصحوبًا بالحظ السعيد لتكشف هذا الجزء من المحيط الذى يقع فى حدودنا وداخل نطاقنا.. وعليك أيضًا أن تكتشف فى هذه الأجزاء ما لم يكتشف بعد، بحيث لا تكتشف أو تفعل أى شىء فى حدود نطاق صاحب الجلالة ملك البرتغال أو لصالحه ولكن فى حدود نطاقنا فقط.

شغل ماجلان خلال الأشهر التالية بالإعداد لهذه الرحلة الطويلة. وكان عليه أن يعد العدة لكل الاحتمالات والأجواء، فليس هناك من يعرف كم تطول هذه الرحلة وأى ظروف سوف تقابلها. ولم يترك ماجلان شيئًا لمساعديه، بل أشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة فى إعداد سفنه وتموينها، وأمضى ماجلان أيامًا طوالاً من العمل المرهق وأوقاتًا صعبة فى مكافحة دسائس الحاسدين والناقمين عليه والتغلب على الصعوبات الإدارية والمالية التى كان يقيمها أمامه موظفو (بيت الهند). ولكن المتاعب الخطيرة كانت تلاحقه من وطنه الأصلى البرتغال، فقد ساء ملكها أن يلقى هذا الرجل المتمرد مثل هذا النجاح فى البلاط الإسبانى، بالإضافة إلى خشيته نجاح المشروع بالاستيلاء على جزر التوابل، وكانت البرتغال تكسب ثروات طائلة من تجارة التوابل رغم أنها تحتل جزر التوابل، بل عرفت الطريق البحرى إليها فقط. وقد حاول رسل الملك منع ماجلان من القيام بمشروعه بالوعد تارة ثم بالوعيد تارة أخرى ثم بالضغط على ملك إسبانيا لتأجيل المشروع. ولما فشلت كل هذه المحاولات لجأ العملاء إلى المؤامرات والفتن يحيكونها له بين رجاله ومعاونيه من الإسبان. وخرج ماجلان من هذ المأزق منتصرًا، بل زادته هذه المتاعب ثقه بنفسه، ورفعت من أسهمه أمام البلاط الإسبانى.

وفجأة قرر شريكه فاليرو الانسحاب من المشروع بعد أن أعطى ماجلان خرائطه ووثائقه. فقد أكد له بعض المنجمين أنه لن يعود حيًا من هذه الرحلة. وكانت هذه ضربة

جديدة من الحظ لماجلان الذى عانى كثيرًا من طباع شريكه، مثل سرعة غضبه وميله للمشاكسة. وإذا كانت هذه الصفات شيئًا محتملاً على البر، فإنها تصبح أمرًا خطيرًا فى البحر أثناء رحلة طويلة غير مأمونة العواقب.

ترك لنا (بيجافيتا) فى كتابه وصفًا تفصيليًا لأسطول ماجلان. كانت السفن الخمس التى وضعت تحت قيادة ماجلان، هى: سانتو أنطونيو، ترينيداد، كونسبسيون، فيكتوريا وسانتياجو، وكانت حمولاتها بالترتيب ١٢٠، ١١٠، ٩٠، ٨٥، ٧٥ طنًا، وهى - بمقاييسنا الحالية - سفن ضئيلة بالنسبة للمهمة الشاقة التى تنتظرها. اختار ماجلان السفينة الثانية (ترينيداد) كسفينة للقيادة يرفع عليها رايته. وحملت السفن عددًا من الخرائط وأدوات الملاحة وكتاب فاليرو القيم عن خطوط العرض. وزودت مخازنها بكميات هائلة من الأطعمة والأدوية والأسلحة والبضائع التى تصلح للتبادل مع الأهالى. أما قائمة الرجال، فكانت تضم ٢٦٨ رجلاً من الأوروبيين والأفريقيين والآسيويين، وبالإضافة إلى ماجلان كان يوجد ٣٦ من البرتغاليين كان بينهم كل ضباط الملاحة على السفن.

وفى وسط هذا الخليط العجيب من الرجال كان يوجد شاب إيطالى انضم إلى الحملة فى اللحظة الأخيرة وكان يبدو أقل الرجال فائدة فإذا به أكثرهم أهمية وشهرة، فقد أصبح أنطونيو بيجافيتا - دون ترتيب أو إعداد - راوى الرحلة ومؤرخها.

كتاب أنطونيو بيجافيتا

لم يكن فى حسبان بيجافيتا عندما غادر بلدته فينسيا إلى إسبانيا أنه سوف يبدأ رحلة طويلة تطوف به حول الأرض. فقد جاء هذا النبيل الإيطالى إلى برشلونة فى صحبة مندوب البابا لدى البلاط الإسبانى وعندما سمع عن هذه الرحلة العجيبة التى سيقوم بها ماجلان، تقدم إلى الملك يطلب الاشتراك فى هذه الرحلة فأوصى به ماجلان.

ويبدو أن بيجافيتا كان شديد التعلق بالمشاهدات التى ترد فى كتب الرحلات، ولديه رغبة جارفة إلى السفر والتنقل فى البلاد التى اكتشفت حديثًا، ويرجح أنه قرأ بعض كتب الرحلات المعاصرة مثل كتاب مواطنه (أمريكو فيسبوتشى) الصادر عام ١٥٠٧ والذى أتى فيه على وصف رحلاته إلى أمريكا التى أطلق اسمه عليها، ويتضح من كتابات بيجافيتا أن الباعث الأساسى له على الاشتراك فى هذه الرحلة هو الرغبة فى

مشاهدة عجائب الدنيا. وهو ينفرد بهذا عن باقى هذه المجموعة من المغامرين الطامعين فى الثروة والربح.

سوف نعرض، فيما يلى، لوصف الرحلة كما كتبها بيجافيتا ونورد بعض مقتطفات من كتاباته، وسوف نرى فى أسلوبه نوعًا من السذاجة وطيبة القلب، فهو يصدق البحارة ويسجل كل ما يسمعه منهم من مبالغات وأكاذيب بعد أن عرفوا أنه حديث العهد بالحياة فى البحر، وهو - أحيانًا - يبدو كأنه بعيد عن مجرى الحوادث وسير الأمور بين رجال القيادة، فهو لم يفطن تمامًا للخلاف بين ماجلان وربابنة السفن والإسبان. ولكنه فى الوقت نفسه يقوم بدور المخبر الصحفى الصغير الذى يسجل بدقة كل مشاهداته ويهتم بالتفاصيل الكثيرة، فلا يترك شيئًا دون أن يدونه. وهو يعطينا سجلاً رائعًا وطريفًا لهذه الرحلة، يبلغ ـ أحيانًا ـ حدًا كبيرًا من الحيوية، ويصل فى بعض الأماكن من الكتاب إلى الحد الذى يعتبر معه مرجعًا علميًا خليقًا بالثقة. وقد بلغ من دقته أنه دون فى مذكراته الكلمات التى سمعها من سكان (بتاجونيا) فى جنوب أمريكا الجنوبية. وكان يتحدث إلى الأهالى بالإشارة «يقول العلماء، إن بيجافيتا له الفضل فى وضع أسس أول قاموس للغات الأمريكية».

بقلم انطونيو بيجافيتا

١- عن التحاقه بالبعثة

فى عام ١٥١٩، كنت فى أسبانيا فى بلاط شارل الخامس. وكنت أعرف من الكتب التى قرأتها ومن التحدث إلى الرجال ذوى الخبرة، أنه يمكن رؤية أشياء مدهشة بالسفر فى المحيط. وقد صممت أن أرى الأشياء بعينى رأسى. وسريعًا ما حانت الفرصة لى. فقد علمت أن أسطولاً من خمس سفن كان تحت الإعداد فى أشبيلية، بقصد الكشف عن جزر (مولوكا)، التى نحصل منها على توابلنا، وأن فرديناند ماجلان، هو سيد برتغالى، عبر المحيط أكثر من مرة، صاحب سمعة طيبة، قد عين قائدًا عامًا للبعثة. فاتجهت لذلك إلى برشلونة لألتمس إذن صاحب الجلالة كى أكون عضوًا فى هذه البعثة، وقد منحت هذا الإذن وعندئذ ذهبت بالبحر حتى (مالاجا) ومن هذه المدينة إلى أشبيلية برًا، حيث انتظرت ثلاثة أشهر قبل أن تكون البعثة مستعدة للرحيل.

٢- من أشبيلية إلى لابلاتا

قرر القائد العام فرديناند ماجلان أن يقوم برحلة فى المحيط، حيث تهب الرياح بشدة، وتسود العواصف. كما صمم على أن يأخذ مسارًا لم يستكشفه أى ملاح من قبل، ولكنه حرص على ألا يكشف هذه المحاولة الجريئة حتى لا يحاول أحد إحباط خطته بالمبالغة فى الأخطار التى تتهدده، فيضعف من شجاعة بحارته. ويضاف إلى أخطار هذه الرحلة الظروف غير الملائمة للسفن الأربع الأخرى، إذ إنها تحت إمرة قباطنة يكرهونه لأنه برتغالى بينما هم من الإسبان.

وفى يوم الاثنين العاشر من أغسطس ١٥١٩، تحركت الحملة هابطة النهر من أشبيلية فى قوة من ٢٣٧ رجلاً، وهى مجهزة بكل شىء ضرورى.

وفى العشرين من سبتمبر غادرنا (سان لوكار)، وفى اليوم السادس والعشرين بلغنا واحدة من جزر (كانارى) التى تسمى (تاناريف)، وتوقفنا بها ثلاثة أيام حيث استطعنا أن نتزود بالأخشاب والمياه.

وفى يوم الاثنين الثالث من أكتوبر أبحرنا فى اتجاه الجنوب، ومررنا بين الرأس الخضراء وجزرها، وبعد أن تحركنا على طول ساحل غينيا لبضعة أيام بلغنا خط عرض ٨ شمالاً حيث يوجد جبل يسمى (سيراليون)، وقد قابلتنا هنا رياح مضادة أو رياح هادئة مع أمطار مستمرة حتى خط الاستواء. «وهذه هى الصفات الغالبة على الجو فى منطقة الركود التى توجد قرب خط الاستواء عادة».

وبعد أن عبرنا خط الاستواء لم نستطع رؤية النجم القطبى؛ ومن ثم اتجهنا إلى الجنوب ـ جنوب غربى قاصدين البرازيل فى خط عرض ٣٠ ´/ ٢٣° جنوبًا، وهنا حملنا السفن بكمية من الطيور والبطاطس، ونوع من الفاكهة يشبه مخروط الصنوبر؛ ولكنها شديدة الحلاوة ولها نكهة ممتازة (يقصد الأناناس)؛ وقصب السكر وأشياء أخرى. وكنا قد دخلنا مرفأ (ريو دى جانيرو) هذا فى الثالث عشر من ديسمبر. وكانت الشمس عمودية عند الظهر؛ وقد عانينا هنا من الحرارة أكثر من وقت مرورنا بالخط (أى خط الاستواء، ومن المعروف أن الشمس تصل أثناء الشتاء إلى أقصى نقطة لها جنوبًا على مدار الجدى عند $\frac{1}{2}$ ٢٣° جنوبًا) ويبنى البرازيليون بيوتًا طويلة ويطلقون عليها اسم (بوى)، ويناموت على شباك من القطن يسمونها (هاماك) يثبتونها من طرفيها بين

عمودين قويين. وقد يحتوى المنزل الواحد أحيانًا مائة رجل مع زوجاتهم وأطفالهم؛ ولهذا يوجد دائمًا صخب شديد فيها. أما قواربهم، التى يسمونها (كانو)، فإنها تصنع من جذع شجرة، مفرغ بواسطة حجر مدبب - لأن الحجر هو البديل عندهم للحديد؛ الذى لايوجد لديهم، وهذه الأشجار طويلة جدًا، حتى إن القارب الواحد يستطيع أن يحمل ثلاثين أو حتى أربعين شخصًا وهم يجدفون بمجاديف تشبه (مطارح) الخباز .

٣- من (لا بلاتا) إلى مضيق (ماجلان)

مكثنا ثلاثين يومًا فى هذا الميناء؛، وبعدها استأنفنا خط سيرنا، فتحركنا على طول ساحل هذه البلاد حتى خط عرض ٣٤° جنوبًا، حيث وجدنا نهرًا كبيرًا من المياه العذبة (نهر لابلاتا).

وكان يظن أنه ليس نهرًا لكن قناة، تصل إلى البحر الجنوبى (المحيط الهادئ) ولكن وجد أخيرًا أنه نهر حقيقى، يبلغ عند المصب سبعة عشر فرسخًا (ريو دى لا بلاتا هو أكثر أنهار العالم اتساعًا عند المصب، حيث يبلغ عرضه ٢٣٠ كيلو مترًا، وهو فى الواقع مصب لنهرين، هما: (أورجواى) و (باراتا)). وهنا لقى (جوان دى سوليس) مع ستين من بحارته حتفهم بواسطة أكله لحوم البشر بينما كانوا فى رحلة استكشافية مثلنا، وكانوا وضعوا فيهم ثقة كبيرة جدًا.

وفى أثناء سيرنا على طول هذا الساحل نحو القطب الجنوبى توقفنا عند جزيرتين وجدناهما آهلتين بطيور البنجوين وسباع البحر فقط. وكان البنجوين كثيرًا جدًا وأليفًا جدًا، حتى إننا أمسكنا كمية كافية للسفن لخمس خلال ساعة واحدة. وهى طيور سوداء ويبدو أنها جميعًا مغطاة تمامًا بريش صغير، وأنها بدون أجنحة تستطيع الطيران بها. وهى تعيش على الأسماك وحدها.

أما سبع البحر فهو فى حجم العجل، وله رأس يشبه كثيرًا رأس هذا الحيوان. وهو بلا أرجل، ومخالبه التى تلتصق بالجسم تشبه إلى حد ما أيدينا. وهذه الحيوانات تسبح بسرعة كبيرة وتعيش على الأسماك.

غادرنا هذه الجزر لمواصلة خط سيرنا؛ فبلغنا خط عرض ٤٩° جنوبًا، حيث اكتشفنا مرفأ ممتازًا؛ ولما كان الشتاء يقترب «قضت البعثة الفترة من أبريل الى أغسطس ١٥٢٠ وهى فترة الشتاء الجنوبى فى خليج (سان جوليان)»؛ فقد فضلنا أن نجد هنا ملجأ من

الجو الرديء. وقضينا خمسة شهور فى هذا المرفأ الذى أعطيناه اسم (سان جوليان). وما كدنا نرسو حتى تآمر الربابنة الأربعة فى السفن الأخرى على اغتيال القائد العام. ولكن المؤامرة كشفت وأعدم اثنان من المتآمرين، بينما طرد اثنان من الحملة وتركوا فى بلاد الباتاجونيين، وهم سكان هذا البلد، ويمتازون بطول القامة. وقد وجدنا هنا النعام، كذلك الثعالب والأرانب؛ ولكنها أصغر مما لدينا، والعصافير.

٤ـ مضيق ماجلان

وبمواصلة سيرنا نحو الجنوب، وفى اليوم الواحد والعشرين من أكتوبر، عند خط عرض ٥٢° جنوبًا، اكتشفنا مضيقا أسميناه (الأحد عشر ألف عذراء) تكريمًا لهذا اليوم. (وهو المضيق الذى نعرفه اليوم باسم مضيق ماجلان) . ينتهى هذا المضيق فى بحر آخر، سميناه المحيط الهادئ. وهذا المضيق محصور بين جبال عالية مغطاة بالثلج، وهو كذلك عميق جدًا، حتى عجزنا عن إلقاء مرساتنا ، إلا على مقربة من الشاطئ. وبمجرد أن دخلنا هذه المياه، التى تصورنا أنها مجرد خليج، أرسل القبطان سفينتين هما (سانتو أنطونيو) و (كونسبسيون) ليقوم رجالهما بفحص المياه ومعرفة أين تنتهى وفى أى اتجاه تقود.

وفى الليل هبطت عاصفة فظيعة استمرت ستًا وثلاثين ساعة، واضطرتنا لرفع مرساتنا واندفعت السفينتان الأخريان حتى نهاية الخليج، حيث توقعنا أن يلقى بهما على الشاطئ، ولكن فى اللحظة التى استسلموا فيها لنهايتهم، رأوا فتحة صغيرة أخذوها على أنها مدخل خليج، فدخلوا منها، ولما كانوا يتوقعون أن هذه القناة مقفلة فإنهم تابعوها ووجدوا أنفسهم فى واحدة أخرى، وواصلوا سيرهم خلالها إلى مضيق آخر يؤدى إلى خليج أكبر من السابقين، وعندئذ قرروا أنه من الحكمة أن يعودوا ليقدموا تقريرًا إلى القائد العام.

وعندما سمعنا عن المضيق وبلغنا الخليج الثالث، وجدنا فتحتين: واحدة تتجه إلى الجنوب الشرقى، والأخرى إلى الجنوب الغربى. فأرسل القائد العام السفينتين (سانتو أنطونيو) و (كونسبسيون) إلى الجنوب الشرقى لتختبرا ما إذا كانت هذه القناة تنتهى إلى بحر مفتوح.

وتحركت الأولى فى الحال دون أن تنتظر الثانية، وكان ضابط الملاحة على هذه السفينة (إيمانويل جوميز) الذى يكره ماجلان لأنه برتغالى، وكان قد قرر أن يستفيد

بظلام الليل ليقطع خط سيره ويعود إلى إسبانيا بالطريق نفسه الذى جئنا منه، وفى أثناء الليل تآمر مع الإسبان على السفينة، ووضعوا القبطان، الذى كان ابن عم القائد العام فى الأغلال الحديدية ونقلوه بهذا الشكل إلى إسبانيا. أما (كونسبسيون) التى لم تستطع اللحاق بسانتو أنطونيو، فقد واصلت السير فى القناة منتظرة عودتها دون جدوى.

أما نحن، على السفينتين الأخريين، (تحطمت السفينة سانتياجو على الساحل جنوب خليج سان جوليا)، فقد دخلنا القناة من الجنوب الغربى، وبلغنا نهرًا أسميناه نهر السردين، بسبب العدد الكبير من الأسماك من هذا النوع وجدناها فيه. وألقينا مرساتنا، وأرسلنا قاربًا مع عدد كاف من الرجال ليتفحصوا القناة. وفى اليوم الثالث عاد البحارة وأعلنوا أنهم رأوا الرأس الذى ينتهى إليه المضيق، وأن هناك بحرًا عظيمًا الذى هو المحيط، وبكينا من الفرح وسمينا هذا الرأس، أى الرأس المرتجى، لأننا - فى الحقيقة - ظللنا طويلاً ونحن نأمل أن نراه. وعدنا لننضم إلى السفينتين الأخريين، ووجدنا الكونسبسيون وحدها فأرسلت إشارة لسانتو أنطونيو برسالة فى طرفها تقول كيف أن القائد العام سوف يوجه خط سيره، وعندئذ دارت السفن الثلاث نحو الغرب.

وفى لحظة دخولنا المحيط، لاحظنا مطاردة فريدة لأسماك تتبع بعضها البعض، فهناك ثلاثة أنواع من الأسماك تطارد السمك الطائر. وهذه الأسماك عندما تطارد تكون على مقربة من الماء. وتنشر زعانفها وهى طويلة بدرجة كافية؛ لتستعملها كأجنحة وتطير مسافة مرمى حجر، ثم تعود إلى الماء. وفى أثناء ذلك يستمر أعداؤها فى مطاردتها مسترشدين بظلالها فى الماء، حتى تقع فريسة لهؤلاء الأعداء بمجرد أن تعود إلى الماء. وهذه الأسماك الطائرة تزيد على القدم طولاً، ولها مذاق طيب.

٥- عبر المحيط الهادئ

وفى يوم الأربعاء ٢٨ من نوفمبر تركنا المضيق، ودخلنا المحيط، الذى أعطيناه فيما بعد اسم الهادئ لأننا لم نقابل أى جو عاصف خلال رحلتنا فيه. وفى هذا المحيط أبحرنا مدة ثلاثة أشهر وعشرين يومًا دون أن نتذوق أى طعام طازج، أما الخبز الذى نأكله فلم يعد جديرًا بهذا الاسم، ولم يصبح شيئًا سوى تراب وديدان أتت عليه. وأما الماء الذى اضطررنا لشربه فقد أصبح عفنًا وكريهًا، وفقدنا كثيرًا من وزننا حتى اضطررنا كى لا نموت من الجوع أن نأكل قطعًا من الجلد الذى يغطى القلع الرئيسى

لحماية الحبال من التآكل. ولم يكن هذا كل شىء: لقد كانت أكبر مأساة صادفتنا، أننا تعرضنا لمرض يجعل اللثة تتورم حتى تختفى الأسنان، فى كل من الفكين العلوى والسفلى، بدرجة تجعل المصابين به يعجزون عن مضغ طعامهم. وقد أصيب كثيرون بهذا الداء (مرض الإسقربوط) كما عرف فيما بعد حتى مات تسعة عشر من رجالنا - وبالإضافة إلى هؤلاء الذين ماتوا سقط خمسة وعشرون أو ثلاثون بمرض الغواصين؛ وبهذا بقى قليلون جدًا وهم محتفظون بصحتهم. وفى خلال هذه الشهور الثلاثة والعشرين يومًا أبحرنا فى بحر مفتوح، وقطعنا أربعةآلاف فرسخ بالكامل فى البحر الهادئ، وقد أطلق عليه هذا الاسم بجدارة، ففى خلال هذا الوقت، لم نقابل أى عاصفة ولم نر أرضًا عدا جزيرتين غير آهلتين. (لعل هذا من قبيل الصدف فى المحيط الهادئ الذى تنتشر فيه كثير من مجموعات الجزر).

ولو لم يعطنا الله حظًا فى هذه الرحلة، لهلكنا جميعًا من الجوع فى بحر متسع كهذا. ولا أعتقد أن أحدًا سوف يغامر فى المستقبل بعمل رحلة مماثلة.

٦- جزر اللصوص (جزر ماريانا)

وعندما كنا عند خط عرض ١٢ شمالاً (وخط طول ١٤٦ شرقًا) يوم الأربعاء السادس من مارس عام ١٥٢١ اكتشفنا فى الشمال الغربى، جزيرة صغيرة وبعد ذلك إلى الجنوب الغربى جزيرتين أخريين. ورأى القائد العام أن نتوقف عند أكبرها للراحة وتموين السفن. ولكن الأمر أصبح مستحيلاً، فإن سكان الجزر صعدوا إلى ظهر سفننا وسرقوا شيئًا بعد آخر، دون أن نستطيع منعهم ودعونا لأن نتوقف وننزل إلى الشاطئ، وقد بلغوا من المهارة أنهم سرقوا القارب المعلق فى نهاية السفينة. لهذا السبب واصلنا سيرنا فى الاتجاه نفسه، كما كنا من قبل، وأطلقنا عليها اسم جزر (لادرون)، أى جزر اللصوص والتى تعرف الآن باسم مجموعة جزر (ماريانا) نظرًا لمهارة سكانها فى السرقة.

والهواية الرئيسية للأهالى هى التريض فى زوارقهم الشراعية (كانو)، وهى زوارق ضيقة جدًا ويصنع الشراع من أوراق أشجار النخيل المجدولة مع بعضها، وهو يوضع على أحد الجانبين من الزورق وعلى الجانب المقابل يربطون قطعة كبيرة من الخشب بواسطة أعمدة مثبتة وتمتد من جانب الزورق إلى وسطه حتى تحفظه ثابتًا. والأهالى هنا سباحون مهرة، لا يخشون البحر مثل حيوانات الدرفيل. وعلى شواطئ هذه الجزر

ينمو نخيل جوز الهند، التى تمد الأهالى بالطعام والنبيذ والزيت والخل. وثمرة النخيل هذه فى حجم رأس الإنسان وقشرتها الخارجية خضراء وسمكها قدر إصبعين، وهى مكونة من خيوط يصنعون منها حبال قواربهم.

٧- نهاية ماجلان

بعد أسبوع واحد من مغادرة جزر ماريانا وصلت البعثة إلى جزر الفلبين التى سميت كذلك نسبة إلى جزر مولوكا الإندونيسية؛ ولكن ماجلان كان قد أخطأ تقديره وسار فى طريق تبعد عشر درجات شمالاً عن الطريق الحقيقية. وأدى هذا الخطأ إلى اكتشاف جزر الفلبين التى لم يتخيل ماجلان وجودها، وأصبحت الفلبين من ممتلكات إسبانيا حتى تنازلت عنها للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٩٨ عقب الحرب الإسبانية الأمريكية. وفى جزيرة ماسا والتى تعرف الآن باسم ليماسافا، استطاع هنريك عبد ماجلان أن يتفاهم بلغة الملايو، فأصبح بذلك أول إنسان يكمل الرحلة حول الأرض.

واصل ماجلان الرحلة ليصل إلى جزيرة (سيبوا) الفلبينية التى كانت مركزًا مهمًا لتجارة التوابل، حيث استقبل بحفاوة كبيرة من الأهالى وملك الجزيرة الذى أعلن اعترافه بسيادة ملك إسبانيا، واعتناقه المسيحية. وأشرف ماجلان على النصر الكبير الذى يحلم به، ولكن طالعًا غير سعيد جعله يعرض مساعدته على ملك الجزيرة فى تأديب جزيرة (ماكتان) المجاورة. ولكن الأمور تسير فى غير صالحه، ويقتل ماجلان وهو فى قمة نجاحه بسبب حماقه لا لزوم لها.

وفيما يلى يحكى (بيجافيتا) قصة المعركة ونهاية ماجلان:

تركنا السفينة فى وسط الليل، وكنا ستين رجلاً، مسلحين بالخوذات والدروع وبلغنا (ماكتان) قبل طلوع الفجر بثلاث ساعات. ولم يبدأ القائد بالهجوم، ولكنه بعث إلى العدو برسالة تقول إنه إذا أعلنوا اعترافهم بسيادة ملك إسبانيا، وأطاعوا ملك سيبوا المسيحى ودفعوا الجزية التى يطلبها، فإنهم سوف يعتبرون أصدقاء وإلا فإنهم سوف يعانون من قوة حرابنا.

ورد أهل الجزيرة، بأن لديهم حرابًا كذلك وإن كانت عصًا من الخيزران مدببة الأطراف، عولجت أسنتها بالنار فتصلبت. وانتظرنا حتى مطلع ضوء النهار. فقفزنا إلى الماء الذى كان يرتفع حتى أفخاذنا لأن القوارب لم تستطع الاقتراب أكثر إلى الشاطئ

بسبب الصخور وعدم استواء القاع، وكان عدد الذين نزلوا إلى البر تسعة وأربعين فقط؛ لأن أحد عشر تركوا فى حراسة القوارب.

ووجدنا من أهل الجزيرة ألفًا وخمسمائة؛ موزعين فى ثلاث فرق، أسرعوا فى الهجوم وهم يصدرون صيحات مفزعة، وأطلق محاربونا النار من مسافة لمدة نصف ساعة دون أن يتركوا أقل أثر على الأعداء لأنه رغم أن طلقاتنا وسهامنا اخترقت دروعهم المصنوعة من الخشب الرقيق، بل جرحتهم أحيانًا فى أذرعهم، فإن هذا لم يجعلهم يتوقفون لأن الجروح لم تعجز فقط عن قتلهم بل زادتهم جرأة وغضبًا. وبالإضافة إلى هذا، فإنهم أمطرونا سحبًا من سهام الخيزران ورماح مقواة فى النار، وأحجار، بل وقاذورات حتى أصبح من الصعب أن ندافع عن أنفسنا. وأصيب القائد بسهم مسموم فى ساقه، فأصدر أمره بالتراجع ببطء ونظام، ولكن الأغلبية من رجالنا لجئوا إلى التراجع بسرعة،حيث لم يبق حول القائد سوى سبعة رجال أو ثمانية.

وعندما رأى الهنود أن ضرباتهم لا أثر لها عندما تصوب لأجسامنا ورءوسنا بسبب دروعنا ولاحظوا أن أرجلنا غير مغطاة، صوبوا سهامهم وحرابهم وأحجارهم نحوها فى أعداد لا نسطيع أن نحمى أنفسنا منها، وأما مدافعنا الموجودة فى قواربنا فلم يكن لها أية فائدة، لأن عدم استواء القاع بالقرب من الساحل لم يسمح للقوارب بالاقتراب من الشاطئ.

وتراجعنا ببطء، ونحن لا نزال نحارب، حتى ركبنا القوارب، عندما جددوا الهجوم بعنف. وعندما عرفوا قائدنا صوبوا معظم قذائفهم نحوه، حتى إن خوذته سقطت مرتين من فوق رأسه. وأخيرًا استطاع واحد من الأهالى أن يدفع طرف حربته خلال قضبان خوذته ليجرح القائد فى جبهته، الذى دفع بحربته فى الحال فى جسد مهاجمه لتبقى فى الجرح. وعندئذ حاول أن يستل سيفه ولكنه لم يستطع، فإن ذراعه اليمنى كانت قد جرحت بشدة، وعندما تبين الهنود هذا تجمعوا عليه وضربه أحدهم ضربة قوية بالسيف فى ساقه اليسرى فسقط على وجهه. وعندئذ وثبوا عليه فى الحال يفتكون به، وهكذا هلك فرديناند ماجلان مرشدنا وحامينا.

حدثت هذه المعركة التعسة فى السابع والعشرين من أبريل ١٥٢١ وهلك فيها ثمانية من رجالنا وأربعة من الهنود بالإضافة إلى قائدنا، أما الذين استطاعوا الهرب فإن القليل منهم بلغ السفن دون أن يجرح، وبعد موت قائدنا انتخبنا فى مكانه حاكمين،

هما: (إدوارد باربوزا) وهو برتغالى، و (جوان سيرانو) وهو إسبانى، وفى اليوم التالى أرسل ملك سيبوا المسيحى إلى حاكمينا الاثنين يخبرهما أنه قد أعد هدية من الأحجار الكريمة لملك إسبانيا ودعاهما للحضور والغداء معه. لكن مرشدنا الملاحى (جوان كارفاجو) اشتم رائحة الخيانة من الهنود، فعاد فى الحال إلى السفن. وبمجرد عودته سمعنا صيحات عالية وأنينًا. وعندئذ رأينا (جوان سيرانو) قادمًا يسوقه الأهالى نحو الشاطئ، وهو مجروح ومقيد اليدين والقدمين. وسألناه عما أصاب زملاءه وعما حل بمن كانوا فى صحبته، فعرفنا أنهم اغتيلوا جميعًا، وطلب منا أن نفديه ببعض ما لدينا من البضائع ولكن (جوان كارفاجو)، رغم أنه صديق قديم له، رفض مع غيره أن يتفاوضوا لإطلاق سراحه؛ ولم يسمحوا لأى من زوارقنا بالاقتراب من الشاطئ؛ والسبب فى هذا هو أنه فى حالة وفاة كل من الحاكمين؛ سوف تكون القيادة له. واستمر جوان سيرانو يستدر عطف صديقه بالتأكيد له أنه سوف يذبح فى اللحظة التى سوف نغادر فيها الشاطئ.وعندما وجد فى النهاية أن تضرعاته لم تثمر صب لعناته وصرخ إلى العدالة الإلهية أن تضع تبعة دمه على صديقه جوان كارفاجو؛ ولكنه رغم هذا لم يعره أى اهتمام. وأبحرنا دون أن نسمع عما حاق به فيما بعد.

٨-عن شخصية ماجلان

لقد كان من أهم فضائله الثبات فى أشد المواقف خطورة. وكان يحتمل الجوع فى البحر أكثر منا. وكانت خبرته عظيمة بالخرائط البحرية؛ وكان يعرف أحسن من أى شخص فى الملاحة، والدليل الأكيد على هذا أنه استطاع أن يعرف بعبقريته وشجاعته ودون أن يضرب له أحد المثل، كيفية الدوران حول الكرة الأرضية، وهو الأمر الذى كاد يتمه.

٩- جزر التوابل

«غادرت السفن جزر الفلبين» ولم يبق على ظهورها سوى ١١٥ رجلاً. ونتيجة لهذا العجز فى عدد الرجال؛ اضطرت البعثة إلى الاستغناء عن السفينة كونسبسيون فأغرقتها بعد أن نقلت منها كل ما يمكن الانتفاع به. ولم يبق من أسطول ماجلان غير سفينة ترينيداد والسفينة الصغيرة فكتوريا. وسارت السفينتان على غير هدى ودون

قيادة حازمة لمدة شهور. وعلى مقربة من ساحل (بورينو) انتخب قائد عام جديد هو (سباستيان دلكانو)؛ وفى ٨ من نوفمبر وصلت السفينتان إلى جزيرة (تيدور) إحدى جزر مولوكا أو جزر التوابل التى كانت حلم ماجلان الكبير».

وفيما يلى وصف بيجافيتا لجزر التوابل:

«شكرًا لله لقد عدنا (إلى العالم القديم)، وكتعبير عن فرحنا أطلقنا مدافعنا الكبيرة، وليس عجيبًا أن نكون مغتبطين إلى هذا الحد، فقد مضى علينا فى البحر سبعة وعشرون شهرًا إلا يومين ونحن نبحث عن جزر مولوكا، وقد زرنا عددًا كبيرًا من الجزر نبحث عما بلغناه الآن. ولكن يجب أن أذكر أن أقل عمق وجدناه بالقرب من هذه الجزر كان مائة قامة، ولهذا السبب يجب أن يهمل كل ما أشاعة البرتغاليون، فحسب أقوالهم تقع جزر مولوكا فى بحار لا يمكن الملاحة فيها بسبب الشُعَب، والجو المظلم الملىء بالضباب.

وفى إحدى الأمسيات، بعد وصولنا إلى تيدور صعد إلى ظهر السفينة برتغالى يدعى (ألفونسو دى لوروزا)، عرفنا منه أنه أمضى ستة عشر عامًا فى الهند، قضى منها عشرة فى جزر مولوكا، وقد تكتم ما إذا كان جاء مع البرتغاليين الأوائل الذين استقروا هناك هذه المدة. ولكنه أضاف أن سفينة كبيرة قد حضرت من مالقة من أحد عشر شهرًا لتنقل حمولة من خمس سفن قد أبحرت من أشبيلية تحت قيادة فرديناند ماجلان لتكشف جزر مولوكا لحساب ملك إسبانيا، وأن ملك البرتغال الذى غضب كثيرًا لهذه البعثة، لأن واحدًا من رعاياه قصد أن يلحق به ضررًا قد أرسل سفنًا إلى رأس الرجاء الصالح، لمقابلة ماجلان، كما أرسل تعليمات إلى القائد العام فى الهند ليرسل ست سفن حربية إلى جزر مولوكا لمواجهة ماجلان؛ ولكن القائد العام لم يفعل ذلك بسبب الحرب بين البرتغال والأتراك فى عدن، و التى احتاج فيها إلى كل سفينة.

وكان لما ذكره لوروزا أهمية كبيرة لنا، لهذا حاولنا إغراءه ليبحر معنا إلى أوروبا، مبينين له ما ينتظره من وظيفة عالية من ملك إسبانيا.

وذهبت إلى الشاطئ لأرى شجرة القرنفل. وتبلغ هذه الأشجار ارتفاعًا كبيرًا، وجزعها فى حجم جسم الإنسان وتشبه أوراقها أوراق الغار، وقلفها له لون زيتونى،

وينمو القرنفل فى نهاية فروع صغيرة ويكون القرنفل أبيض فى البداية، ثم يأخذ لونًا أحمر عندما ينضج، ولونًا أسود عندما يجف. ويمتلك كل ساكن بعض أشجار القرنفل التى يرعاها بنفسه ويجمع ثمارها. وتنتج هذه الجزيرة كذلك أشجار جوز الطيب، التى تشبه الكستناء الذى ينمو لدينا فى مظهر الثمرة والأوراق.

وتبلغ شجرة القرفة خمس إلى ست أقدام فى الطول، ولا يتعدى سمكها إصبع اليد، ولا يزيد عدد أفرعها على ثلاثة أو أربعة، أما ورقتها فتشبه أوراق شجرة الغار. والقرفة التى نستعملها هى قلف الشجرة الذى ينزع مرتين فى العام.

وفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من نوفمبر جاء الملك لزيارتنا، وذكر لنا أنه قد أعد لنا بمناسبة مغادرتنا جزيرته ما لم يفعله أحد من أجداده من قبل. وأضاف أنه من المعتاد فى تيدور أن يقيم الملك حفلاً لبحارة السفينة عندما تتسلم الجزء الأول من شحنة القرنفل، وأن يقيموا الصلوات داعين لهم بسلامة العودة.

ولكن هذه الدعوة أثارت شكوكنا، وقد زاد منها أننا عرفنا أن ثلاثة من البرتغاليين قد اغتيلوا فى البقعة نفسها التى تزودنا بالماء، على يد بعض الأهالى المختبئين فى غابة قريبة.

ثم تذكرنا ما حدث فى الحفل المشئوم فى (سيبوا)، لهذا رفضنا أن نقبل ضيافتهم بحجة أننا ننوى الإبحار فى أول فرصة يتحسن فيها الجو.

وجاء الملك على ظهر السفينة فى اليوم نفسه، وقال إنه شعر بكثير من الأسف لفراقنا المفاجئ، ثم أقسم فى حضورنا جميعا أنه سوف يبقى دائمًا صديقًا مخلصًا لملك إسبانيا؛ لهذا أطلنا إقامتنا فى تيدور أسبوعين آخرين. وأخذنا حمولة كبيرة من القرنفل.

وعندما انقضى هذا الوقت، أصبح كل شىء معدًا للرحيل فأقلعت السفينة فيكتوريا أولاً وخرجت إلى البحر منتظرة السفينة ترينداد، ولكن هذه السفينة ظلت مدة طويلة ترفع المرساة وعندما فعلوا ذلك تبين البحارة أن الماء يتسرب إليها. فأنزلوا جزءًا من الحمولة، حتى يتمكنوا من البحث عن الثقب ويُوقفوا تسرب المياه، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا مكانه. «وهنا قرر القائد العام ترك السفينة ترينداد ببحارتها لإصلاحها والعودة إلى إسبانيا بالطريق نفسه عبر المحيط الهادئ. وبعد إصلاح السفينة أبحرت

فى اتجاه بنما ضد الرياح التجارية الشرقية، ولكن البحارة قاسوا كثيرًا من قلة الطعام، فقفلوا راجعين إلى جزر مولوكا، لكنهم وقعوا فى أيدى البرتغاليين فساقوهم مقبوضًا عليهم إلى مستعمرة جوا البرتغالية. ولم يعد من بحارة هذه السفينة إلى إسبانيا سوى عدد قليل، وبعد عدة سنوات قاسوا كثيرًا من الحرمان».

١٠- رحلة العودة

«أبحرت فيكتوريا بين مجموعة جزر مولوكا حتى بلغت جزيرة (تيمور) الإندونيسية جنوبًا. وفى ٢٢ من فبراير ١٥٢٢، غادرت فيكتوريا متخفية عن أعين البرتغاليين، ودون أن تلجأ إلى أى من الموانى البرتغالية على طول الطريق. وكانت رحلة شاقة هلك فيها كثير من البحارة جوعًا. وفى ٦ من مايو، مروا برأس الرجاء الصالح بعد أن عبروا المحيط الهندى فى طريقهم إلى المحيط الأطلنطى».

لقد كادت مؤونتنا الآن تنفد، وإذا لم تكن السماء قد هيأت لنا جوًا طيبًا لكنا قد هلكنا جميعًا من الجوع. وفى التاسع من يوليو - وكان يوم الأربعاء - شاهدنا جزر (كاب فردا) - جزر الرأس الأخضر تحت الحكم البرتغالى فى وسط المحيط الأطلنطى - وألقينا مرساتنا أمام تلك الجزيرة المسماة (سانت جاجو).

ولمَّا كنا فى بلد غير صديق، فقد ذكرنا للرجال فى القارب الطويل أن يتكلموا بطريقة يفهم منها السكان أننا قادمون من شواطئ أمريكا وليس من رأس الرجاء الصالح، وقد كسبنا ثقتهم وتم تحميل قاربنا الطويل مرتين بأرز من الشاطئ مقابل بضائع مختلفة. وحتى تتأكد أن يومياتنا مضبوطة سألنا على الشاطئ عن اليوم، فقيل لنا إنه الخميس، وقد أدهشنا هذا كثيرًا، فإن اليوم الذى يظهر فى يومياتنا هو يوم الأربعاء. وقد اكتشفنا فيما بعد أنه ليس هناك أى خطأ فى حساباتنا لأنه بما أننا أبحرنا باستمرار فى اتجاه الغرب متتبعين مسار الشمس، فإننا عند عودتنا إلى المكان نفسه الذى غادرناه، نكون قد كسبنا بالطبع أربعًا وعشرين ساعة عن هؤلاء الموجودين فى البقعة نفسها.

«وتعد ملاحظة (بيجافيتا) هذه من أهم ما عادت به الرحلة، وسوف تثير هذه الظاهرة اهتمام العلماء فى القرن السادس عشر».

ولكن القارب الطويل احتُجز فى المرة الثالثة، ولما كنا نشك أن خطة موضوعة ضد سفينتنا فقد قررنا أن نهرب فى الحال. وقد عرفنا فيما بعد أن القارب قد أوقف لأن

واحدًا من البحارة أفشى سرنا وذكر أن القائد العام قد مات، وأن سفينتنا هى السفينة الوحيدة التى عادت إلى أوروبا من أسطول ماجلان.

شكرًا للرعاية الإلهية، فقد دخلنا فى السادس من سبتمبر خليج (سان لوكار)، ولم يبق من طاقم السفينة الذى كان مكونًا من ستين رجلاً عندما غادرنا جزر مولوكا، سوى ثمانية عشر معظمهم مرضى.

وفى يوم الاثنين الثامن من سبتمبر ١٥٢٢، ألقينا مرساتنا أمام الرصيف فى أشبيلية، وأطلقنا كل مدافعنا، تحية لقيامنا بالدوران حول الكرة الأرضية من الشرق إلى الغرب.

البحث عن اليقين

أقوى من عبَّر عن حضارة القرن العشرين

جـون ديـوى

(١٩٢٩ م)

يعتبر جون ديوى من أبرز الفلاسفة الأمريكيين فى النصف الأول من القرن العشرين. امتدت سيرته على مدى ثلاثة أجيال، وأسمع صوته فى خضم المناظرات الثقافية التى هزت الولايات المتحدة وبلدانًا أخرى منذ تسعينيات القرن السابق وحتى وفاته عام ١٩٥٣م، عن عمر يناهز الثالثة والتسعين. وعلى امتداد حياته الطويلة، صاغ ديوى فلسفة تنادى بالوحدة بين النظرية والتطبيق، وهى وحدة أعطى مثالاً عنها فى عمله كمفكر وكمناضل سياسى كان تفكيره ينبع من قناعة أخلاقية بأن الديمقراطية هى صنو الحرية، وقد نذر حياته فى سبيل صياغة مجموعة من البراهين الفلسفية المعززة لتلك القناعة، والنضال من أجل ترسيخها وتثبيتها.

نشأة فيلسوفنا، وأثرها فى توجيه آرائه

ولد (ديوى) ونشأ فى أسرة زراعية ريفية فى ولاية بأقصى الشمال الشرقى من الولايات المتحدة، ثم كُتب له وهو فى الجامعة أن يدرس فلسفة (هيجل) ويتأثر بها، شأنه فى ذلك شأن كل دارسى الفلسفة عندئذ بغير استثناء، إذ الموجة الهيجلية كانت إذ ذاك قد طغت على كل ما عداها من موجات الفكر الفلسفى، سواء فى القارة الأوروبية بما فيها إنجلترا، والقارة الأمريكية. لكن الحظ قد شاء لفيلسوفنا أن ينتقل إلى شيكاغو فى أوائل أعوام نضج الرجولة، فما أشد ما لاحظه من خلاف بين الحياة كما رآها فى هذا الإقليم الأوسط، وبين الحياة كما عهدها فى شرق الولايات المتحدة الذى كان قد استتبت أموره واستقرت على حال معينة، حتى لكأنه امتداد لأوروبا والعالم القديم. ففى شرقى الولايات - حيث ولد ديوى ونشأ - محافظة على القديم، وإيثار للسلامة والأمن، وبعد عن المخاطرة والمقامرة، أما فى هذا الإقليم الأوسط فقد رأى الثراء الطائل يجمعه صاحبه فى مثل اللمح بالبصر، ها هنا مغامرة ومخاطرة وجرأة وطموح، ولئن كان هذا كله ينتهى أحيانًا بالإخفاق فهو فى معظم الأحيان ينتهى بصاحبه

إلى نجاح. إن الحياة هنا مقامرة كبرى لا يقين فيها، لكنها مقامرة تبنى على ترجيح الكسب، أتحسب أن معلمًا جاء ليعلم أبناء قوم كهؤلاء، كان لينظر إلى هذه الحياة الجارفة من حوله، التى تملؤها روح الابتكار ويسودها الأمل فيما هو جديد، ثم يعلم النشء أن الحق واحد ثابت لا يتغير ولا يتطور؟ أى حق هذا؟ أهو الحق فى عالم التجارة أم الحق فى عالم الصناعة؟ فقد وفد جون ديوى على قوم لا يؤمنون بالجلوس الهادئ على كراسىّ ثابتة القوائم يدرسون نظريات لا تسمن ولا تغنى، بل يؤمنون بالعمل اليدوى وبالسعى الدءوب الذى لا يفتر لحظة عن الإنتاج والخلق.

وإلا ماذا كان لفيلسوف حساس لما حوله ـ وهذا هو ما كان قائمًا حوله ـ سوى أن يوائم بين الفكر والعمل؟ أكان لفيلسوف يعيش وسط هذا التجاح المزدهر، أن يقول للناس: ليكن مقياس الصواب عندكم هو ما قاله الأسلاف؟ أم كان لابد له أن يتأثر بالواقع وقوته فيقول: بل إن مقياس الصواب هو النتائج؟ فما كانت نتيجته نجاحًا فى حل المشكلات العلمية فهو الصواب. إن كل شىء فى حياة الإنسان قابل للتغير، ولا مفر من تغييره، إن دعت الضرورة إلى ذلك التغيير، فلا يجوز لشىء ـ كائنًا ما كان ـ أن يقف حائلاً فى طريق الإصلاح الاجتماعى وتوفير العيش الرغد للإنسان العامل. نعم، إنه لا بد من تغيير قواعد الأخلاق ذاتها، إن اقتضى الإصلاح هذا التغيير، وكذلك لابد من تغيير أسس السياسة والاقتصاد والتربية وكل شىء مما قد يظن به الدوام والثبات، فى سبيل تغير الحياة تغييرًا يجعلها أكثر ملاءمة لظروف العصر الجديد.

انصراف ديوى أول الأمر إلى التربية

وإذا تصورنا الإنسان: كيف ينبغى أن يكون فى ظروف العصر الجديد، كانت الوسيلة لتكوينه على الصورة الجديدة هى التربية، ومن ثم انصرف ديوى باهتمامه أول الأمر إلى التربية يمعن النظر فى أسسها وطرائقها، وما أظن أن معلمًا واحدًا فى شرقى الدنيا أو غربها لم يتأثر بالمبادئ التربوية الجديدة التى أعلنها ديوى وأشاعها، والتى قلبت وجهة النظر فى هذا الميدان رأسًا على عقب. فمهما اختلف المخالف فى تفصيلة هنا وتفصيلة هناك، فما أحسب أحدًا يمارى فى الأساس العميق، ألا وهو أن يكون محور العملية التربوية هو المتعلم نفسه لا مادة الموضوع المدروس. وكان أول كتاب تربوى أخرجه ديوى هو كتاب «المدرسة والمجتمع» (١٨٩٩)، الذى شرح فيه طرائقه التى كان

يتبعها فى مدرسته التجريبية الملحقة بالجامعة، جامعة شيكاغو، حيث كان مبدؤه الأساسى هو أن يجعل من تلاميذ المدرسة مجتمعًا صغيرًا يشبه المجتمع الكبير فى حياته ونشاطه. ثم تلا ذلك كتاب آخر هو «الديمقراطية والتربية» (١٩١٦)، يبين فيه أن التربية هى أن تنشِّئ الناشئ على سرعة المواءمة بين نفسه وبين بيئته، لا على أن يحافظ على التقاليد القديمة مهما تكن آثارها على حياته العملية الجديدة.

ديوى صاحب منطق جديد

على أن أهم موضوع أدار جون ديوى حوله الفكر، هو تحليل عملية الفكر نفسها، (فالأفكار) ما طبيعتها؟ وما أصلها؟ وكيف تطورت فى عقل الإنسان من أصولها البيولوجية والاجتماعية الأولية البسيطة حتى أصبحت ما أصبحت؟ وبعبارة أخرى، كان (المنطق) هو أهم ما خلفه لنا هذا الفيلسوف، فكما أن أرسطو قد خلف من بعده (منطقًا) أقامه على أساس المنهج الاستنباطى الرياضى الذى يصور طريقة اليونان الأقدمين ـ وطريقة أهل العصور الوسطى المتدنية، فقد كان ديوى فى عصرنا الحاضر من بين من أقاموا منطقًا جديدًا يصور طرائق البحث فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، وهو المنطق الذى أطلق عليه اسمًا فنيًا هو (نمط البحث)، قاصدًا بكلمة (البحث) هنا أن ينخرط الإنسان فى مسلك يعالج به موقفًا مشكلاً حتى ينفض إشكاله.

فلابد لكى ينشأ عند الإنسان (فكره) على الإطلاق، من أن يكون هنالك موقف معين، رتبت فيه الأشياء على صورة من شأنها أنها لا تحقق غرضًا من أغراض الإنسان ـ صغر ذلك الغرض أو كبر ـ وإذن، فلابد أن يلم صاحب المشكلة المعينة بعناصر الموقف المشكل من حوله، ثم يديرها فى رأسه محاولاً أن يجد لتلك العناصر ترتيبًا آخر، لو رتبت به لانحل الإشكال. وبعدئذ يعود صاحب المشكلة إلى الموقف من جديد يحاول مرة أخرى إعادة ترتيب العناصر، وهلم جرًا، معنى ذلك أن الفكر يستحيل قيامه بغير مشكلة فعلية، أما أن تجلس على كرسيك وتتأمل فى فراغ ثم تظن أنك تفكر، فأمر لا يقبله البرجماتيون جميعًا، بل إن العقل نفسه لم يعد عندهم كائنًا غيبيًا قائمًا بذاته داخل الجسم، سواء نسبنا له التفكير حينًا بعد حين، أو نسبنا له التفكير فى كل حين، كلا، إن العقل هو نفسه نمط من سلوك بدنى نلاحظ فيه أنه هو السلوك الذى يحاول أن يحقق هدفًا بعينه فى مواقف الحياة الفعلية.

لا بحث بدون مشكلة قائمة، ولا قيام لحقيقة بذاتها

لكن جون ديوى يعود فينفرد وحده دون سائر البرجماتيين بما يسميه «المذهب الوسلى» (من وسيلة)، وشرحه باختصار كما يقول د. زكى نجيب محمود هو أن كل حقيقة إنما هى خطوة فى طريق متسلسل طويل يؤدى فى النهاية إلى (حل) لمشكلة معينة. وهذا الحل الأخير نفسه يستحيل أن يكون حقيقة قائمة بذاتها، بل إنه سرعان ما يصبح حلقة فى سلسلة فكرية جديدة يراد بها حل إشكال جديد. فلو قلت لى مثلاً: (هذا قَدُوم) ـ مشيرًا إلى آلة معينة ـ فقولك هذا من الناحية المنطقية عند ديوى ليس بذى بال، ما لم تكن فى موقف يكون فيه القدوم وسيلة تؤدى إلى نتيجة منشودة. أما أن أعرف أن هذا قَدُوم وكفى، ليس قبلها شىء ولا بعدها شىء، فما هو من المعرفة فى شىء «المعرفة هى معرفة وسائل لحلول، والحلول لا تكون إلا لمشكلات قائمة فعلاً». ومن هنا تستطيع أن تحكم على هاتيك الشطحات التى يشطح الشاطحون ويقولون إنهم يفكرون دون أن يكون قد صادفهم فى حياتهم إشكال يقتضى بحثًا وحلاً!! إن أمثال تلك الشطحات ليست فكرًا، بل هى دوران عقيم فى دائرة من لفظ أجوف.

ديوى فى سطور

١٨٥٩ ـ ولد فى (فرمونت) فى ٢٠ من أكتوبر.

١٨٧٥ ـ تخرج فى المدرسة الثانوية.

١٨٧٩ ـ تخرج فى جامعة (فرمونت).

١٨٨٤ ـ حصل على الدكتوراه من جامعة (جون هوبكنز).

١٨٨٤ ـ ١٨٨٨ ـ مدرس فلسفة بجامعة (متشجان).

١٨٨٨ ـ ١٨٨٩ ـ مدرس فلسفة بجامعة (منيسوتا).

١٨٨٩ ـ ١٨٩٤ ـ أستاذ الفلسفة ورئيس قسم الفلسفة بجامعة (متشجان).

١٨٩٤ ـ ١٩٠٤ ـ أستاذ الفلسفة والتربية بجامعة (شيكاغو).

١٩٠٢ ـ ١٩٠٤ ـ مدير مدرسة التربية بجامعة (شيكاغو) ـ أنشأ مدرسة المعمل.

١٩٠٤ ـ رحلة إلى أوروبا ـ إنجلترا ـ إيطاليا.

١٩٠٥ ـ ١٩٣١ ـ أستاذ الفلسفة بجامعة (كولومبيا) ـ أستاذ بمدرسة المعلمين بجامعة كولومبيا.

١٩١٩ ـ رحلة إلى اليابان والصين ـ محاضرات فى طوكيو بالجامعة الإمبراطورية ـ وفى الصين بالجامعات الوطنية فى (بكين) و(نانكنج).

١٩٢٤ ـ رحلة إلى تركيا.

١٩٢٦ ـ رحلة إلى المكسيك.

١٩٢٨ ـ رحلة إلى روسيا.

١٩٣١ ـ ١٩٣٩ ـ أستاذ شرف للفلسفة بجامعة (كولومبيا).

١٩٣٧ ـ رئيس لجنة التحقيق فى اتهام (تروتسكى) ومحاكمته فى موسكو.

١٩٥٢ ـ وفاته فى أول يونيو.

مؤلفات ديوى

سنصف كتبه تبعًا للموضوعات الرئيسية التى طرقها، ولن نذكر مقالاته المتعددة المنشورة فى مختلف المجلات الفلسفية، مع ذكر السنة التى صدرت فيها الطبعة الأولى لكل كتاب.

أ ـ مؤلفات تربوية: عقيدتى التربوية (١٨٩٧) ـ المدرسة والمجتمع (١٩٠٠) ـ الطفل والمنهج الدراسى (١٩٠٢) ـ مدارس الغد (١٩١٥) ـ الديمقراطية والتربية (١٩١٦) ـ الخبرة والتربية (١٩٣٨) ـ التربية فى العصر الحاضر (١٩٤٠) ـ فلسفة التربية (١٩٤٦).

ب ـ مؤلفات نفسية: علم النفس (١٨٨٧) ـ علم النفس والمنهج الفلسفى (١٨٩٩) ـ كيف تفكر (١٩١٠) ـ الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢).

جـ ـ مؤلفات أخلاقية: الأخلاق (١٩٠٨) ـ الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢).

د ـ مؤلفات منطقية: دراسات فى النظرية المنطقية (١٩٠٣) ـ مقالات فى المنطق التجريبى (١٩١٦) ـ المنطق أو نظرية البحث (١٩٣٨).

هـ ـ مؤلفات سياسة: الفلسفة الألمانية والسياسية (١٩١٥) ـ الفردية قديمًا وحديثًا (١٩٣٠) ـ قضية تروتسكى (١٩٣٧).

د ـ مؤلفات دينية: إيمان مشترك (١٩٣٤).

ز ـ مؤلفات فنية: الفن والتربية (١٩٢٩) ـ الفن كخبرة (١٩٣٤).

ح ـ مؤلفات اجتماعية وحضارية: الطبيعة البشرية والسلوك (١٩٢٢) ـ الجمهور ومشكلاته (١٩٢٧) ـ شخصيات وحوادث (١٩٢٩) ـ الفلسفة والحضارة (١٩٣١) ـ التحرير والحركة الاجتماعية (١٩٣٥) ـ الحرية والثقافة (١٩٣٩).

ط ـ مؤلفات فلسفية: أثر (دارون) فى الفلسفة (١٩١٠) ـ تجديد فى الفلسفة (١٩٢٠) ـ الخبرة والطبيعة (١٩٢٥) ـ البحث عن اليقين (١٩٢٩) ـ نظرية القيمة (١٩٣٩) ـ المعرفة والمعروف (١٩٤٩).

والمؤلفات المذكورة آنفًا شىء يسير بالمقارنة إلى التراث الضخم الذى خلفه ديوى، اكتفينا بالإشارة إلى أهمها، ويمكن اختزال هذه المؤلفات مرة أخرى والوقوف عند الرئيسية منها والتى تعد تراثًا خالدًا حقًا. وهذه هى: الديمقراطية والتربية، تجديد فى الفلسفة، الطبيعة البشرية والسلوك، المنطق أو نظرية البحث، الخبرة والطبيعة، الخبرة والتربية، الفن كخبرة، نظرية القيمة والبحث عن اليقين.

كتاب البحث عن اليقين

يقع الكتاب فى أحد عشر فصلاً، هى: الهرب من الخطر، وبحث الفلسفة عن اللامتغير، والصراع بين الطبقات، وفن القبول وفن التوجيه، والأفكار فى مجال العمل، ولعب الأفكار، وقاعدة السلطة الفكرية، وتطبيع الذكاء، وسلطان المنهج، وبناء الخير، والثورة الكوبرنيقية.

ليس فى هذه الفصول جديد لم نذكره من قبل عند عرض مذهبه، كل ما فى الأمر أنه وضح بعض الأفكار التى ينادى بها، وجمع أطراف الفلسفة فى كتاب واحد، وتعد الفصول الثلاثة الأخيرة، وهى: سلطان المنهج، وبناء الخير، والثورة الكوبرنيقية أروع فصول الكتاب وأهمها وأخلدها. ففى الكلام عن المنهج توضيح لمنطقه وبيان للمنهج العلمى، وفى الفصل العاشر، وهو بناء الخير، عرض موجز عميق لفلسفة الأخلاق والقيم، وفى الثورة الكوبرنيقية ينادى بثورة جديدة ديوية.

الفصل الأول تمهيد أو مقدمة للفلسفة العامة، وللمشكلات الفلسفية والسر فى ظهورها على مر الزمان. ونحن نعلم أن أرسطو بدأ كتابه فى الميتافيزيقا بقوله: «إن الإنسان كائن مستطلع، وإن حب المعرفة يولد فى المرء لذة طبيعية هى التى تسوقه إلى طلبها. وبدأ ديوى فى كتابه «تجديد الفلسفة» بأن أصل الفلسفة فى الرغبة وفى

التخيل، لأن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالاحتفاظ بذكرياته الماضية وخبرته السابقة، وأنه يتخذ من هذه الذكريات رموزًا لحياته المقبلة، كالنار ليست مجرد شيء يحرق ويؤذى من يتعرض له، بل رمز لمحراب العبادة، وبذلك يصبح للحياة معنى وتصبح مأساة حقيقية.

وفى كتابه «البحث عن اليقين» يذهب إلى أن الإنسان محفوف أبدًا بالمخاطر، وهو لذلك يلتمس الأمن بطريقين:

طريق علمى هو محاولة فهم أسرار الطبيعة وابتكار الأدوات والفنون التى يحمى بها نفسه ويسيطر بها على البيئة الطبيعية من بناء مساكن، ونسج لباس، واتخاذ أسلحة يهاجم بها الحيوانات وغير ذلك.

والطريق الآخر خيالى وهمى، يحاول به أن يسترضى القوى التى تحدد مصيره بتقديم التضحية لها، وعبادتها، وممارسة الطقوس الدينية والسحرية، سواء بحركات ظاهرة، أو بسريرته الباطنة من تقوى وإخلاص.

ولكن الناس رفعوا من قيمة الروحانيات على الماديات التى حطوا من شأنها وأنزلوها منزلة أقل من المعقولات النظرية والروحانيات المجردة.

ارتمى الناس فى أحضان الروحانيات وظنوا أنها توصلهم إلى (اليقين)، وابتعدوا عن العمل والصنع والفنون اليدوية المتغيرة لأنها لا تبلغ مرتبة اليقين، ولا يمكن أن تبلغه، ورتب الفلاسفة على هذا الفصل نظرياتهم فى الوجود والمعرفة والقيم على السواء، فهناك وجود ثابت يقينى من وراء هذا الوجود المتغير، والمعرفة المطابقة لهذا الوجود هى أصدق معرفة، والقيم الأخلاقية سامية خالدة ينبغى على الإنسان أن يرتفع إلى مستواها، وقل أن يستطيع امرؤ أن يبلغها مادام مرتبطًا بهذه الحياة وبهذا الكون، وهكذا ضلت جميع الفلسفات القديمة بسبب هذا الفصل بين الروحانى والمادى، بين النفس والبدن، بين المثالى والواقعى، وليس ثمة من حل لهذه المشكلة سوى إلغاء هذا التمييز، واتخاذ (الخبرة) أساسًا لكل بحث إنسانى سواء كان علميا طبيعيًا أو أخلاقيًا إنسانيًا.

ولاشك أن هذه الوجهة من النظر تعد ثورة فى عالم الفلسفة وكل فيلسوف كبير أحدث فى الفلسفة ثورة، فهذا سقراط ثار على السوفسطائيين وعلى مبدأ النسبية

والتغير وأرسى قواعد الخير الثابت، وأنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أى حولها من البحث فى الأمور الطبيعية إلى الأمور الإنسانية، وسار على منواله أفلاطون ثم أرسطو وسائر الفلسفات القديمة وفى العصر الوسيط، حتى جاء (كانط) فأحدث ثورة أخرى أكبر شبهًا بالثورة الكوبرنيقية فى علم الفلك، يريد بذلك أنه بدلاً من أن تكون الأرض هى المحور الذى يدور العالم حوله، أصبح العالم هو المحور والأرض تدور حوله. كذلك بعد أن كانت الأشياء الخارجية هى المحور الذى يدور الفكر حوله محاولاً معرفته، أصبح الفكر عند كانط هو المحور الذى تدور حوله الأشياء الخارجية، لأن العقل البشرى فى نظر كانط مزود بمقولات أولية تطبع المعرفة بطابعها.

انتقد ديوى هذه النظرية الكانطية، وبين أنها ليست فى الحقيقة ثورة، لأن المعرفة التى كانت فى الفلسفة القديمة متعالية فى عالم منفصل أسمى من عالمنا، أصبحت عند كانط متعالية أيضًا. إنها انتقلت إلى عرش العقل الموجود فى الإنسان، وتستمد وجودها منه بالفطرة، وهى أولية سابقة على التجربة. ولكن عند ديوى ليست المعرفة أولية، ولا سابقة على التجربة، بل نابعة من التجربة نفسها، ومن الخبرة، وثمرة لها.

وكان اليقين فى المذاهب التقليدية منذ الفلسفة اليونانية، حتى كانط بل ما بعد كانط مستندًا إلى الحقائق الثابتة الأزلية لأنها موجودة فى عالم أعلى، وغاية أمل الفيلسوف أن يجتهد ليتطابق معها، عندئذ تتم المعرفة، ويظفر باليقين والاطمئنان العقلى.

والواقع يدلنا على خلاف ذلك، لأن الحياة طبيعية كانت أم إنسانية فى جريان متصل وتغير مستمر، وعلينا أن نتطابق مع هذا العالم المتغير، وأن نلتمس منه المعرفة، واليقين، وإذا لم يكن اليقين ميسورًا فى عالم متغير، فما علينا إلا أن نقنع بالرجحان.

وهذه هى الثور الديوية التى تطالب بأن نجعل معيار الحكم فى النتائج والثمرات لا فى الأشياء السابقة، وأن نسعى إلى بناء عالم مستقبل بالقصد والتوجيه بدلاً من الاعتماد على الماضى الثابت. والجديد فى هذه الثورة هو (التفاعل) المستمر فى مجرى الطبيعة بين ذهن الإنسان وبين الأشياء الطبيعية، أى فى مجرى (الخبرة). وبدلاً من أن يسمى الأداة الإنسانية الموجهة لتيار الخبرة المتصل (العقل)، طالب بتسميته (الذكاء)؛ ليدل بذلك على المشاركة الفعالة فى توجيه العالم. ولما كانت الفلسفة خلاف العلم وخلاف الفن، فلها مهمة خاصة بها هى الطبيعة البشرية من جهة أخلاقيتها وسلوكها

الاجتماعى. فالمادة التى يشتغل عليها الفيلسوف ويصوغ منها أفكاره هى البشر: أطفالاً وشبابًا وشيوخًا، يأخذ بيد الطفل بالتربية، ويسمو بالفرد بالمعرفة، ويتطور بالمجتمع بالعلم.

وما يسميه ديوى فن القبول وفن التوجيه تابع لنظريات الفلاسفة التقليدية فى الوجود والمعرفة، لأن الوجود الثابت والمعرفة المطابقة لهذا الوجود، إنما تعطينا قبول ما هو قائم، وليس الحال كذلك فى فلسفة الخبرة الديوية، لأن الأمر ليس مجرد استقبال بل هو توجيه للأحداث من جهة ما للإنسان من دور فعال فى الحياة. ولقد كان العلم من عهد قريب يقف عند مرحلة الوصف والتسجيل، أى عند فن القبول، ولكنه انتقل إلى دور آخر هو التركيب وتغيير الطبيعة وتوجيهها. مثال ذلك الذرة عرف العلماء سرها، وهذه مرحلة الوصف والتحليل، ثم ركبوها فتمت بذلك المرحلة العلمية، ومن هنا كانت روح المنهج التجريبى العلمى قائمة على ثلاث خصائص، هى: العلانية لا السرية، ثم توجيه البحث لحل المشكلة المعروضة على بساط البحث، وأخيرًا تكوين مواقف جديدة تختلف فيها علاقة الأشياء بعضها ببعضها الآخر.

وليست المعرفة مطابقة بين ذات عارفة وبين موضوع معروف وهو الحق الثابت، بل المعرفة هى المنهج التجريبى نفسه تجرى معه وتتطور كلما تطور، وينشأ المعروف من الخطوات التجريبية، وهى:

١ ـ إعادة الكيفية المشاهدة بالحواس، وهذه تحدث من تفاعلنا مع البيئة وتكون معرفة غير يقينية.

٢ ـ التمييز بين المعطيات الحسية وبين الأفكار التى نسوقها لتأويلها.

٣ ـ هذه الأفكار أو الفروض ليس ثابتة نهائية، بل عرضة للمراجعة وافتراض فروض جديدة.

٤ ـ المطابقة بين هذه الفروض وبين المعطيات بغية تحسين الفروض وتحقيقها.

ففى كل مرحلة يتخذ العالم الباحث الأفكار أداة لتوجيه ملاحظات ونظريات ونتائج جديدة، وهذا المنهج كما يطبق على العلوم الطبيعية يمكن كذلك أن يطبق على الإنسانيات مثل الأخلاق والدين والاجتماع، التى تمتاز بالقيم.

هناك فرق بين حكم الواقع وحكم القيمة، فالأول يدل على واقعة وجودية كما نقول هذا الشىء حلو أو مر، أحمر أو أسود، فهو وصف للواقع قد يكون صوابًا إن كان

مطابقًا له، أو خطأ إن كان غير مطابق. وحين نصف شيئًا بالقيمة، فمعنى ذلك أنه يحقق (شروطًا) معينة، وأنه يؤدى (وظيفة) أكثر من مجرد الوجود. فقولنا الورد جميل حكم واقع، وحين نختار وردًا لتقديمها هدية، أو وضعها للزينة يكون لها قيمة تحقق شروطًا معينة وتؤدى وظيفة، بناء على الاختيار، والتوجيه، والإيثار، والترجيح، والاستحسان، فالقيمة خاضعة للتفكير الموجه أو التفكير البرجماتى، كما رأينا فى خضوع الفكر للعلم التجريبى ومنهجه.

وليست أحكام القيمة، ومنها المثل العليا الأخلاقية مستمدة من معايير سابقة ومبادئ أولية متعالية، ولكنها أحكام عن شروط الأمور التى نجربها ونتائجها وكيف يجب أن تنظم تكوين الرغبات والعواطف والمتع.

وإذا طبقنا المنهج التجريبى على أمور الدين والأخلاق والاجتماع، وهى الأمور التى تمتاز بالقيمة، حدث لها تغير عظيم أشبه بما حدث فى العلوم الطبيعية، ولأمر ما نثق فى المنهج عندما نطبقه على الأمور الطبيعية ولا نثق فيه عند تطبيقه على الإنسانيات؟ فإن قيل إننا لو فعلنا ذلك لتخلينا عن كل سلطة منظمة وعن جميع المقاييس والمعايير، وأجاب ديوى بأن المنهج لا يعنى التخبط والسلوك الأعمى بل التوجيه بالمعرفة والذكاء.

صفوة القول: اليقين الذى ظن قدماء الفلاسفة بلوغه بطريقتهم التى فصلت بين عالم الحق وعالم الواقع أمر لا يمكن، وإنما الذى فى ميسور الإنسان هو أن يبلغ الأمن عن طريق السير فى تيار العلم والصناعات التى تحسن أحوال العمران.

منتخبات من الكتاب

نظرية المعرفة قديمًا

لقد صيغت نظرية المعرفة على مثال ما هو مفروض أن يتم فى عملية الإبصار الخارجى، حيث يعكس الضوء على العين فيُرىَ. وهذا الفعل يضيف اختلافًا إلى العين وإلى الشخص صاحب جهاز البصر، ولكنه لا يضيف شيئًا ما للشىء المبصر. فالشىء الواقعى هو الشىء الذى يتربع ثابتًا على عرش العزلة كأنه ملك ينظر العقل إليه محدقًا فيه. والنتيجة التى لا مناص منها هى القول بنظرية المعاينة فى المعرفة أو نظرية المتفرج. حقًا هناك نظريات تذهب إلى تدخل النشاط العقلى، ولكنها احتفظت بالمقدمة السابقة مما ترتب عليه استحالة معرفة الحقيقة الواقعة. فما دام العقل يتدخل فنحن

إنما نعرف طبقًا لهذه النظريات شبهًا معدلاً للشيء الواقع أو ظاهرًا ما. ومن العسير أن نجد تأييدًا أكمل مما تقدمه لنا هذه النتيجة عن السيطرة الشديدة للاعتقاد بأن موضوع المعرفة عن حقيقة ثابتة وكاملة فى ذاتها، منعزلة عن فعل البحث الذى يشتمل على أى عنصر يحدث التغير.

الغرض من العلم

غرض العلم الكشف عن العلاقات الثابتة بين المتغيرات بدلاً من تعريف الأشياء اللامتغيرة المتعالية على إمكان التبدل، فموقف العلم يهتم بميكانيزم الأحداث بدلاً من اهتمامه بالعلل الغائية. والمعرفة حين تبحث فيما هو قريب لا ما هو نهائى، إنما تبحث فى العالم الذى نعيش فيه، العالم الذى نجربه، بدلاً من محاولة الهرب من طريق العقل إلى عالم أعلى: والمعرفة التجريبية ضرب من العمل، وهذا الضرب ككل عمل يقع فى زمان معين وفى مكان معين وفى ظروف خاصة مرتبطة بمشكلة محدودة.

البحث العلمى

البحث العلمى يبدأ دائمًا من الأشياء الموجودة فى البيئة مما نجربه فى حياتنا اليومية، من الأشياء التى نراها ونتناولها بأيدينا ونستعملها ونتمتع بها ونعانيها وهذا هو عالم الكيفيات العادى. ولكن بدلاً من قبول كيفيات وقيم هذا العالم باعتبار أنها تقدم موضوعات المعرفة مع خضوعها لترتيب منطقى معين، ينظر البحث التجريبى إليها باعتبار أنها تقدم حافزًا للفكر.

اليقين والأمن

إن شروط الطبيعة وعملياتها كما تولد اللايقين ومخاطره، تقدم لنا كذلك الأمن من المخاطر وسبل التأمين بإزائها. فالطبيعة تتميز بأنها مزيج دائم من المزعزع والثابت وهذا هو الذى يعطى الوجود طعمًا مرًا، إذ لو كان الوجود إما واجبًا أو ممكنًا، فلن يكون فى الحياة ملهاة أو مأساة، ولا تكون ثمة حاجة إلى إرادة العيش. إن أهمية الأخلاق والسياسة، والفنون والصناعات، والدين، والعلم كمنهج وكشف، كل ذلك يستمد أصله ومعناه من وحدة المستقر وغير المستقر، الثابت والمزعزع فى الطبيعة. ولن نجد خارج الوحدة شيئًا يسمى (الأهداف)، سواء أكانت نهاية أشواط أم كانت أغراضًا ننصبها أمام أعيننا، فليس ثمة كون واحد صمد نتجه إليه دون أن يسمح بأى تغير، أو

تسير نحوه الأحداث المقدورة. وليس ثمة تمام عمل ما لم يكن ثمة مخاطرة بفشل، ولا فشل حيث لا يوجد أمل فى إمكان التحقيق.

دعامة اليقين فى الفلسفات القديمة

رأينا منذ استهلال هذه المناقشة أن عدم الأمن يولد البحث عن اليقين، وهناك عواقب تنشأ من كل تجربة هى منبع اهتمامنا بما هو موجود فى الحاضر. رأينا أن غياب فنون التنظيم جنح بالبحث عن الأمن إلى ضروب غريبة من العمل، كالطقوس والعبادات وتعلق الفكر بالكشف عن النذر بدلاً من الدلائل على ما سيحدث. ثم تميز تدريجًا عالمان:

أحدهما أعلى يشتمل على القوى التى تحدد مصير الإنسان فى جميع الأمور المهمة، وهذا العالم الذى اهتم به الدين.

أما الآخر، فيشتمل على الأمور الدارجة التى يعتمد فيها الإنسان على مهارته الخاصة وما له من بصيرة يملكها بالفعل. وورثت الفلسفة هذا التقسيم. ثم التمست الطبقة المفكرة دعامة اليقين وضمانه كما يقدمه الدين فى البرهنة الفكرية على حقيقة أمور العالم المثالى.

ومع ذلك زعزعت نتائج العلم الحديث أساس ذلك النظام الذى كان يبدو وطيدًا. وأدت هذه النتائج فى ذاتها إلى أكثر من ذلك فى الاهتمامات وأنواع النشاط الجديد التى ولدت، إلى الفصل بين ما اهتم به الإنسان فى هذه الحياة الدنيا وبين الإيمان بالحقيقة المطلقة التى كانت تنظم حياته الحاضرة فى تحديدها لمصيره الأقصى الأزلى. وتعد مشكلة إعادة التوحيد والتعاون بين معتقدات الإنسان عن العالم الذى يعيش فيه، وبين معتقداته عن القيم والأغراض التى يجب أن توجه سلوكه أعمق مشكلة فى الحياة الحديثة.

أحكام القيمة

عندما تعجز نظريات القيم عن نظريات المعونة الفكرية لصياغة الأفكار والاعتقادات عن القيم المناسبة لتوجيه السلوك، فينبغى أن يملأ هذا الفراغ بوسائل أخرى. فإذا غاب المنهج البصير فهناك التحيز، وضغط الظروف المباشرة، والمصلحة الشخصية ومصلحة الطبقة والعرف والمؤسسات التى نشأت عرضًا فى التاريخ الماضى.

وهذه كلها ليست غائبة، وهى تميل إلى أن تتخذ مكان العقل البصير. وهكذا ينتهى بنا الأمر إلى قضيتنا الأساسية: أحكام القيمة هى أحكام عن شروط الأشياء المحبوبة ونتائجها، أحكام عما يجب أن ينظم تكوين رغباتنا ومحبوباتنا ومتعنا، لأن أى شىء يقرر مصير تكوينها سيحدد الطريق الأساسى لسلوكنا الشخصى والاجتماعى.

تطبيق المنهج العلمى على الإنسانيات

هذا هو المعنى العام لنقل المنهج التجريبى من الميدان الفنى للخبرة الطبيعية إلى الميدان الأوسع للحياة الإنسانية، فنحن نثق بهذا المنهج فى تكوين معتقداتنا عن الأمور التى ليست لها صلة مباشرة بالحياة الإنسانية؛ ولكننا لا نثق به فى الأمور الأخلاقية والسياسية والاقتصادية. وفى الفنون الجميلة توجد دلائل كثيرة على حدوث تغيير، وقد كان مثل هذا التغيير فى الماضى نذيرًا ومبشرًا بتغيرات فى الاتجاهات الإنسانية الأخرى، ولكن بوجه عام تعد فكرة اصطناع المنهج التجريبى فى الشئون الاجتماعية وفى الأمور التى يظن أنها أدومها قيمة وأعلاها عند معظم الناس، نزولاً عن جميع المعايير وكل سلطة منظمة. ولكن من جهة المبدأ لا يعنى المنهج التجريبى الفعل العشوائى الذى يجرى بلا هدف، بل يدل على التوجيه بالأفكار والمعرفة.

العلم والفلسفة

يجدر بنا أن نذكر كلمة أخيرة عن الفلسفة، فهى - شأنها شأن الدين - قد دخلت فى نزاع مع العلوم الطبيعية، أو على الأقل ازداد افتراق طريقها عن طريق العلوم منذ القرن السابع عشر. وأعظم سبب لهذا الشقاق أن الفلسفة زعمت أن وظيفتها معرفة الحقيقة، مما جعلها منافسة للعلوم لا مكملة لها. واندفعت الفلسفة تطلب ضربًا من المعرفة أعلى من المعرفة التى تمدنا بها العلوم. وترتبت على ذلك على الأقل فى صور الفلسفة الأكثر نظامًا، إنها اضطرت إلى مراجعة نتائج العلم لتثبت أنها لا تعنى ما تقول، أو أنها على أية حال تنطبق على عالم من المظاهر بدلاً من انطباقها على تلك الحقيقة العليا التى تتجه إليها الفلسفة.

وفى ظل هذه الظروف لن تجد هذه الفلسفة أنها تعارض العلم، وإنما هى حلقة الوصل، أو ضباط الاتصال كما يقال اليوم، بين نتائج العلم وضروب الأفعال الاجتماعية والشخصية التى بها تتحقق الممكنات ونشقى فى سبيلها. أما الدين الذى ينقطع إلى

الإلهام ويمجد الإحساس بالإمكانات المثالية المتعالية عن الواقع، فسيجد نفسه وقد أوقفه أى كشف علمى عند حده. لأن كل كشف جديد سيفتح بابًا جديدًا. ستجد مثل هذه الفلسفة أمامها ميدانًا واسعًا من النقد. ولكن ذهنها الناقد سينصب على سيطرة التحزب، والمصلحة الضيقة، والعرف والمألوف، والسلطة الصادرة عن مؤسسات منعزلة عن الأهداف الإنسانية التى تخدمها. وهذه الوظيفة السلبية للفلسفة ليست سوء مراقبة عمل الخيال المبدع حين يهدينا إلى الإمكانات الجديدة التى تكشف المعرفة بالواقع عنها، ويلقى بمناهج جديدة لتحقيقها فى مجال الخبرة اليومية للبشر.

الهوامش

أسطورة قصة الخلق

١ ـ أحد أسماء «أيا» إله الأرض والماء.

٢ ـ أو آبائه.

٣ ـ الأعماق.

٤ ـ حيوان خرافى له جسم أسد ورأس وجناحا نسر.

٥ ـ سلاح إله الشمس.

٦ ـ إجابة «أيا ـ نود يمود» غير موجودة فى النص، ومن الواضح أنه لم يكن هناك علاج للموقف لدى (أيا)؛ لأن أنشار يوجه الحديث بعد ذلك إلى «أنو».

٧ ـ المعبودات السماوية.

٨ ـ إله الموت.

٩ ـ المشترى، أكبر الأجرام السماوية.

١٠ ـ ملك آلهة السماوات والأرض.

١١ ـ أيا.

١٢ـ فى هذه الملحمة يقصد بالـ (أنوناكى) آلهة السماء، وهم الـ «أجيجى» عادة والآلهة الأرضيون على السواء، فهم الآلهة جميعًا.

١٣ ـ يوم عيد رأس السنة.

١٤ ـ أى أن ارتفاعه يعدل عمق مياه «أبسو».

١٥ ـ البشر.

١٦ ـ الأرض.

١٧ ـ البشر.

١٨ ـ المسكن العالى.

١٩ ـ قاعة مقدسة فى بابل.

٢٠ ـ البحر.

الوصايا

١ ـ عيلام: البلاد التى تقع الآن فى شمال إيران.

٢ ـ خيتى بن دوارف حكيم عاش فى الفترة الواقعة بين الدولة القديمة والدولة الوسطى.

٣ ـ كل الحكماء المصريين كتبوا حكمهم ومواعظهم التهذيبية فى شكل وصايا لأبنائهم.

٤ ـ كاجمنه: أحد وزراء وقضاة الأسرة السادسة (٢٤٢٠ ـ ٢٢٧٠ ق.م).

٥ ـ الملك حونى: آخر ملوك الأسرة الثالثة التى عاشت فى نحو سنة ٢٩٨٠ ق.م.

٦ ـ «كا»: يستعمل النص كلمة «كا» والتى تدل على شخص الإنسان ذاته وإن الـ «كا» هنا شخصية قوية.

٧ ـ لا يستطيع أن يقومها أحد.

٨ ـ المقصود هنا قاعة الانتظار الملحقة بقاعة الاجتماعات. إن احترام البروتوكول يؤدى إلى «اعتدال مزاج» السيد حيال من يلتزم به. ومن ثم يكون المنصب الذى يُسند إليه من الأهمية بمكان.

٩ ـ حجر «حرست»: العقيق الأحمر. وبسبب لونه الأحمر ارتبط بأفكار الفواجع والجنون.

١٠ ـ وضعها كزوجة وكأم.

١١ ـ إذا أفشى سرًا أو إذا لم يكتم السر.

قصيدة الأيام والأعمال

١ ـ ميثولوجيا: علم الأساطير. وتطلق كذلك على كل مجموعة من الأساطير صدرت عن أمة ما.

٢ ـ زيوس: سيد الأرباب فى أساطير اليونان.

٣ ـ بروميثوس: فى أساطير اليونان، العملاق الذى حمل النار إلى البشر، فعاقبه الإله زيوس بتقييده إلى جبل، وظل حبيس قيوده حتى حرره منها هيراكليس.

٤ ـ ديميتر: فى أساطير اليونان، إلهة القمح والحصاد والثمار.

دستور الفضيلة

١ ـ انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة: كتب غيرت الفكر الإنسانى، صفحة ١٥.

الزيج الصابئ

١ ـ جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى.

٢ ـ نللينو: علم الفلك، تاريخه عند العرب فى القرن الوسطى.

٣ ـ الزيج: لفظ يطلق على الجداول الفلكية القديمة. أصله فارسى.

٤ ـ أى حساب جيوب القسى وإثباتها فى الجداول.

٥ ـ نللينو، كارلو ألفونصو (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨م): مستشرق إيطالى. ولد فى تورينو وتعلم العربية فى جامعتها. ثم عين أستاذًا لها بالمعهد الشرقى ببابل. نشر «الزيج الصابئ» للبتانى. له محاضرات مهمة عن تاريخ علم الفلك عند العرب.

٦ ـ سيديو: خلاصة تاريخ العرب.

٧ ـ تيخو براهى (١٥٤٦ ـ ١٠٦١م): فلكى دانماركى. ساعدت أرصاده الدقيقة للكواكب كبلر على الوصول إلى قوانين حركتها.

٨ ـ المقرّى: نفح الطيب.

٩ ـ أبرخس: عالم الفلك والرياضيات والجغرافيا الإغريقى. نشأ فى جزيرة رودس فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد، كما قام ببعض أرصاده فى مدينة الإسكندرية.

١٠ ـ انظر نللينو: علم الفلك، تاريخه عند العرب.

المناظر

١ ـ (ابن القفطى): إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

٢ ـ (ابن أبى أصيبعة): عيون الإنباء فى طبقات الأطباء.

٣ ـ (السمت): الطريق الواضح. والنقط المتسامتة فى (الهندسة): جملة نقط على استقامة واحدة.

٤ ـ راجع كتاب «طبقات الأطباء» و«إخبار العلماء»، ففيهما أكثر مؤلفات (ابن الهيثم) فى العلوم والإلهيات.

٥ ـ الرواقية: مدرسة فلسفية أسسها زينون (٢٠٠ ق.م) ثم هذبها أتباعه. ويرى الرواقيون أن الحقيقة مادية تسودها قوة توجهها (وهى الله) وما دامت الطبيعة تسير وفق العقل، فمن الحكمة (أن يسير الإنسان وفق الطبيعة).

٦ ـ مصطفى نظيف.

التصريف لمن عجز عن التأليف

١ - جى دى شولياك (١٣٠٠ - ١٣٧٠م): جراح فرنسى. عمل طبيبًا للبابا كليمنت السادس، ثم لاثنين من خلفائه. ألف فى الجراحة كتابًا ظل مرجعًا للأطباء ثلاثة قرون.

٢ - السلعة: ورم غليظ غير ملتصق باللحم يتحرك عند تحركه. وجمعها سلع.

٣ - الحماة: ورم قدر الحمصة يحدث فى الجسم غير ملتصق باللحم.

٤ - المدس: آلة مثل الإبرة الطويلة.

٥ - الزهمى: الدهنى.

رحلة ماجلان

١ - جبل طارق.

٢ - هنريك الرحالة أو الملاح: ابن الملك جوان الأول. ولد فى عام ١٣٩٤ وتوفى فى عام ١٤٦٠م.

٣ - المحيط الأطلنطى.

٤ - فاسكو دى جاما: وصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٨م. أنشأ مستعمرة موزمبيق. شغل منصب نائب الملك بالهند (١٤٦٩ - ١٥٢٤م).

٥ - كان الملوك النصارى فى أوربا يقرون للبابا، رأس الكنيسة المسيحية، بأنه سيد العالم وملك الملوك، وأن حقه واختصاصه أن يتصرف فى مصير الناس أينما كانوا على وجه الأرض!!

٦ - كاليكوت: اسمها اليوم (كوزهيكود)، وهى ميناء بالهند على خليج عمان.

مراجع مختارة

١ ـ أصول الكتب الأحد عشر

٢ ـ الأدب الفرعونى　　د. عطية عامر

٣ ـ الحكم والأمثال عند قدماء المصريين　　محرم كمال

٤ ـ نصوص مقدسة من مصر القديمة　　كلير لالويت

٥ ـ رحلة ماجلان　　ستيفان زفايج

٦ ـ تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية　　د. عامر النجار

٧ ـ من أعلام الطب العربى　　أبو الفتوح التوانسى

٨ ـ العلوم عند العرب　　قدرى حافظ طوقان

٩ ـ تراث العرب العلمى　　قدرى حافظ طوقان

١٠ ـ قصة الأدب فى العالم　　أحمد أمين

١١ ـ مصر والشرق الأدنى القديم　　د. نجيب ميخائيل إبراهيم

١٢ ـ الأساطير الإغريقية　　ب. كوملان

١٣ ـ جون ديوى　　د. أحمد فؤاد الأهوانى

١٤ ـ فلاسفة الشرق　　أ. و. ف. توملين

١٥ ـ من حكمة الصين　　د. محمد عبد الهادى أبو ريدة

١٦ ـ تاريخ الإنسانية　　أحمد حسين

١٧ ـ قصة العلم　　سارتون

١٨ ـ الفكر الصينى من كونفوشيوس إلى ماوتسى تونج　　هـ. ج. كريل

١٩ ـ قصة الحضارة	ول ديورانت
٢٠ ـ شخصيات تاريخية من سقراط إلى راسبوتين	على أدهم
٢١ ـ رواد علم الاجتماع	د. محمد على محمد
٢٢ ـ الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب فى عشرة قرون	سامى اليافى
٢٣ ـ التراث والحضارة	د. نعمات أحمد فؤاد
٢٤ ـ الحضارة الإسلامية	جوستاف جروينباوم
٢٥ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه	د. عبد الحليم منتصر

الفهرس الشامل للأجزاء العشرة

من موسوعة كتب غيرت الفكر الإنسانى

مرتبًا ترتيبًا زمنيًا

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١	كتاب الموتى	كهنة هوليوبولس	٤٥٠٠ ق.م.	٦	٩
٢	ملحمة جلجاميش	من ملاحم العصر البابلى	٣٠٠٠ ق.م	٧	١١
٣	أنشودة النيل	من الأدب المصرى القديم	٣٠٠٠ ق.م	٨	١١
٤	أسطورة قصة الخلق	أسطورة بابلية	٣٠٠٠ ق.م	١٠	١٩
٥	الوصايا	بتاح حتب	٢٧٠٠ ق.م.	١٠	
٦	سانوهى	المصريون القدماء	٢٠٠٠ ق.م	٧	٥٥
٧	شريعة حمورابى	حمورابى	١٧٢٦ ق.م	٦	٢٩
٨	أنشودة التوحيد	إخناتون	١٣٨٠ـ١٣٦٢ق.م	٥	١١
٩	الإلياذة	هوميروس	٩٠٠ ق.م	٣	١٣
١٠	قصيدة الأعمال والأيام	هسيودوس	٧٥٠ ق.م	١٠	٩٧
١١	الأفستا القديمة	زرادشت	٦٥٠ ق.م	٦	٦٣
١٢	الأشعار الغنائية	سافو	٦٠٠ ق.م	٧	٧١
١٣	أسطورة سميراميس	أسطورة آشورية	٦٠٠ ق م	٨	٢٥
١٤	المعلقات	أعظم شعراء العصر الجاهلى	٦٠٠ ـ ٥٥٠ ق.م	٧	٨٥
١٥	دستور الفضيلة	لاو تزى	٥٧٠ ق.م	١٠	١١١
١٦	الكتب الخمسة	كنفوشيوس	٥٥١ ق.م	١	١٥
١٧	الفرس	أسخيلوس	٤٥٠ ق.م	٦	٨٣
١٨	ميديا	يوربيديس	٤٣١ ق.م	٥	٣١
١٩	التاريخ الجامع	هيرودوت	٤٢٧ ق.م	٢	٩
٢٠	الضفادع	أرستوفانيس	٤٠٥ ق.م	٥	٤١

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٢١	حرب البيلوبونيز	ثوكيديوليس	٤٠٤ ق.م	٩	١٠
٢٢	المحاورات	سقراط	٤٠٠ ق.م	٣	٣١
٢٣	ملحمة الرامايانا	والميكى	٤٠٠ ق.م	٨	٣٥
٢٤	الجمهورية	أفلاطون	٤٠٠ ق.م	١	٣٩
٢٥	أوديب ملكًا	سوفوكليس	٤٠٠ ق.م	٤	١٠
٢٦	الموسوعة الأبقراطية	أبقراط	٣٧٥ ق.م	٣	٥٩
٢٧	الأناباسيس أو حملة قورش	كسينوفون	٣٧٠ ق.م	٩	٣٠
٢٨	خطب ديموستين	ديموستين	٣٦٠ ق.م	٨	٥٩
٢٩	فن الشعر	أرسطوطاليس	٣٣٥ ق.م	٢	٣٣
٣٠	أصول الهندسة	إقليدس	٣٠٠ ق.م	١	٦٣
٣١	كتاب الجغرافيا	سترابون	٦٥ ق.م	٧	١١٩
٣٢	عن الصداقة	شيشرون	٤٤ ق.م	٣	٧١
٣٣	الإنيادة	فرجيل	١٧ ق.م	٤	٢٥
٣٤	مصنفات جالينوس الطبية	جالينوس	١٥٠ ـ ٢٠٠ م	٥	٦١
٣٥	التأملات	أوريليوس	١٧٠ م	١٠	١٣٤
٣٦	كليلة ودمنة	ابن المقفع	٧٥٠ م	٣	٩٩
٣٧	العين	الخليل بن أحمد	٧٨٠ م	٣	١٢٣
٣٨	الموطأ	مالك بن أنس	٧٨٥م	٤	٤٥
٣٩	ديوان أبى نواس	أبو نواس	٧٨٥ ـ ٨١٤م	٨	٨١
٤٠	المحاورات	باركلى	٨٠٠ م	٦	١٧
٤١	الرسالة	الشافعى	٨١٥م	٣	١٤٣
٤٢	ملحمة عنترة بن شداد	من الأدب الشعبى	٨٣٠م	٩	٥٦
٤٣	صحيح البخارى	أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل	٨٢٠ ـ ٨٦٠م	٧	١٣٥
٤٤	البخلاء	الجاحظ	٨٦٤م	٧	١٦٣
٤٥	الرسائل الفلسفية	الكندى	٨٢٥ ـ ٨٦٦م	٦	١١٥
٤٦	مصنفات جابر بن حيان الكيميائية	جابر بن حيان	٨٥٠ ـ ٩١٠م	٧	٢٠٣
٤٧	الأغانى	الأصفهانى	٨٨٥ م	٣	١٦٥
٤٨	كتاب الزهرة	ابن داود الظاهرى	٨٩٥م	٨	٩٩

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٤٩	الجامع لصناعة الطب (الحاوى)	الرازى	٩٠٠م	٥	٨٣
٥٠	ديوان المتنبى	أبو الطيب المتنبى	٩٠٠ ـ ٩٦٥م	٥	١٠٥
٥١	فلسفة جحا	من التراث الشعبى	٩٠٠م	٩	٧٦
٥٢	الزيج الصابئ	البتانى	٩١١م	١٠	١٥٢
٥٣	تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	٩٢٠م	٥	١٤٣
٥٤	العقد الفريد	ابن عبد ربه	٩٣٠م	٤	٦٣
٥٥	إحصاء العلوم	الفارابى	٩٤٠م	٣	١٨٣
٥٦	مروج الذهب	المسعودى	٩٤٧م	٨	١٣٣
٥٧	الإمتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى	٩٨٠م	٦	١٤٣
٥٨	رسائل إخوان الصفا	إخوان الصفا	٩٨٣م	٥	١٦٩
٥٩	مقامات بديع الزمان	بديع الزمان الهمذانى	١٠٠٠م	٨	١٥١
٦٠	القانون فى الطب	ابن سينا	١٠١٠م	١	٧٥
٦١	الشاهنامة	الفردوسى	١٠١٠م	٥	١٩٣
٦٢	المناظر	ابن الهيثم	١٠٢٠م	١٠	١٧٢
٦٣	تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق	ابن مسكويه	١٠٢١م	٢	٥٥
٦٤	طوق الحمامة فى الألفة والإلاف	ابن حزم	١٠٢٦م	٦	١٦٧
٦٥	القانون المسعودى فى الحياة والنجوم	البيرونى	١٠٣٠م	٣	٢٠٧
٦٦	رسالة الغفران	أبو العلاء المعرى	١٠٣١م	٢	٧٣
٦٧	الرباعيات	عمر الخيام	١٠٨٠م	٢	٩٧
٦٨	إحياء علوم الدين	الغزالى	١١٠٠م	٢	١١٩
٦٩	التصريف لمن عجز عن التأليف	الزهراوى	١١٠٠م	١٠	١٩٨
٧٠	نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	الإدريسى	١١٥٤م	٥	٢١٧
٧١	حى بن يقظان	ابن طفيل	١١٨٤م	٦	١٩١
٧٢	الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة	ابن رشد	١١٨٥م	٧	٢٢٥

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
٧٣	معجم البلدان	ياقوت الحموى	١٢٠٠م	٥	٢٣٥
٧٤	الفتوحات	ابن عربى	١٢٣٨م	٢	١٣٩
٧٥	ديوان المثنوى	جلال الدين بن الرومى	١٢٧٣م	٧	٢٤٧
٧٦	شرح تشريع القانون	ابن النفيس	١٢٨٠م	٣	٢٣٣
٧٧	تحفة النظار وغرائب الأمصار	ابن بطوطة	١٣٢٤ - ١٣٥٤م	٦	٢١١
٧٨	الديكاميرون	بوكاشيو	١٤٠٠م	٨	١٧٣
٨٩	المقدمة	ابن خلدون	١٤٠٠م	١	١٥
٨٠	حياة الحيوان الكبرى	الدميري	١٤٠٠م	٥	٢٥٧
٨١	الكوميديا الإلهية	دانتى	١٤٧٢م	٤	٨١
٨٢	الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد	ابن ماجد	١٤٩٠م	٧	٢٦٧
٨٣	الأمير	مكيافيلى	١٥١٣م	١	١١٧
٨٤	الرحلة حول العالم	ماجلان	١٥٢٠م	١٠	٢١٢
٨٥	حركات الكرات السماوية	كوبرنيكوس	١٥٤١م	٥	٢٧٧
٨٦	دون كيشوت	سرفانتيس	١٦٠٥م	٤	٩٩
٨٧	مسرحيات شكسبير	شكسبير	١٥٩٠ - ١٦١٦م	٣	٢٥١
٨٨	الأورجانون الجديد والأوهام الأربعة	فرنسيس بيكن	١٦٢٠م	٧	٢٨٥
٨٩	حركة القلب والدم	وليم هارفى	١٦٢٨م	٥	٢٩٥
٩٠	التأملات	ديكارت	١٦٤١م	١	١٤٣
٩١	الفردوس المفقود	جون ملتون	١٦٦٧م	٦	٢٣٥
٩٢	البخيل	موليير	١٦٦٨م	٥	٣١٣
٩٣	بيرينيس	جاك راسين	١٦٧١م	٩	١١٩
٩٤	علم الأخلاق	إسبينوزا	١٦٧٧م	٢	١٥٧
٩٥	ألف ليلة وليلة	مجهولة المؤلف	مجهولة التاريخ	٢	١٨١
٩٦	المبادئ	نيوتن	١٦٨٧م	١	١٦٣
٩٧	مبحث فى العقل الإنسانى	لوك	١٦٩٠م	٦	٢٥٣
٩٨	الحكايات	لافونتين	١٦٩٤م	٧	٣٠٣
٩٩	تحليل الجمال	وليم هوجارث	١٧٠٤م	٧	٣١٩

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١٠٠	روبنسون كروزو	ديفو	١٧١٥م	٣	٢٧٩
١٠١	رحلات جليفر	سويفت	١٧٢٦م	٨	١٩٧
١٠٢	الرسائل	فولتير	١٧٣٢م	٨	٢١١
١٠٣	روح القوانين	مونتسكيو	١٧٤٨م	١	١٧٧
١٠٤	دائرة المعارف الكبرى	ديدرو	١٧٥١م	٢	١٩٧
١٠٥	العقد الاجتماعى	جان جاك روسو	١٧٦٢م	٢	٢٢٧
١٠٦	ثروة الأمم	آدم سميث	١٧٧٦م	١	٢٠١
١٠٧	بول وفرجينى	برنارد سان بيير	١٧٨٧م	٩	١٤٢
١٠٨	نقد العقل	كانط	١٧٨٨م	٩	١٦٦
١٠٩	رينيه	شاتوبريان	١٨٠٢م	٨	٢٣٥
١١٠	فاوست	جوته	١٨٢٥م	٤	١١٧
١١١	فى قانون الإسكان	مالتوس	١٨٣٠م	٦	٢٧٥
١١٢	فلسفة التاريخ	هيجل	١٨٣٢م	٢	٢٧١
١١٣	فى التربية الجمالية للإنسان	شيلر	١٨٣٧م	٢	٢٥١
١١٤	الأبطال	توماس كارلاليل	١٨٤١م	٩	١٩٤
١١٥	الكون	هومبولت	١٨٤٥م	٢	٣٠٣
١١٦	كوخ العم توم	هارييت بيتشر ستو	١٨٥٥م	٧	٣٤١
١١٧	مدام بوفارى	فلوبير	١٨٥٧م	٩	٢١٨
١١٨	أصل الأنواع	داروين	١٨٥٩م	١	٢٢٣
١١٩	عن الحرية	جون ستيوارت مل	١٨٥٩	٤	١٣٣
١٢٠	الإخوة كرامازوف	دُستويفسكى	١٨٦٠م	٦	٢٦٧
١٢١	الحرب والسلام	ليو تولستوى	١٨٦٤م	٤	١٥٣
١٢٢	بيرجينت	إبسن	١٨٦٧م	٨	٢٥١
١٢٣	رأس المال	كارل ماركس	١٨٦٧م	١	٢٤٣
١٢٤	تحرير المرأة	قاسم أمين	١٨٩٤م	٤	١٦٩
١٢٥	قواعد المنهج فى علم الاجتماع	دور كايم	١٨٩٥م	٤	١٩٥
١٢٦	أشعار طاغور	طاغور	١٨٩٠-١٩٤١م	٤	٢٠٩
١٢٧	رسالة التوحيد	محمد عبده	١٨٩٧م	٦	٣٢٥
١٢٨	الشوقيات	أحمد شوقى	١٩٠٠-١٩٣٢م	٤	٢٣١
١٢٩	تفسير الأحلام	سيجموند فرويد	١٩٠٠م	٤	٢٥٩
١٣٠	النظرية النسبية	أينشتين	١٩٠٥م	١	٢٥٩

م	الكتاب	المؤلف	السنة	الجزء	الصفحة
١٣١	الإدارة العلمية	فريدريك تايلور	١٩١١م	٨	٢٧٩
١٣٢	تدهور الغرب	اشبنجلر	١٩١٨م	٥	٣٢٥
١٣٣	البحث عن اليقين	جون ديوى	١٩٢٩م	١٠	٢٤٢
١٣٤	رسالة الخلود	محمد إقبال	١٩٣٢م	٩	٢٣٨

المؤلف فى سطور

- كاتب صحفى بدار الهلال الصحفية.
- عضو نقابة الصحفيين.
- عضو اتحاد الكُتَّاب والأدباء.
- كتب فى عدة جرائد ومجلات مصرية وعربية، منها:
  - مجلات (الهلال - المصور - حواء - الكواكب - طبيبك الخاص)... بمصر.
  - مجلة الرابطة - جريدة العالم الإسلامى .. عن رابطة العالم الإسلامى بالسعودية.
- حصل على الميدالية الذهبية، وشهادة التقدير فى مهرجان القراءة للجميع من السيدة سوزان مبارك قرينة رئيس جمهورية مصر العربية؛ تقديرًا لإثرائه المكتبة العربية بمؤلفاته الفكرية المتميزة.

المؤلفات التى صدرت له:

- «موسوعة الفكر الإنسانى» فى عشرة أجزاء (أربعة مجلدات).. صدرت بالهيئة المصرية العامة للكتاب فى سلسلة الألف كتاب الثانى.
- «فاتنات وأفاعى».. صدر فى سلسلة كتاب الهلال عن مؤسسة دار الهلال الصحفية.
- «فاتنات الدنيا وأفاعى الزمان».. والكتاب طبعة جديدة للكتاب السابق بعد أن زودت فصوله - صدر عن دار الكتاب العربى، القاهرة/ دمشق.
- «عظماء ومشاهير معاقون غيروا مجرى التاريخ».. صدر عن دار الكتاب العربى، القاهرة/ دمشق.
- «حصاد الفكر الإسلامى» عشرة كتب إسلامية غيرت الفكر الإسلامى (الجزء الأول)، صدر عن دار الكتاب العربى، القاهرة/ دمشق.
- «كتب غيرت الفكر الإنسانى».. صدر فى سلسلة مكتبة الأسرة بالهيئة المصرية العامة للكتاب.
- «موسوعة عباقرة الحضارة العلمية فى الإسلام».
- «المدينة المنورة ودولة الإسلام الأولى».
- «المساجد الجامعة فى الإسلام التى ساهمت فى تكوين الحضارة الإسلامية».
- «الأمن والسلام فى الإسلام».

المؤلفات التى لم تصدر بعد:

- «موسوعة الخالدين من أعلام الفكر» (مجلدان).
- «الفاروق عمر بن الخطاب وأثره فى تقديم الفكر الإنسانى».
- «كتب هزت وطنًا وكتب أحدثت ضجة».
- «مع الأئمة الأربعة المجتهدين عبر الزمان».
- «معالم الطريق لتربية الناشئين.. التربية المثالية فى الإسلام».
- «مكة المكرمة .. مهبط الوحى».

صدر فى هذا المشروع(*)

- **أولاً: الموسوعات والمعاجم**

ليونارد كوتريل، **الموسوعة الأثرية العالمية**
وليام بيتر، **معجم التكنولوجيا الحيوية**
ج. كارفيل، **تبسيط المفاهيم الهندسية**
ب. كوملان، **الأساطير الإغريقية والرومانية**
و.د. هاملتون وآخرون، **المعجم الجيولوجى المصور فى المعادن والصخور والحفريات**
حسام الدين زكريا، **المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج١،ج٢)**
خيرية البشلاوى، **معجم المصطلحات السينمائية**
دونالد نيكول، **معجم التراجم البيزنطية**

- **ثانيًا: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر**

د.محمد نعمان جلال، **حركة عدم الانحياز فى عالم متغير**
إريك موريس،آلان هو، **الإرهاب**
ممدوح عطية، **البرنامج النووى الإسرائيلى**
د. لينوار تشامبرز رايت، **سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر**
إزرا .ف. فوجل، **المعجزة اليابانية**
د.السيد نصر السيد، **إطلالات على الزمن الآتى**
بول هاريسون، **العالم الثالث غدًا**
أقطاب العلماء الأمريكيين، **مبادرة الدفاع الاستراتيجى: حرب الفضاء**
و. مونتجمرى وات، **الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر**
بادى أونيمود، **أفريقيا الطريق الآخر**
فانس بكارد، **إنهم يصنعون البشر (٢ج)**
مارتن فان كريفلد، **حرب المستقبل**
ألفين توفلر، **تحول السلطة (٢ج)**
ممدوح حامد عطية، **إنهم يقتلون البيئة**
د.السيد أمين شلبى، **جورج كينان**
يوسف شرارة، **مشكلات القرن الحادى والعشرين والعلاقات الدولية**
د. السيد عليوة، **إدارة الصراعات الدولية**
د. السيد عليوة، **صنع القرار السياسى**
جرج كاشمان، **لماذا تنشب الحروب(٢ج)**
إيمانويل هيمان، **الأصولية اليهودية**
آلان أنترمان، **اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)**
د. ممدوح عطية وأخرون، **البرنامج النووى الإيرانى والمتغيرات فى أمن الخليج**
أنجيلو كودفيلا، **المخابرات وفن الحكم**
بريدراج ماتفيجيفتش، **تراتيل متوسطية**

- **ثالثًا: العلوم والتكنولوجيا**

ميكائيل ألبى، **الانقراض الكبير**
فيرنر هيزنبرج، **الجزء والكل: محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية**
فريد هويل، **البذور الكونية**
ويليام بينز، **الهندسة الوراثية للجميع**
د. جوهان دورشنر، **الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد**
إسحق عظيموف، **الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)**

(*) قائمة مصنفة وموجزة بالكتب التى صدرت فى مشروع الألف كتاب الثانى، ولمزيد من البيانات يمكن الرجوع إلى قائمة المشروع بموقع الهيئة المصرية العامة للكتاب **WWW.egyptianbook.org**

روبرت لافور، **البرمجة بلغة السى باستخدام تيربوسى (٢ج)**
إدوارد إيه فايجينباوم،**الجيل الخامس للحاسوب**
د.محمود سرى طه، **الكمبيوتر فى مجالات الحياة**
د. مصطفى عنانى، **الميكروكمبيوتر**
ى.رادو نسكاياى،**الإلكترونيات والحياة الحديثة**
جلال عبد الفتاح، **الكون ذلك المجهول**
إيفرى شاتزمان، **كوننا المتمدد**
فرد س. هيس، **تبسيط الكيمياء**
كاتى ثير، **تربية الدواجن**
د. محمد زينهم، **تكنولوجيا فن الزجاج**
لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة **والهندسة الوراثية بالكاريكاتير**
جينا كولاتا، **الطريق إلى دوللى**
دور كاس ماكلينتوك، **صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا**
إسحق عظيموف، **أفكار العلم العظيمة**
د. مصطفى محمود سليمان، **الزلازل**
بول دافيز، **الدقائق الثلاث الأخيرة**
ويليام هـــ .. ماثيوز، **ما هى الجيولوجيا؟**
إسحق عظيموف، **العلم وآفاق المستقبل**
ب.س. ديفيز، **المفهوم الحديث للمكان والزمان**
د. محمود سرى طه، **الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة**
بانش هوفمان، **آينشتين**
زافيلسكى ف.س.، **الزمن وقياسة**
ر.ج.فوربس، **تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ج)**
د. فاضل أحمد الطائى، **أعلام العرب فى الكيمياء**
رولاند جاكسون، **الكيمياء فى خدمة الإنسان**
إبراهيم القرضاوى، **أجهزة تكييف الهواء**
ديفيد ألدرتون، **تربية أسماك الزينة**
أندريه سكوت، **جوهر الطبيعة**
إيجور إكيموشكين، **الإيثولوجى**
بارى باركر، **السفر فى الزمان الكونى**
ديمترى ترايفونوف، **ظلال الكيمياء**
بول ديفز، جونز جريبين، **أسطورة المادة**
جيفرى ماوسايف ماسون، **حين تبكى الأفيال**
ليونارد كول، **السلاح الحادى عشر**
و. جراهام ريتشاردز، **أسرار الكيمياء**
د. زين العابدين متولى، **وبالنجم هم يهتدون**
د.كامل زكى حميد،**الاستنساخ قنبلة بيولوجية**
فلاديمير سميلجا، **النسبية والإنسان**
د. محمد فتحى عوض الله، **رحلات جيولوجية فى صحراء مصر الشرقية**
ليونيد بونوماريف، **الاحتمالات المثيرة للنظرية الكمية**

- **رابعًا: الاقتصاد**

ديفيد وليام ماكدويل، **مجموعات النقود (صيانتها، تصنيفها، عرضها)**
د. نورمان كلارك، **الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا**
سامى عبد المعطى، **التخطيط السياحى فى مصر**
جابر الجزار، **ماستريخت والاقتصاد المصرى**
ولت ويتمان روستو، **حوار حول التنمية الاقتصادية**
فيكتور مورجان، **تاريخ النقود**
ليستر ثورو، **مستقبل الرأسمالية**
د. ناصر جلال، **حقوق الملكية الفكرية**

- **خامسًا: مصر عبر العصور**

محرم كمال، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**
فرانسوا ديماس، **آلهة مصر**
سيريل ألدريد، **إخناتون**
موريس بيرابر، **صناع الخلود**

بكنت أ. كتشن، **رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار**
ألن شورتر، **الحياة اليومية فى مصر القديمة**
ونفرد هولمز، **كانت ملكة على مصر**
جاك كرابس جونيور، **كتابة التاريخ فى مصر**
نفتالى لويس، **مصر الرومانية**
عبده مباشر، **البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ -١٩٧٣)**
د. السيد طه أبو سديرة، **الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية**
جابريل باير، **تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة**
عاصم محمد رزق، **مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية**
ت.ج.هـ.جيمز، **كنوز الفراعنة**
حسن كمال، **الطب المصرى القديم**
أ.أ.س. إدواردز، **أهرام مصر**
سومرز كلارك، **الآثار القبطية فى وادى النيل**
كريستيان ديروش نوبلكور، **المرأة الفرعونية**
بيل شول وأدبنيت، **القوة النفسية للأهرام**
جيمس هنرى برستيد، **تاريخ مصر**
د. بيارد دودج، **الأزهر فى ألف عام**
أ. سبنسر، **الموتى وعالمهم فى مصر القديمة**
الفريد ج. بتلر، **الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)**
روز أليندم، **الطفل المصرى القديم**
ج. و. مكفرسون، **الموالد فى مصر**
جون لويس بوركهارت، **العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية**
سوزان راتييه، **حتشبسوت**
مرجريت مرى، **مصر ومجدها الغابر**
أولج فولكف، **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**
د. محمد أنور شكرى، **الفن المصرى القديم**
ت.ج. جيمز، **الحياة أيام الفراعنة**
ايفان كونج، **السحر والسحرة عند الفراعنة**

تشارلز نيمس، **طيبة (آثار الأقصر)**
رندل كلارك، **الرمز والأسطورة فى مصر القديمة**
ديمترى ميكس، **الحياة اليومية للآلهة الفرعونية**
محمد عبد الحميد بسيونى، **بانوراما فرعونية**
حمدى عثمان، **هؤلاء حكموا مصر**
ميكل ونتر، **المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى**
بربارة واترسون، **أقباط مصر**
إيريك هورنونج، **فكرة فى صورة**
بيير جرانديه، **رمسيس الثالث**
محسن لطفى السيد، **أساطير معبد أدفو**
د. نبيل عبيد، **الطب المصرى فى عصر الفراعنة**

- **سادسًا: الكلاسيكيات**

جاليليو جاليليه، **حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)**
أبو القاسم الفردوسى، **الشاهنامة (٢ج)**
إدوارد جيبون، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ج)**
ناصر خسرو علوى، **سفر نامة**
فيليب عطية، **ترانيم زرادشت**
جورج جاموف، **بداية بلا نهاية**
د.رمسيس عوض، **أبرز ضحايا محاكم التفتيش**

- **سابعًا: الفن التشكيلى والموسيقى**

عزيز الشوان، **الموسيقى تعبير نغمى ومنطق**
ألويز جرايتر، **موتسارت**
شوكت الربيعى، **الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى**
ليوناردو دافنشى، **نظرية التصوير**

د. غبريان وهبه، **أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى**
روبين جورج كولنجوود، **مبادئ الفن**
مارتن جك، يوهان **سباستيان باخ**
ميخائيل شتيجمان، **فيفالدى**
هيربرت ريد، **التربية عن طريق الفن**
أدامز فيليب، **دليل تنظيم المتاحف**
حسام الدين زكريا، **أنطون بروكنر**
جيمس جينز، **العلم والموسيقى**
هوجولا يختنتريت، **الموسيقى والحضارة**
محمد كمال إسماعيل، **التحليل والتوزيع الأوركسترالى**
د. صالح رضا، **ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر**
إدموندو سولمى، **ليوناردو**
سيونايد ميرى روبرتسون، **الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة**

- **ثامنًا: الحضارات العالمية**

جاكوب برونوفسكى، **التطور الحضارى للإنسان**
س.م. بورا، **التجربة اليونانية**
جوستاف جرونيباوم، **حضارة الإسلام**
أ.د. جرنى، **الحيثيون**
ل. ديلابورت، **بلاد ما بين النهرين**
ج. كونتنو، **الحضارة الفينيقية**
جوزيف نيدهام،**تاريخ العلم والحضارة فى الصين**
ستيفن رانسيمان، **الحضارة البيزنطية**
سبتينو موسكاتى، **الحضارات السامية**

- **تاسعًا: التاريخ**

جوزيف داهموس، **سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى**
هنرى بيرين، **تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى**
أرنولد توينبى، **الفكر التاريخى عند الإغريق**
بول كولز، **العثمانيون فى أوروبا**
جوناثان ريلى سميث، **الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية**
د. بركات أحمد، **محمد واليهود**
ستيفن أوزمنت،**التاريخ من شتى جوانبه(٣ج)**
و. بارتولد، **تاريخ الترك فى آسيا الوسطى**
فلاديمير تيسمانيانو، **تاريخ أوروبا الشرقية**
د.ألبرت حورانى،**تاريخ الشعوب العربية(٢ج)**
نويل مالكوم، **البوسنة**
جارى.ب. ناش، **الحمر والبيض والسود**
أحمد فريد رفاعى، **عصر المامون (٢ج)**
آرثر كيستلر، **القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم**
ناجاى متشيو، **الثورة الإصلاحية فى اليابان**
محمد فؤاد كوبريلى، **قيام الدولة العثمانية**
د. أبرار كريم الله، **من هم التتار؟**
ستيفن رانسيمان، **الحملات الصليبية**
آلبان ويدجرى، **التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)**
جوسيبى دى لونا، **موسولينى**
جوردون تشيلد، **تقدم الإنسانية**
هـ.ج. ولز، **معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)**
هـ. سانت موس، **ميلاد العصور الوسطى**
يوهان هويزنجا، **اضمحلال العصور الوسطى**
هـ.ج. ويلز، **موجز تاريخ العالم**
لورد كرومر، **الثورة العرابية**
و. مونتجمرى وات، **محمد فى مكة**
ألبرت براجو، **ثورات أمريكا الإسبانية**

- **عاشرًا: الجغرافيا والرحلات**

ت.و. فريمان، **الجغرافيا فى مائة عام**
ليستردیل رای، **الأرض الغامضة**
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
إميليا إدواردز، **رحلة الألف ميل**
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)

رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س. هوارد، **أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا**
إريك أكسيلون، **أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا**
وليم مارسدن، **رحلات ماركو بولو (٣ج)**
د. مصطفى محمود سليمان، **رحلة فى أرض سبأ**

- **حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس**

جون بورر، **الفلسفة وقضايا العصر (٣ج)**
سوندراى، **الفلسفة الجوهرية**
جون لويس، **الإنسان ذلك الكائن الفريد**
سدنى هوك، **التراث الغامض: ماركس والماركسيون**
إدوارد دو بونو، **التفكير المتجدد**
رونالد دافيد لانج، **الحكمة والجنون والحماقة**
د. توماس أ. هاريس، **التوافق النفسى: تحليل المعاملات الإنسانية**
د. أنور عبد الملك، **الشارع المصرى والفكر**
نيكولاس ماير، **شارلوك هولمز يقابل فرويد**
أنطونى دى كرسبنى، **أعلام الفلسفة المعاصرة**
جين وروبرت هاندلى،**كيف تتخلصين من القلق؟**
هـ ج. كريل، **الفكر الصينى**
د. السيد نصر السيد، **الحقيقة الرمادية**
برتراند راسل، **السلطة والفرد**
مارجريت روز، **ما بعد الحداثة**
كارل بوبر، **بحثا عن عالم أفضل**
ريتشارد شاخت، **رواد الفلسفة الحديثة**
جوزيف داهموس، **سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى**
د. روجر ستروجان، **هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟**
إريك برن، **الطب النفسى والتحليل النفسى**
بيرتون بورتر، **الحياة الكريمة (٢ج)**
فرانكلين ل. باومر، **الفكر الأوربى الحديث (٤ج)**
هنرى برجسون، **الضحك**
أرنست كاسيرر، **فى المعرفة التاريخية**
و. مونتجمرى وات، **القضاء والقدر**
إدوارد دو بونو، **التفكير العملى**

- **ثانى عشر: العلوم الاجتماعية**

د. محيى الدين أحمد حسين، **التنشئة الأسرية والأبناء الصغار**
م. و ثرنج، **ضمير المهندس**
رايموند وليامز، **الثقافة والمجتمع**
روى روبرتسون، **الهيروين والإيدز**
بيتر لورى، **المخدرات حقائق نفسية**
د. ليو بوسكاليا، **الحب**
برنسلاو مالينوفسكى، **السحر والعلم والدين**
بيتر ر. داى ، **الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى**
بيل جيرهارت، **تعليم المعوقين**
أرنولد جزل، **الطفل من الخامسة إلى العاشرة**
رونالد د. سمبسون، **العلم والطلاب والمدارس**
كارل ساجان، **عالم تسكنه الشياطين**

- **ثالث عشر: المسرح**

لويس فارجاس، **المرشد إلى فن المسرح**
برونو ياشينسكى، **حفلة مانيكان**
جلال العشرى، **فكرة المسرح**
جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوى **مختارات من المسرح العالمى**
د. عبد المعطى شعراوى، **المسرح المصرى المعاصر: أصله وبداياته**

توماس ليبهارت، **فن المايم والبانتومايم**
زيجمونت هبنر، **جماليات فن الإخراج**
أوجين يونسكو، **الأعمال الكاملة (٢ج)**
آلان ماكدونالد، **مسرح الشارع**
نك كاى، **ما بعد الحداثية والفنون الأدائية**
بيتر بروك، **التفسير والتفكيك والإيديولوجية**
أندرية فيلبيه، **الممثل الكوميدى**
لى ستراسبرج، **تدريب الممثل**
جلال جميل محمد، **مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى**
أيوجينيو باربا، **زورق من الورق**

- **رابع عشر: الطب والصحة**

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، **وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء**
د. جون شندلر، **كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة**
د. ناعوم بيتروفيتش، **النحل والطب**
م.هـ. كنج، **التغذية فى البلدان النامية**

- **خامس عشر: الآداب واللغة**

برتراند رسل، **أحلام الأعلام وقصص أخرى**
ألدس هكسلى، **نقطة مقابل نقطة**
جول ويست، **الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية**
أنور المعداوى، **على محمود طه: الشاعر والإنسان**
جوزيف كونراد، **مختارات من الأدب القصصى**
تاجور شين ين بنج وآخرون، **مختارات من الآداب الآسيوية**
محمود قاسم، **الأدب العربى المكتوب بالفرنسية**
سوريال عبد الملك، **حديث النهر**
د. رمسيس عوض، **الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها**
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، **نظرية الأدب المعاصر**
نادين جورديمر وآخرون، **سقوط المطر وقصص أخرى**
رالف ئى ماتلو، **تولستوى**
والتر ألن، **الرواية الإنجليزية**
هادى نعمان الهيتى، **أدب الأطفال**
مالكوم برادبرى، **الرواية اليوم**
لوريتو تود، **مدخل إلى علم اللغة**
د. جابرييل جارسيا ماركيز، **سيمون بوليفار أو (الجنرال فى المتاهة)**
ديلاسى أوليرى، **الفكر العربى ومكانه فى التاريخ**
د. على عبد الرءوف البمبى، **مختارات من الشعرالإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)**
ب. إفور إيفانز، **موجز تاريخ الدراما الإنجليزية**
ج. س. فريزر، **الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)**
جورج ستاينر، **بين تولستوى ودستويفسكى (٢ج)**
ديلان توماس، **مجموعة مقالات نقدية**
فيكتور برومبير، **ستندال (مقالات نقدية)**
فيكتور هوجو، **رسائل وأحاديث من المنفى**
يانكو لافرين، **الرومانتيكية والواقعية**
د. نعمة رحيم الغزاوى، **أحمد حسن الزيات كاتبًا وناقداً**
ف. برميلوف، **دستويفسكى**
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، **الدليل الببليوجرافى: روائع الآداب العالمية (ج١)**
محسن جاسم الموسوى، **عصر الرواية: مقال فى النوع الأدبى**
هنرى باربوس، **الجحيم**

ميجيل دى ليبس، **الفئران**
روبرت سكولز وآخرون، **آفاق أدب الخيال العلمى**
يانيس ريتسوس، **البعيد (مختارات شعرية)**
ب. إيفور ايفانس، **مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى**
فخرى أبو السعود، **فى الأدب المقارن**
سليمان مظهر، **أساطير من الشرق**
ف. ع. أدينكوف، **فن الأدب الروائى عند تولستوى**
د. صفاء خلوصى، **فن الترجمة**
بلدوميرو ليلو وآخرون، **قصص من أمريكا اللاتينية**
بورخيس، **مختارات الفانتازيا والميتافيزيقا**
مايكل كانينجهام، **الساعات**

- **سادس عشر: الإعلام**

فرانسيس ج. برجين، **الإعلام التطبيقى**
بيير ألبير، **الصحافة**
هربرت ثيلر، **الاتصال والهيمنة الثقافية**

- **سابع عشر: السينما**

هاشم النحاس، **الهوية القومية فى السينما العربية**
ج. دادلى أندرو، **نظريات الفيلم الكبرى**
روى آرمز، **لغة الصورة فى السينما المعاصرة**
إدوارد مرى، **عن النقد السينمائى الأمريكى**
جوزيف م. بوجز، **فن الفرجة على الأفلام**
سعيد شيمى، **التصوير السينمائى تحت الماء**
دوايت سوين، **كتابة السيناريو للسينما**
هاشم النحاس، **نجيب محفوظ على الشاشة**
يوجين فال، **فن كتابة السيناريو**
دانييل أريخون، **قواعد اللغة السينمائية**
كريستيان ساليه، **السيناريو فى السينما الفرنسية**
تونى بار، **التمثيل للسينما والتليفزيون**
آلان كاسبيار، **التذوق السينمائى**
بيتر نيكولز، **السينما الخيالية**
بول وارن، **خفايا نظام النجم الأمريكى**
دافيد كوك، **تاريخ السينما الروائية**
هاشم النحاس، **صلاح أبو سيف (محاورات)**
جان لويس بورى وآخرون، **فى النقد السينمائى الفرنسى**
محمود سامى عطاالله، **الفيلم التسجيلى**
ستانلى جيه سولومون، **أنواع الفيلم الأمريكى**
جوزيف وهارى فيلدمان، **دينامية الفيلم**
قدرى حفنى، **الإنسان المصرى على الشاشة**
مونى براح، **السينما العربية من الخليج إلى المحيط**
حسين حلمى المهندس، **دراما الشاشة: بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)**
جان بول كولين، **السينما الإثنوجرافية سينما الغد**
لويس هيرمان، **الأسس العملية لكتابة السيناريو للسينما والتليفزيون**
موريس إدجار كواندرو، **نظرات فى الأدب الأمريكى**
جوديث ويستون، **توجيه الممثل فى السينما والتليفزيون**
أحمد الحضرى، **تاريخ السينما فى مصر ج٢**

- **ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنسانى**

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ١٠ أجزاء.

- **تاسع عشر: الأعمال المختارة**

يوهان هويزنجا، **أعلام وأفكار**
د.مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى**
ت. كويلر ينج، **الشرق الأدنى**
جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، **رجال عاشوا للعلم**
ابن زنبل الرمال ، **آخرة المماليك**
د.محمد عوض محمد ، **نهر النيل**
آرثر كريستنسن، **إيران فى عهد الساسانيين**
أوجست دييس، **أفلاطون**
يعقوب فام، **البراجماتية**
بلوطرخوس، **العظماء**
آدم متز، **الحضارة الإسلامية (٢ج)**
تشارليز ديكنز، **مذكرات بكويك جـ١**
روبرت دييوجراند وآخرون ، **مدخل إلى علم لغة النص**
محمد كرد على، **بين المدنية العربية والأوربية**
ولفرد جوزف دللى، **العمارة العربية بمصر**

مكتبات البيع والتوزيع
التابعة للهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

- مكتبة المعرض الدائم
العنوان: كورنيش النيل ــ رملة بولاق ــ القاهرة
ت: سويتش/٥٧٧٥٣٦٧
- مكتبة مركز الكتاب الدولى
العنوان: ٣٠ ش٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٥٧٨٧٥٤٨
- مكتبة ٢٦ يوليو (مركز الكتاب العربى)
العنوان : ١٩ ش ٢٦ يوليو ــ القاهرة
ت: ٥٧٨٨٤٣١
- مكتبة شريف
العنوان: ٣٦ ش شريف ــ القاهرة
ت: ٣٩٣٩٦١٢
- مكتبة عرابى
العنوان: ٥ ميدان عرابى ــ القاهرة
ت: ٥٧٤٠٠٧٥
- مكتبة الحسين
العنوان: ٥ شارع الباب الأخضر ــ الحسين ــ القاهرة
ت: ٥٩١٣٤٤٧
- مكتبة المبتديان
العنوان: ١٣ ش المبتديان ــ السيدة زينب أمام دار الهلال
- مكتبة ١٥ مايو
العنوان: مدينة ١٥ مايو ــ حلوان خلف مبنى جهاز مدينة ١٥ مايو
ت: سويتش/ ٥٥٠٦٨٨٨

الجيزة

- مكتبة الجيزة
العنوان: ١ ش مراد ــ ميدان الجيزة
ت: ٥٧٢١٣١١
- مكتبة رادوبيس
العنوان: ش الهرم ــ محطة ومبى ــ مبنى سينما رادوبيس
- مكتبة أكاديمية الفنون
العنوان: ش الهرم ــ محطة ومبى ــ مبنى الأكاديمية خلف مدينة السينما
ت: سويتش/ ٥٨٥٠٢٩١
- مكتبة ساقية عبد المنعم الصاوى
العنوان: الزمالك ــ نهاية شارع ٢٦ يوليو من جهة أبو الفدا

الأسكندرية

- مكتبة الأسكندرية
العنوان: ٤٩ ش سعد زغلول ــ محطة الرمل
ت: ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥.

محافظات القناة

- مكتبة الإسماعيلية
العنوان: الإسماعيلية: التمليك ــ المرحلة الخامسة ــ عمارة ٦ مدخل (أ)
ت: ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨
- مكتبة جامعة قناة السويس
العنوان: الإسماعيلية: مبنى الملحق الإدارى ــ بكلية الزراعة ــ الجامعة الجديدة
ت: ٠٦٤/٣٨٢٠٧٨
- مكتبة بور فؤاد

العنوان: بور سعيد: بجوار مدخل الجامعة ناصية شارع ١١، ١٤

محافظات الوجه القبلى

- مكتبة أسوان

العنوان: السوق السياحى ــ أسوان
ت: ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

- مكتبة أسيوط

العنوان: ٦٠ ش الجمهورية ــ أسيوط
ت: ٢٣٢٢٠٣٢/ ٠٨٨

- مكتبة المنيا

العنوان: ١٦ ش إبن خصيب ــ المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

- مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

العنوان: مبنى كلية الآداب ــ جامعة المنيا
ت: سويتش الجامعة/ ٢٣٦٤٦٥٦ /٠٨٦

محافظات الوجه البحرى

- مكتبة طنطا

العنوان: ميدان الساعة ــ طنطا ــ عمارة سينما أمير
ت:٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

- مكتبة المحلة الكبرى

العنوان: ميدان محطة السكة الحديد ــ عمارة الضرائب سابقاً

- مكتبة دمنهور

العنوان: ش عبد السلام الشاذلى دمنهور ــ عمارة ختعن

- مكتبة المنصورة

العنوان: ٥ ش الثورة ــ المنصورة
ت: ٢٢٤٦٧١٩ / ٠٥٠

- مكتبة منوف

العنوان: مبنى كلية الهندسة الالكترونية "جامعة منوف"
ت: سويتش/٣٦٦١٣٣٤/ ٠٤٨

مكتبات ووكلاء البيع بالدول العربية

- لبنان

مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب. بيروت. هاتف:٧٠٢١٣٣ــ ١٠
شارع صيدنايا المصيطبه ــ بناية الدوحة ــ ص.ب:٩١١٣ــ ١١ بيروت ــ لبنان

- سوريا

دار المدى للثقافة والنشر ــ دمشق ــ ص.ب: ٧٣٦٦ ــ شارع كرجيه حداد ــ المتفرع من شارع ٢٩ أيار. الجمهورية العربية السورية

- تونس

المكتبة الحديثة. ٤ ش الطاهر صفر ــ ٤٠٠٠ سوسة ــ الجمهورية التونسية

- ليبيا

دار مكتبة الفكر ــ طرابلس ــ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى ــ ش عمرو بن العاص٦٥ /٦٧ ــ هاتف: ٣٣٣٢٦١٠ فاكس: ٣٤٠٣٩٩١ــ٠٠٢١٨١

- المملكة العربية السعودية

* مؤسسة العبيكان ــ ص.ب:٦٢٨٠٧ــ الرياض ١١٥٩٥ ــ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة هاتف : ٤٦٥٤٤٢٤ــ ٤١٦٠٠١٨ ــ المملكة العربية السعودية
* شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية. جدة ــ الشرفية ش الستين ص.ب: ٣٠٧٤٦ ــ جدة ٢١٤٨٧ ــ ت مكتب: ٦٥١٤٢٢٢ ــ ٦٥٧٠٦٢٨ ــ ٦٥٧٠٧٢٢ ــ ٦٥١٠٤٢١
* مكتبة الرشد للنشر والتوزيع ــ الرياض ــ المملكة العربية السعودية ــ ص.ب:١٧٥٢٢ ــ الرياض ١١٤٩٤ ت: ٤٥٩٣٤٥١
* مؤسسة عبد الرحمن السديرى الخيرية ــ الجوف ــ المملكة العربية السعودية ــ دار الجوف للعلوم ــ ص.ب: ٤٥٨ ــ الجوف ــ هاتف: ٦٢٤٥٩٩٢